تفسير المراغي

تأليف

صاحب الفضيلة الأستاذ الكبير

أحمد مصطفى المراغي

أستاذ الشريعة الإسلامية واللغة العربية
بكلية دار العلوم سابقا

الجزء التاسع

شركة مكتبة ومطبعة مصطفى البابي الحلبي وأولاده بمصر

الطبعة الأولى

١٣٦٥ هـ — ١٩٤٦ م

الجزء التاسع

قَالَ الْمَلَأُ الَّذِينَ اسْتَكْبَرُوا مِنْ قَوْمِهِ : لَنُخْرِجَنَّكَ يَا شُعَيْبُ وَالَّذِينَ آمَنُوا مَعَكَ مِنْ قَرْيَتِنَا أَوْ لَتَعُودُنَّ فِي مِلَّتِنَا ، قَالَ أَوَ لَوْ كُنَّا كَارِهِينَ ؟ (٨٨) قَدِ افْتَرَيْنَا عَلَى اللَّهِ كَذِبًا إِنْ عُدْنَا فِي مِلَّتِكُمْ بَعْدَ إِذْ نَجَّانَا اللَّهُ مِنْهَا ، وَمَا يَكُونُ لَنَا أَنْ نَعُودَ فِيهَا إِلَّا أَنْ يَشَاءَ اللَّهُ رَبُّنَا ، وَسِعَ رَبُّنَا كُلَّ شَيْءٍ عِلْمًا ، عَلَى اللَّهِ تَوَكَّلْنَا ، رَبَّنَا افْتَحْ بَيْنَنَا وَبَيْنَ قَوْمِنَا بِالْحَقِّ وَأَنْتَ خَيْرُ الْفَاتِحِينَ (٨٩)

بسم الله الرحمن الرحيم

المعنى الجملى

هذه الآيات من تتمة قصص شعيب ذكر فيها جواب الملإ من قومه عما أمرهم به : من عبادة الله وحده، وإيفاء الكيل والميزان، وعدم الفساد فى الأرض، وعما ختم به حديثه من التهديد والإنذار بقوله : فاصبروا حتى يحكم الله بيننا .

وتولى الرد عليـــه أشراف قومه كما هو الشأن فى بحث كبريات المسائل ومهام الأمور .

الإيضاح

(قال الملأ الذين استكبروا من قومه لنخرجنك ياشعيب والذين آمنوا معك من قريتنا أو لتعودنّ فى ملتنا) أى قال أشراف قومه الذين استكبروا عن الإيمان وعن اتباع ما أمرهم به ونهاهم عنه : قسما لنخرجنك ياشعيب أنت ومن آمن معك ــ من بلادنا كلها بغضا لـكم ودفعا لفتنتكم ، أو لترجعُنّ إلى ديننا ومعتقداتنا التى ورثناها عن آبائنا ، وتدخلُنّ فى زمرتنا وتندمجن فى غمارنا .

والخلاصة ــ ليكونن أحد الأمرين: إخراجكم من البلاد، أو عودتكم فى الملة ، فاختاروا لأنفسكم ما ترونه أرفق بكم وأوفق لـكم .

وشعيب عليـه السلام لم يكن قبل النبوة على ملة أخرى غير ملة قومه ، فساغ لهم أن يطالبوه بالعود إلى ملتهم ، وكونه لم يشاركهم فى شركهم ولا بخس الناس أشياءهم أمر سلبى لايعده به جمهورهم خروجا عنهم ــ فلا منافاة بين هـذا وعصمة الأنبياء عن الـكفر .

(قال أولو كنا كارهين) أى أتأمروننا أن نعود فى ملتكم وتهددوننا بالنفى من أوطاننا والإخراج من ديارنا إن لم نفعل ولو كنا كارهين لـكل من الأمرين ؟ .

إنكم لقد جهلتم أن الدين عقيدة وأعمال يتقرب بها إلى الله الذى شرعها لتكميل الفطرة البشرية ، كما جهلتم أن حب الوطن لايبلغ منزلة حب الدين لدىّ ولدى قومى ، فظننتم فىّ وفيمن آمن معى أننا نؤثر التمتع بالإقامة فى الوطن ، على مرضاة الله بالتوحيد المطهر من أدران الخرافات ، وبالفضائل المهذبة للنفوس والمرقية لها فى معارج الـكمال حتى تتم لنا سعادة الدنيا والآخرة .

فللدين منزلة فى النفوس لاتسمو إليها منزلة أخرى ، فإن تمكن صاحبه من إقامته

فى وطنه و إصلاح أهله به فهم أحق به ، و إن فتن فى دينه فيه كان تركه واجبا عليه، فإن لم يُخْرج منه شعيب ومن آمن معه إخراجا وهم كارهون ، كما أخرج خاتم النبيين مع صحبه السابقين الأولين إلى الإسلام - خرجوا مهاجرين كما فعل إبراهيم عليه السلام كما حكى الله عنه : « وَقَالَ إِنِّى مُهَاجِرٌ إِلَى رَبِّى إِنَّهُ هُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ » .

وقد أوجب الله الهجرة على من يستضعف فى وطنه ، فيمنع من إقامة دينه فيه، فإن لم يفعل ذلك دخل تحت وعيد قوله : « إِنَّ الَّذِينَ تَوَفَّاهُمُ الْمَلاَئِكَةُ ظَالِمِى أَنْفُسِهِمْ قَالُوا فِيمَ كُنْتُمْ ؟ قَالُوا كُنَّا مُسْتَضْعَفِينَ فِى الْأَرْضِ - قَالُوا : أَلَمْ تَكُنْ أَرْضُ اللهِ وَاسِعَةً فَتُهَاجِرُوا فِيهَا ؟ فَأُولَئِكَ مَأْوَاهُمْ جَهَنَّمُ وَسَاءَتْ مَصِيرًا . إِلاَّ الْمُسْتَضْعَفِينَ مِنَ الرِّجَالِ وَالنِّسَاءِ وَالْوِلْدَانِ لاَيَسْتَطِيعُونَ حِيلَةً وَلاَيَهْتَدُونَ سَبِيلاً . فَأُولَئِكَ عَسَى اللهُ أَنْ يَعْفُوَ عَنْهُمْ وَكَانَ اللهُ عَفُوًّا غَفُورًا » .

ثم بين أحق الأمرين بالرفض وأجدرها بالبغض متعجبا من كلامهم فقال :

(قد افترينا على الله كذبا إن عدنا فى ملتكم بعد إذ نجانا الله منها) أى ما أعظم افتراءنا على الله إن عدنا فى ملتكم بعد إذ نجانا الله منها وهدانا الصراط المستقيم باتباع ملة إبراهيم .

و إذ كان اتباع ملتكم يعدّ افتراء على الله لأنه قول عليه لاعلم لنا به بوحى ولا برهان من العقل ، فكيف بمن يفترى عليه ويضل عن صراطه على علم ؟ ، فالكفر بالحق وغمطه بعد العلم به هو شر أنواع الكفر ، والافتراء على الله فيه أقطع ضروب الافتراء التى لاتقبل فيها الأعذار بحال .

وفى قوله إذ نجانا أى نجا أصحابى منها فهو تغليب بإدخاله فى زمرتهم ، أو نجانى من الانتماء إلى هذه الملة التى ما كنت أومن بعقيدتها ولا أعمل بعمل أهلها ، ولم أهتد بعقلى ورأيى إلى ملة خير منها فوقفت موقف الحيرة فى شأنها ، كما جاء فى خطاب النبى صلى الله عليه وسلم قوله : « وَوَجَدَكَ ضَالاًّ فَهَدَى » وقوله: « وَكَذَلِكَ أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ

رُوحاً مِنْ أَمْرِنَا مَا كُنْتَ تَدْرِى مَا الْكِتَابُ وَلاَ الإِيمَانُ وَلَـكِنْ جَعَلْنَاهُ نُورًا نَهْدِى بِهِ مَنْ نَشَاءُ مِنْ عِبَادِنَا » .

(وما يكون لنا أن نعود فيها إلا أن يشاء الله ربنا) يقولون ما يكون لى أن أفعل كذا على معنى أنه غير مستطاع لى ولا جار على السنن المعقولة .

أى ليس من شأننا أن نعود فيها فى حال من الأحوال إلا حال مشيئة ربنا المتصرف فى جميع شئونها ، فهو وحده القادر على ذلك ، لا أنتم ولا نحن ، لأنا موقنون بأن ملتكم باطلة ، وملتنا هى الحق التى بها صلاح حال البشر وعمران الأرض .

وهذه الجملة رفض آخر للعود إلى ملتهم مؤكد أبلغ التأكيد ، مؤيس لهم من عودته ومن آمن معه إلى ملتهم ، فبعد أن نفى وقوع العود منهم باختيارهم نفاه نفيا مؤكدا بأنه ليس من شأنهم ولا يجىء من قِبَلهم بحال من الأحوال كالترغيب والترهيب بالرجاء فى المنافع والخوف من المضار كالإخراج من الديار إلا حالا واحدة وهى مشيئة الله ، ومشيئته تجرى على حسب علمه وحكمته فى خلقه ، وسنته فى خلقه أن ينصر أهل الحق على أهل الباطل ما داموا ناصرين له وقائمين بما هداهم إليه منه .

وخلاصة ذلك — لاتطمعوا أن يشاء ربنا الحَفِىُّ بنا عودتنا فى ملتكم بعد إذ نجانا منها بفضله ، فما كان الله ليدحض حجته ويغير سنته .

(وسع ربنا كل شىء علما) فهو سبحانه يعلم كل حكمة ومصلحة ، ومشيئته تجرى على موجب الحكمة ، فكل مايقع فهو مشتمل عليها ، وفى هذا إيماء إلى عدم الأمن من مكر الله سبحانه : « فَلاَ يَأْمَنُ مَكْرَ اللهِ إِلاَّ الْقَوْمُ الْخَاسِرُونَ » .

(على الله توكلنا) أى إلى الله وحده وكلنا أمورنا مع قيامنا بكل ما أوجبه علينا من الحفاظ على شرعه ودينه ، فهو الذى يكفينا تهديدكم وما ليس فى استطاعتنا من جهادكم : « وَمَنْ يَتَوَكَّلْ عَلَى اللهِ فَهُوَ حَسْبُهُ » إذ من شروط التوكل الصحيح القيام بالأحكام الشرعية ومراعاة السنن الكونية والاجتماعية ، فمن يترك العمل بالأسباب فهو الجاهل المغرور لا المتوكل المأجور ، كيف وقد قال النبى صلى الله عليه وسلم

لمن سأله أيترك ناقته سائبة و يتوكل على الله ؟ «اعقلها وتوكل» رواه الترمذى ، وقال تعالى مخاطبا رسوله بعد أن أمره بمشورة أصحابه فى غزوة أحد : « فَإِذَا عَزَمْتَ فَتَوَكَّلْ عَلَى اللهِ » و إنما يكون العزم بعد الأخذ بالأسباب فقد لبس من يومئذ درعين وأعد العُدة لقتال أعدائه ورتب الجيوش على حسب القوانين المعروفة فى ذلك العصر .

وخلاصة رد شعيب على الملأ من قومه — إنه عجب من تهديدهم و إنذارهم ، وأقام الأدلة على امتناع عودهم إلى ملة الكفر باختيارهم ، وعدم استطاعة أحد إجبارهم عليه غير الله الفعال لما يريد . ثم ثنى بذكر توكله على الله الذى يكفى من توكل عليه ما أهمه مما هو فوق كسبه واختياره . ثم ثلث بالدعاء الذى لا يكون مرجو الإجابة إلا بعد القيام بعمل مافى الطاقة من الأعمال الكسبية مع التوكل على الله فقال :

(ربنا افتح بيننا و بين قومنا بالحق وأنت خير الفاتحين) الفتح إزالة الأغلاق والأشكال، وهو قسمان: حسى يدرك بالبصر كفتح العين والقفل والكلام الذى يكون من القاضى . ومعنوى يدرك بالبصيرة كفتح أبواب الرزق والمغلق من مسائل العلم والنصر فى وقائع الحرب والمبهم من قضايا الحكم ، ويقال فتح الله عليه إذا جُدَّ وأقبلت عليه الدنيا ، وفتح الله عليه نصره وفتح الحاكم بينهم وما أحسن فَتاحته أى حكمه كما قال شاعرهم :

ألا أبلغ بنى وهب رسولا   بأنى عن فتاحتهم غنىّ

و يقال بينهم فتاحات أى خصومات، وولى الفتاحة أى القضاء، وعن ابن عباس: ما كنت أدرى ما قوله تعالى : « ربنا افتح بيننا و بين قومنا » حتى سمعت بنت ذى يزن تقول لزوجها : تعال أفاتحك ، وقالت أعرابية لزوجها بينى و بينك الفتاح .

والمعنى — ربنا احكم بيننا و بين قومنا بالحق الذى مضت به سنتك فى التنازع بين المرسلين والكافرين و بين المحقين والمبطلين ، وأنت خير الحاكمين لإحاطة علمك بما يقع به التخاصم ، وتنزهك عن اتباع الظلم واتباع الهوى فى الحكم .

وَقَالَ الْمَلَأُ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ قَوْمِهِ لَئِنِ اتَّبَعْتُمْ شُعَيْبًا إِنَّكُمْ إِذًا لَخَاسِرُونَ (٩٠) فَأَخَذَتْهُمُ الرَّجْفَةُ فَأَصْبَحُوا فِي دَارِهِمْ جَاثِمِينَ (٩١) الَّذِينَ كَذَّبُوا شُعَيْبًا كَأَنْ لَمْ يَغْنَوْا فِيهَا، الَّذِينَ كَذَّبُوا شُعَيْبًا كَانُوا هُمُ الْخَاسِرِينَ (٩٢) فَتَوَلَّى عَنْهُمْ وَقَالَ يَا قَوْمِ لَقَدْ أَبْلَغْتُكُمْ رِسَالَاتِ رَبِّي وَنَصَحْتُ لَكُمْ فَكَيْفَ آسَى عَلَى قَوْمٍ كَافِرِينَ (٩٣)

شرح المفردات

الرجف: الحركة والاضطراب، والمراد بها الزلزلة، ومنه: «يَوْمَ تَرْجُفُ الْأَرْضُ وَالْجِبَالُ» وغنى بالمكان يغنى: كرضى يرضى، إذا نزل به وأقام فيه، والأسى: شدة الحزن.

المعنى الجملى

بعد أن ذكر سبحانه جواب الملأ من قوم شعيب وطلبهم منه العود إلى ملتهم، وبين يأسهم منه بما كان من جوابه لهم الدالّ على ثباته فى مقارعتهم وأنه دائب النصح والتذكير لهم علهم يرعوون عن غيهم.

ذكر هنا أنهم حذروا من آمن منهم بالويل والثبور وعظائم الأمور، إذ سيلحقهم الخسار فى دينهم والخسار فى دنياهم، لعل ذلك يثنيهم عن عزيمتهم ويردهم إلى الرشاد من أمرهم على حسب مايزعمون، فكانت عاقبة ذلك أن أصبحوا كأمس الدابر وأصبحت ديارهم خرابا يبابا لا أنيس فيها ولاجليس.

الإيضاح

(وقال الملأ الذين كفروا من قومه لئن اتبعتم شعيبا إنكم إذا لخاسرون) أى وقال الكافرون من قوم شعيب وهم الملأ الذين جحدوا آيات الله وكذبوا رسوله وتمادوا

فى غيهم لآخرين منهم : لئن اتبعتم شعيبا فيما يقول وأجبتموه إلى ما يدعوكم إليه من توحيد الله وأقررتم بنبوته إنكم إذا لخاسرون فى فعلكم وترككم ملّتكم التى أنتم عليها مقيمون إلى دينه الذى يدعوكم إليه .

وعمموا الخسران ليشمل خسران الشرف والمجد إذ بإيثاركم ملته على ملة آبائكم وأجدادكم تعترفون بأنهم كانوا ضالين ومعذبين عند الله ، وخسران الثروة والربح بما تحترفونه من تطفيف الكيل والميزان وبخس الغرباء أشياءهم لابتزاز أموالهم .

ووصف الملأ — أولا بالاستكبار — لأنه هو الذى جرأهم على تهديده وإنذاره بالإخراج من القرية وإشعاره بأنهم أرباب السلطان فيها ، وثانيا : بالكفر لأنه هو الحامل على الإغواء وصدهم عن الإيمان والأخذ بما جاء به ، ثم عللوا لهم صدهم بأن فى ذلك لهم مصلحة أيما مصلحة وفائدة أيما فائدة .

والخلاصة — إنه تعالى وصفهم أولا بالضلال ثم وصفهم ثانيا بالإغواء والإضلال.

(فأخذتهم الرجفة فأصبحوا فى دارهم جاثمين) أى فأخذتهم الزلزلة فأصبحوا فى دارهم منكبين على وجوههم ميتين ، وقد عبر عنه هنا بالرجفة ، وفى هود بالصيحة كعذاب ثمود ، وقد علمت هناك وجه الجمع بينهما .

وقد جاء فى سورة الشعراء إن الله أرسل شعيبا إلى أصحاب الأيكة وهم إخوة مدين فى النسب ، وقد أخرج ابن عساكر عن ابن عباس فى قوله : « كَذَّبَ أَصْحَابُ الْأَيْكَةِ الْمُرْسَلِينَ » قال كانوا أصحاب غيضة بين ساحل البحر ومدين — وفى ذلك دليل على أن الله أرسله إلى أهل مدين وإلى من اتصل بهم إلى ساحل البحر ، وأن حال الفريقين فى الكفر والمعاصى كانت واحدة ، وكان ينذرهم متنقلا بينهم .

وكان عذاب مدين بالصيحة والرجفة المصاحبة لها ، وعذاب أصحاب الأيكة بالسموم والحر الشديد وقد انتهى ذلك بظُلَّة من السحاب فزعوا إليها يتبردون بظلها فأطبقت عليهم فاختنقوا بها أجمعون .

(الذين كذبوا شعيبا كأن لم يغنوا فيها ، الذين كذبوا شعيبا كانوا هم الخاسرين) جاءت هذه الجملة بيانا من الله لما انتهى إليه أمرهم وكيف كانت عاقبة عملهم فكأن سائلا سأل عما آل تهديدهم لشعيب وقومه بقولهم : « لنخرجنك ياشعيب والذين آمنوا معك من قريتنا » وقولهم لقومهم : « لئن اتبعتم شعيبا إنكم إذا لخاسرون) فأجاب عن الأول جوابا مناقضا له بقوله : الذين كذبوا شعيبا الخ . أى الذين كذبوا شعيبا وأنذروه بالإخراج من قريتهم قد هلكوا وهلكت قريتهم فحرموها كأن لم يقيموا ولم يعيشوا فيها بحال ، وأجاب عن الثانى بقوله : الذين كذبوا شعيبا كانوا هم الخاسرين : أى الذين كذبوا وزعموا أن من يتبعه يكون خاسرا - كانوا هم الخاسرين لما كانوا موعودين به من سعادة الدنيا والآخرة دون الذين اتبعوه فإنهم كانوا هم الفائزين المفلحين .

وفى الآية إيماء إلى أن الحريص على التمتع بالوطن والاستبداد فيه على أهل الحق تكون عاقبته الحرمان الأبدى منه ، كما أن الحريص على الربح بأكل أموال الناس بالباطل ينتهى بالحرمان منه ومن غيره .

(فتولى عنهم وقال ياقوم لقد أبلغتكم رسالات ربى ونصحت لكم) أى فأدبر شعيب عنهم وخرج من بين أظهرهم حين أتاهم عذاب الله، وقال حزنا عليهم : ياقوم لقد أبلغتكم رسالات ربى وأديت إليكم ما بعثنى به إليكم وقد تقدم مثل هذا فى قصة صالح ، وقد اتحد إعذار الرسولين لاتحاد حال القومين .

(فكيف آسى على قوم كافرين) أى فكيف أحزن على قوم جحدوا وحدانية الله وكذبوا رسوله وأتوجع لهلاكهم بعد أن أعذرت إليهم وبذلت جهدى فى سبيل هدايتهم ونجاتهم فاختاروا مافيه هلاكهم ، وإنما يأسى من قصر فيما يجب عليه من النصح والإنذار .

وَمَا أَرْسَلْنَا فِي قَرْيَةٍ مِنْ نَبِيٍّ إِلاَّ أَخَذْنَا أَهْلَهَا بِالْبَأْسَاءِ وَالضَّرَّاءِ لَعَلَّهُمْ يَضَّرَّعُونَ (٩٤) ثُمَّ بَدَّلْنَا مَكَانَ السَّيِّئَةِ الْحَسَنَةَ حَتَّى عَفَوْا وَقَالُوا قَدْ مَسَّ آبَاءَنَا الضَّرَّاءُ وَالسَّرَّاءُ فَأَخَذْنَاهُمْ بَغْتَةً وَهُمْ لاَ يَشْعُرُونَ (٩٥)

شرح المفردات

القرية: المدينة الجامعة لزعماء الأمة ورؤسائها (العاصمة) والبأساء: الشدة والمشقة كالحرب والجدب وشدة الفقر، والضراء: مايضر الإنسان فى بدنه أو نفسه أو معيشته، والأخذ بها: جعلها عقابا لهم، والتضرع: إظهار الضراعة أى الضعف والخضوع، وعفوا كثروا ونموا، من قولك: عفا النبات والشعر إذا كثر، وبغتة: فجأة .

المعنى الجملى

بعد أن ذكر سبحانه حال الأمم السابقة مع أنبيائها وبيّن مافى قصصهم من العظة والعبرة فقد كانت العاقبة فى كل حال المتقين، والدائرة تدور على المبطلين .

أشار هنا إلى سنة الله فى الأمم التى تكذب رسلها أن ينزل بها البؤس وشظف العيش وسوء الحال فى دنياهم ليتضرعوا إلى ربهم وينيبوا إليه بالإقلاع عن كفرهم والتوبة من تكذيب أنبيائهم، وفى هذا من التحذير لقريش والتخويف لهم ما لا يخفى .

الإيضاح

(وما أرسلنا فى قرية من نبى إلا أخذنا أهلها بالبأساء والضراء لعلهم يضرعون) أى إن سنتنا قد جرت (ولا مبدل لها) أننا إذا أرسلنا نبيّا فى قوم وكذبوه أنزلنا بهم الشدائد والمصايب لنعدهم ونؤهلهم للتضرع والإخلاص فى دعائنا بكشفها، وقد ثبت بالتجارب لدى علماء الأخلاق أن الشدائد تربى الناس وتصلح فساد

أحوالهم ، فالمؤمن قد يشغله هناء العيش عن حاجته إلى ربه ، لـكن الشدائد تذكره به ، والكافر بالنعم قد يعرف قيمتها له بفقدها وتنبهه الشدائد والأهوال إلى وجود الرب الخالق المدبر لأمور الخلق وتذكره الأهوال بمصدر هذا النظام فى الـكون .

(ثم بدلنا مكان السيئة الحسنة) أى ثم أعطينا بدل ما كانوا فيـه من البلاء والمحنة ، الرخاء والسعة .

(حتى عفوا) أى حتى كثر عددهم ونموا ، إذ أن الرخاء مما يكون سببا فى كثرة النسل وبه تتم النعمة فى الدنيا على الموسرين ، ومن هذه الحسنات ما حدث لقوم هود من النعم التى بطروا بها وذكرهم هود بها فى قوله : « وَاذْكُرُوا إِذْ جَعَلَكُمْ خُلَفَاءَ مِنْ بَعْدِ قَوْمِ نُوحٍ وَزَادَكُمْ فِي الْخَلْقِ بَسْطَةً فَاذْكُرُوا آلاَءَ اللهِ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ » وكذا ما قاله صالح لقومه : « وَاذْكُرُوا إِذْ جَعَلَكُمْ خُلَفَاءَ مِنْ بَعْدِ عَادٍ وَبَوَّأَكُمْ فِي الْأَرْضِ تَتَّخِذُونَ مِنْ سُهُولِهَا قُصُوراً وَتَنْحِتُونَ الْجِبَالَ بُيُوتاً فَاذْكُرُوا آلاَءَ اللهِ وَلاَ تَعْثَوْا فِي الْأَرْضِ مُفْسِدِينَ » .

(وقالوا قد مس آباءنا الضراء والسراء) أى وقالوا قولا يدل على أنهم لا يعتبرون بأحداث الزمان . قالوا قد مس آباءنا من قبلنا ما يسوء وما يسر ، وما نحن إلا مثلهم فيصيبنا مثل ما أصابهم ، والدهر بالناس قلّب . وتلك عادة الدهر بأبنائه ، فلا الضراء عقاب على ذنب يرتكب ، ولا السراء جزاء على صالحات تكسب .

وخلاصة هذا — إنهم لم يفهموا السنن التى وضعها المولى سبحانه فى أسباب السعادة والشقاء فى البشر والتى أرشد إليها قوله : « إِنَّ اللهَ لاَ يُغَيِّرُ مَا بِقَوْمٍ حَتَّى يُغَيِّرُوا مَا بِأَنْفُسِهِمْ » ومن ثم لم يتذكروا ولم يعتبروا حين ذكرهم رسولهم ، بل أعرضوا ونأوا .

(فأخذناهم بغتة وهم لا يشعرون) أى فكان عاقبة أمرهم أن أخذناهم بالعذاب فجأة وهم لا شعور لديهم بما سيحل بهم ، إذ هم قد جهلوا سنن الله التى وضعها فى شئون

الاجتماع ، فلاهم اهتدوا إليها بعقولهم ، ولاهم صدقوا الرسل فيما أنذروهم به ، وجاء بمعنى الآية قوله تعالى فى سورة الأنعام: « فَلَمَّا نَسُوا مَا ذُكِّرُوا بِهِ فَتَحْنَا عَلَيْهِمْ أَبْوَابَ كُلِّ شَيْءٍ حَتَّى إِذَا فَرِحُوا بِمَا أُوتُوا أَخَذْنَاهُمْ بَغْتَةً فَإِذَا هُمْ مُبْلِسُونَ » .

فالكافرون إذا مسهم الشر يئسوا وابتأسو ، وإذا مسهم الخير بطروا واستكبروا و بغوا فى الأرض وأهلكوا الحرث والنسل ، والمؤمنون بالله وما جاء به رسله تكون الشدائد والمصايب تربية لهم وتمحيصا .

ولما ترك المسلمون هدى القرآن فى حكوماتهم ومصالحهم العامة ، وفى أعمال الأفراد سلبهم الله ما أعطاهم من أنواع العلم والحكمة واتبعوا سنن من قبلهم شبرا بشبر وذراعا بذراع ، فاتبعوا أهل الكتاب فى خرافاتهم وحفلهم وتقليد آبائهم وأجدادهم وطلب النفع والضر من دجالى الأحياء وقبور الأموات ، فغشيهم الجهل ، والنابتة منهم قلدوا الإفرنج فى الفسق والجمود وشر ما وصلوا إليه فى طور فساد حضارتهم وقلدوهم حتى فيما لايوافق أحوالهم وبلادهم ومصالحهم .

وهكذا ضلت الفئتان عن هدى القرآن وأضاعتا ما بقى من ملك الإسلام .

وَلَوْ أَنَّ أَهْلَ الْقُرَى آمَنُوا وَاتَّقَوْا لَفَتَحْنَا عَلَيْهِمْ بَرَكَاتٍ مِنَ السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ وَلَكِنْ كَذَّبُوا فَأَخَذْنَاهُمْ بِمَا كَانُوا يَكْسِبُونَ (٩٦) أَفَأَمِنَ أَهْلُ الْقُرَى أَنْ يَأْتِيَهُمْ بَأْسُنَا بَيَاتًا وَهُمْ نَائِمُونَ (٩٧) أَوَأَمِنَ أَهْلُ الْقُرَى أَنْ يَأْتِيَهُمْ بَأْسُنَا ضُحًى وَهُمْ يَلْعَبُونَ (٩٨) أَفَأَمِنُوا مَكْرَ اللَّهِ فَلَا يَأْمَنُ مَكْرَ اللَّهِ إِلَّا الْقَوْمُ الْخَاسِرُونَ (٩٩) أَوَلَمْ يَهْدِ لِلَّذِينَ يَرِثُونَ الْأَرْضَ مِنْ بَعْدِ أَهْلِهَا أَنْ لَوْ نَشَاءُ أَصَبْنَاهُمْ بِذُنُوبِهِمْ وَنَطْبَعُ عَلَى قُلُوبِهِمْ فَهُمْ لَا يَسْمَعُونَ (١٠٠)

شرح المفردات

بركات السماء : تشمل معارف الوحى العقلية ونفحات الإلهام الربانية ، والمطر ونحوه مما يوجب الخصب والخير فى الأرض ، وبركات الأرض : الخصب والمعادن ونحوهما ، والبأس : العذاب ، وبياتا : أى وقت بيات وهو الليل ، والضحى : انبساط الشمس وامتداد النهار ويسمى به الوقت ، ويلعبون : أى يلهون من فرط غفلتهم ، المكر : التدبير الخفى الذى يفضى بالممكور به إلى مالا يحتسب ، وهداه السبيل وهداه إليه وهداه له أى دله عليه وبيّنه له .

المعنى الجملى

بعد أن بين عز اسمه أخذه لأهل القرى الذين كذبوا رسلهم وكفروا بما جاءوا به وظلموا أنفسهم وظلموا الناس بما افتنّوا فيه من أفانين الشرك والمعاصى كما حكى الله فى محاورتهم لرسلهم وإجابة الرسل لهم بما سلف ذكره .

ذكر هنا لأهل مكة ولسائر الناس ما كان يكون من إغداق نعمه تعالى عليهم لو آمنو بالرسل واهتدوا بهديهم واعتبروا بسنة الله فى الأمم من قبلهم ، فإن سنته تعالى فى الأمم واحدة لاتبديل فيها ولا تحويل .

الإيضاح

(ولو أن أهل القرى آمنوا واتقوا لفتحنا عليهم بركات من السماء والأرض) أى ولو أن أهل مكة ومن حولهم من أهل القرى آمنوا بما دعاهم إليه خاتم الرسل صلوات الله عليه من عبادته تعالى وحده واتقوا ما نهاهم عنه من الشرك والفساد فى الأرض بارتكاب الفواحش والآثام ـ لفتحنا عليهم أنواعا من بركات السماء والأرض لم يعهدوها من قبل فتكون لهم أبواب نعم وبركات غير التى عهدوا فى صفاتها ونمائها وثباتها وأثرها فيهم ، فأنزلنا عليهم الأمطار النافعة التى تخصب الأرض وتكسب

البلاء رفاهية العيش ، وآتيناهم من العلوم والمعارف وفهم سنن الكون مالم يصل إلى مثله البشر من قبل .

والخلاصة — إنهم لو آمنوا لوسعنا عليهم الخير من كل جانب ويسرناه لهم بدل ما أصابهم من عقوبات بعضها من السماء وبعضها من الأرض .

والقاعدة التى أقرها القرآن الكريم أن الإيمان الصحيح ودين الحق سبب لسعادة الدنيا ويشارك المؤمنين فى المادى منها الكفار كما قال تعالى : « فَلَمَّا نَسُوا مَا ذُكِّرُوا بِهِ فَتَحْنَا عَلَيْهِمْ أَبْوَابَ كُلِّ شَيْءٍ » أى إن ذلك الفتح كان ابتلاء واختبارا لحالهم ، وكان من أثره فيهم البطر والأشر بدلا من الشكر لأولى النعم فكان نقمة لا نعمة ، وفتنة لا بركة ، ولكن المؤمنين إذا فتح الله عليهم كان أثره فيهم شكر الله عليه والاغتباط بفضله واستعماله فى سبيل الخير دون الشر وفى الإصلاح دون الإفساد ، ويكون جزاؤهم على ذلك زيادة النعم فى الدنيا وحسن الثواب عليها فى الآخرة .

(ولكن كذبوا فأخذناهم بما كانوا يكسبون) أى ولكنهم لم يؤمنوا ولم يتقوا بل كذبوا فأخذناهم بما كانوا يعملون من أعمال الشرك والمعاصى التى تفسد نظم المجتمع البشرى .

وذلك الأخذ بالتقلب أثر لازم لكسبهم المعاصى على حسب السنن التى وضعها الله فى الكون وتكون فيها العبرة لأمثالهم إن كانوا يعقلون هذه النواميس العامة التى لا تبديل فيها ولا تغيير .

ثم تعجب من حالهم وذكرهم من غفلتهم فقال :

(أفأمن أهل القرى أن يأتيهم بأسنا بياتا وهم نائمون) أى أجهل أهل مكة وغيرهم من أهل القرى الذين بلغتهم الدعوة والذين ستبلغهم ما نزل بمن قبلهم وغرهم ماهم فيه من نعمة فأمنوا أن يأتيهم عذابنا وقت بياتهم وهم نائمون .

(أو أمن أهل القرى أن يأتيهم بأسنا ضحى وهم يلعبون) أى أو أمن أهل القرى أن يأتيهم عذابنا فى وقت الضحى وهم منهكمون فى أعمالهم التى كأنها لعب أطفال لعدم فائدة تترتب عليها .

والخلاصة — إنه تعالى خوّفهم نزول العذاب بهم فى أوقات الغفلات إما حين النوم و إما وقت الضحى ، إذ يكثر فيه تشاغل الناس باللذات .

(أفأمنوا مكر الله فلا يأمن مكر الله إلا القوم الخاسرون) أى أكان سبب أمنهم إتيان بأسنا بياتا أو ضحى وهم غافلون عن مكر الله بهم بإتيانهم ببأسنا من حيث لايحتسبون ولا يقدرون ؟ إن كان الأمر كذلك فقد خسروا أنفسهم فإنه لايأمن مكر الله إلا القوم الخاسرون .

و إذا كانت الآية ناطقة بأن أمن الصالح المتعبد من مكر الله جهلا يورث الخسر فما بال من يأمن مكر الله وهو مسترسل فى معاصيه اتكالا على عفوه ومغفرته ورحمته ؟

وقد كان النبى صلى الله عليه وسلم يكثر من الدعاء بقوله : « يا مقلب القلوب والأبصار ثبت قلبى على دينك » . وذكر سبحانه أن الراسخين فى العلم يدعونه فيقولون : « رَبَّنَا لاَ تُزِغْ قُلُوبَنَا بَعْدَ إِذْ هَدَيْتَنَا وَهَبْ لَنَا مِنْ لَدُنْكَ رَحْمَةً » .

وكما أن الأمن من مكر الله خسران ومفسدة ، فاليأس من رحمة الله كذلك ، فكلاهما مفسدة تتبعها مفاسد .

(أولم يهد للذين يرثون الأرض من بعد أهلها أن لو نشاء أصبناهم بذنوبهم ونطبع على قلوبهم فهم لايسمعون) أى أكان ما ذكر آنفا مجهولا لأهل القرى وأنه هو سنة الله ولم يتبين لأولئك الذين يرثون الأرض من بعد أهلها قرنا بعد قرن وجيلا بعد جيل أن شأننا فيهم كشأننا فيمن سبقهم فهم خاضعون لمشيئتنا ، فلو نشاء أن نعذبهم بسبب ذنوبهم لعذبناهم كما أصبنا أمثالهم ممن قبلهم بمثلها وأهلكناهم كما أهلكناهم ، فإن لم نهلكهم بالعذاب نطبع على قلوبهم فهم لايسمعون الحكم

والنصائح سماع تفقه وتدبر : «وَمَا تُغْنِي الْآيَاتُ وَالنُّذُرُ عَنْ قَوْمٍ لَا يُؤْمِنُونَ» إذ أن قلوبهم قد ملئت بمعتقدات وشهوات تصرفها عن غيرها فجعلتهم من : «الْأَخْسَرِينَ أَعْمَالًا ، الَّذِينَ ضَلَّ سَعْيُهُمْ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَهُمْ يَحْسَبُونَ أَنَّهُمْ يُحْسِنُونَ صُنْعًا» .

وقد كان فى مثل هـذا القصص عبرة للمسلمين أيما عبرة فكتابهم يقص عليهم قصص الأمم قبلهم ويبين لهم أن ذنوب الأمم لاتغفر كذنوب بعض الأفراد وسنته فيها لاتتبدل ولاتتحول فكان عليهم أن يتقوا كل ماقصه من ذنوب الأمم التى هلك بها من قبلهم وزالت بها الدّولة لأعدائهم ، ولكنهم قصروا فى وعظ الأمة بها وإنذارهم عاقبة الإعراض عنها وترك الإعراض عن تدبرها ، وكان عليهم أن يعتبروا بقول النبى صلى الله عليه وسلم : «شيبتنى هود وأخواتها» وقوله تعالى: «أَفَلَمْ يَدَّبَّرُوا الْقَوْلَ أَمْ جَاءَهُمْ مَا لَمْ يَأْتِ آبَاءَهُمُ الْأَوَّلِينَ ، أَمْ لَمْ يَعْرِفُوا رَسُولَهُمْ فَهُمْ لَهُ مُنْكِرُونَ» .

تِلْكَ الْقُرَى نَقُصُّ عَلَيْكَ مِنْ أَنْبَائِهَا وَلَقَدْ جَاءَتْهُمْ رُسُلُهُمْ بِالْبَيِّنَاتِ فَمَا كَانُوا لِيُؤْمِنُوا بِمَا كَذَّبُوا مِنْ قَبْلُ كَذَلِكَ يَطْبَعُ اللَّهُ عَلَى قُلُوبِ الْكَافِرِينَ (١٠١) وَمَا وَجَدْنَا لِأَكْثَرِهِمْ مِنْ عَهْدٍ وَإِنْ وَجَدْنَا أَكْثَرَهُمْ لَفَاسِقِينَ (١٠٢) .

شرح المفردات

العهد : الوصية . والوصية تارة يراد بها إنشاؤها وإيجادها ، وأخرى يراد بها مايوصى به، ويقال عهدت إليه بكذا أى وصيته بفعله أوحفظه، وهو إما أن يكون بين طرفين وهو المعاهدة ، وإما من طرف واحد بأن يعهد إليك بشىء أو تلزم بشىء ، والميثاق هو العهد الموثق بضرب من ضروب التوكيد .

وقال الراغب: عهد الله تارة يكون بما ركزه فى عقولنا ، وتارة يكون بما أمرنا به فى الكتاب وألسنة رسله ، وتارة بما نلتزمه وليس بلازم فى أصل الشرع كالنذور وما يجرى مجراها اه .

والفسوق : الخروج عن كل عهد فطرى وشرعى بالنكث والغدر وغير ذلك من المعاصى ، ووجدنا الأولى بمعنى : ألفينا . والثانية بمعنى : علمنا .

المعنى الجملى

هذا خطاب وجه إلى النبى صلى الله عليه وسلم تسلية وتثبيتا له على الصبر على دعوته بتذكيره بما فى قصص أولئك الرسل مع أقوامهم من وجوه العبر والمواعظ ، و بيان أن ما يلاقيه منهم من ضروب العناد والاستكبار والإيذاء ليس بدعا بين الأمم بل ذلك طريق سلكه كثير من الأمم المجاورة لهم كعاد وثمود وأصحاب الأيكة وغيرهم ممن تقدم ذكرهم ، وقصصهم يدور على ألسنتهم بحكم الجوار لهم وطروق أرضهم فى حلهم وترحالهم فى رحلتى الشتاء والصيف .

الإيضاح

(تلك القرى نقص عليك من أنبائها) أى تلك القرى التى بعد عهدها ، وطال الأمد على تاريخها وجهل قومك حقيقة حالها نقصّ عليك بعض أنبائها مما فيه العبرة لقومك ولك .

والمراد بها القرى المعهودة فى هذا القصص ، والحكمة فى تخصيصها بالذكر أنها كانت فى بلاد العرب وما جاورها ، وكان أهل مكة وغيرهم ممن وجهت إليهم الدعوة أول الإسلام يتناقلون بعض أخبارها وهى جميعا طبعت على غرار واحد فى تكذيب الرسل والمماراة فيما جاءوا به من النذر فحل بهم النكال وأخذوا بعذاب الاستئصال ، فالعبرة فى جميعها واحدة ، ومن ثم فصلها من قصة موسى الآتية لأن قومه آمنوا به و إنما كذب فرعون وملؤه فعذبوا .

(ولقد جاءتهم رسلهم بالبينات فما كانوا ليؤمنوا بما كذبوا من قبل) أى ولقد جاء أهل تلك القرى رسلهم بالبينات الدالة على صدق دعوتهم و بالآيات التى اقترحوها عليهم لإقامة حجتهم ، فجاء كل رسول قومه بما أعذر به إليهم ، ولكن لم يكن من شأنهم أن يؤمنوا بعد مجىء البينات بما كذبوا به من قبل مجيئها حين بدء الدعوة إلى التوحيد وعبادة الله وحده بما شرعه وترك الشرك والمعاصى .

ذاك أن شأن المكذبين عنادا أو تقليدا أن يصروا على التكذيب بعد إقامة البينة ، إذ لاقيمة لها فى نظرهم ، فهم إما جاحدون معاندون ضلوا على علم ، و إما مقلدون يأبون النظر والفهم .

وفى معنى الآية قوله فى قصة نوح فى سورة يونس : « ثُمَّ بَعَثْنَا مِنْ بَعْدِهِ رُسُلاً إِلَى قَوْمِهِمْ فَجَاءوهُمْ بِالْبَيِّنَاتِ فَمَا كَانُوا لِيُؤْمِنُوا بِمَا كَذَّبُوا بِهِ مِنْ قَبْلُ كَذَلِكَ نَطْبَعُ عَلَى قُلُوبِ الْمُعْتَدِينَ » .

(كذلك يطبع الله على قلوب الكافرين) أى مثل ما ذكر من عناد هؤلاء و إصرارهم على الضلال وعدم تأثير الدلائل والبينات فى عقولهم يكون الطبع على قلوب من ران الكفر على قلوبهم وصار العناد ديدنهم على حسب سنة الله فى أخلاق البشر وأحوالهم ، إذ هم يأنسون بالكفر وأعماله وتستحوذ أوهامه على عقولهم و يملأ حب الشهوات أفئدتهم فلا يقبلون بحثا ولا فيهم عليه نقدا ، فما مثلها إلا مثل السكة التى طبعت على طابع خاص أثناء صهر معدنها و إذابته ثم جمدت فلا تقبل بعد ذلك نقشا ولاشكلا آخر .

وفى الآية تسلية للنبى صلى الله عليه وسلم و إعلام له بأن أهل مكة قد وصلوا إلى حال من الجمود والعناد وفساد الفطرة و إهمال النظر والعقل لاتؤثر فيها البينات و إن وضحت ، ولا الآيات و إن اقترحت .

وقد كانوا يقترحون عليه الآيات، وكان يتمنى أن يؤتيه الله ما اقترحوا منها حرصا

على إيمانهم ، حتى بين الله له طباعهم وأخلاقهم ليعرف مبلغ أمرهم فى قبول دعوته وأنه لا أمل له فيهم بحال .

(وما وجدنا لأكثرهم من عهد) أى وما وجدنا لأكثر أولئك الأقوام عهدا ما يفون به سواء كان عهد الفطرة التى فطر الله الناس عليها (إذ قد فطر الله أنفس البشر على الشعور بسلطان غيبى فوق جميع القوى ، وعلى إيثار الحسن واجتناب غيره وعلى حب الكمال وكراهة النقص) أم كان العهد الذى أخذه ربهم عليهم وهم فى الأصلاب أنه ربهم ومليكهم وأنه لا إله إلا هو، وأقروا بذلك وشهدوا على أنفسهم به وخالفوه وتركوه وراء ظهورهم وعبدوا مع الله غيره بلا دليل ولا حجة من عقل ولا شرع ، وقد جاء فى صحيح مسلم : « يقول الله : إنى خلقت عبادى حنفاء فجاءتهم الشياطين فاجتالتهم عن دينهم وحرمت عليهم ما أحللت لهم » وفى الصحيحين : « كل مولود يولد على الفطرة فأبواه يهوّدانه أو ينصرانه أو يمجسانه » .

(وإن وجدنا أكثرهم لفاسقين) أى وإننا وجدنا أكثرهم خارجين على كل عهد فطرى وشرعى وعرفى فهم ناكثون غادرون للعهود مرتكبون أفانين المعاصى .

وفى التعبير بالأكثر إيماء إلى أن بعضهم قد آمن والتزم كل عهد عاهده الله عليه أو تعاهد عليه مع الناس .

وهذا من دأب القرآن فى تحقيق الحقائق على وجه الصدق بحيث لا تشوبها شبهات المبالغة بما يسلب أحدا حقه أو يعطى أحدا حق غيره .

قصص موسى عليه السلام

ثُمَّ بَعَثْنَا مِنْ بَعْدِهِمْ مُوسَى إِلَى فِرْعَوْنَ وَمَلَئِهِ فَظَلَمُوا بِهَا فَانْظُرْ كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الْمُفْسِدِينَ (١٠٣) وَقَالَ مُوسَى يَا فِرْعَوْنُ إِنِّى رَسُولٌ مِنْ رَبِّ الْعَالَمِينَ (١٠٤) حَقِيقٌ عَلَى أَلَّا أَقُولَ عَلَى اللهِ إِلَّا الْحَقَّ قَدْ جِئْتُكُمْ

بِبَيِّنَةٍ مِنْ رَبِّكُمْ فَأَرْسِلْ مَعِيَ بَنِي إِسْرَائِيلَ (١٠٥) قَالَ إِنْ كُنْتَ جِئْتَ بِآيَةٍ فَأْتِ بِهَا إِنْ كُنْتَ مِنَ الصَّادِقِينَ (١٠٦) فَأَلْقَى عَصَاهُ فَإِذَا هِيَ ثُعْبَانٌ مُبِينٌ (١٠٧) وَنَزَعَ يَدَهُ فَإِذَا هِيَ بَيْضَاءُ لِلنَّاظِرِينَ (١٠٨) قَالَ الْمَلَأُ مِنْ قَوْمِ فِرْعَوْنَ إِنَّ هَٰذَا لَسَاحِرٌ عَلِيمٌ (١٠٩) يُرِيدُ أَنْ يُخْرِجَكُمْ مِنْ أَرْضِكُمْ فَمَاذَا تَأْمُرُونَ (١١٠) قَالُوا أَرْجِهْ وَأَخَاهُ وَأَرْسِلْ فِي الْمَدَائِنِ حَاشِرِينَ (١١١) يَأْتُوكَ بِكُلِّ سَاحِرٍ عَلِيمٍ (١١٢) .

شرح المفردات

موسى: هو موسى بن عمران (بكسر العين) وأهل الكتاب يقولون: (عمرام) بفتح أوله، وإنما سمى موسى لأنه ألقى بين ماء وشجر، فالماء بالقبطية (مو) والشجر: (سى) وذلك أن أمه وضعته بعد ولادته فى تابوت: (صندوق) وأقفلته إقفالا محكما وألقته فى (نهر النيل) خوفا من فرعون وحكومته أن يعلموا به فيقتلوه إذ كانوا يذبحون ذكور بنى إسرائيل عند ولادتهم ويتركون نساءهم .

وفرعون لقب لملوك مصر القدماء كلقب قيصر لملوك الروم وكسرى لملوك الفرس، والراجح لدى كثير ممن يعنون بالتاريخ المصرى القديم أن فرعون موسى هو الملك منفتاح وكان يلقب بسليل الإله: (رع) أى الشمس وقد كتب بجانب هيكله الذى بدار الآثار الآية الكريمة: «فَالْيَوْمَ نُنَجِّيكَ بِبَدَنِكَ لِتَكُونَ لِمَنْ خَلْفَكَ آيَةً» والملأ أشراف القوم، وظلموا بها: جحدوا بها وكفروا، وحقيق: أى جدير وخليق به، يقولون أنت حقيق بكذا كما يقولون: أنت جدير به وخليق به، والنزع: إخراج الشىء من مكانه، وتأمرون: أى تشيرون فى أمره، يقولون: مرنى بكذا على معنى: أشر علىّ وأدلِ برأيك، وأرجئ: أى أرجئ أمره وأخّره ولا تفصل فيه بادى الرأى، وفى المدائن

أى مدائن ملكك ، وحاشرين أى جامعين سائقين السحرة منها ، وعليم : أى بفنون السحر ، ماهر فيها .

المعنى الجملى

هذه هى القصة السادسة من قصص الأنبياء التى ذكرت فى هذه السورة وفيها من الإيضاح والتفصيل مالم يذكر فى غيرها لأن معجزات موسى كانت أقوى من معجزات غيره ممن سبق ذكرهم ، وجهل قومه كان أفحش . وقد ذكرت قصته فى عدة سور مكية بين مطولة ومختصرة ، وذكر اسمه فى سور كثيرة زادت على مائة وثلاثين مرة، وسر هذا : أن قصته أشبه قصص الرسل بقصص النبى صلى الله عليه وسلم إذ أنه أوتى شريعة دينية دنيوية ، وكوّن الله تعالى به أمة عظيمة ذات ملك ومدنية .

الإيضاح

(ثم بعثنا من بعدهم موسى بآياتنا إلى فرعون وملئه فظلموا بها) أى ثم بعثنا من بعد أولئك الرسل موسى بالمعجزات التى تدل على صدقه فيما يبلغه عنا إلى فرعون وأشراف قومه فظلموا أنفسهم وقومهم بالكفر بها كبرا وجحودا فكان عليهم إثم ذلك وإثم قومهم الذين حرموا من الإيمان باتباعهم لهم، وقال : «إلى فرعون وملئه» ولم يقل فرعون وقومه لأن الملك ورجال الدولة هم الذين كانوا مستعبدين لبنى إسرائيل وبيدهم أمرهم وليس لسائر المصريين من الأمر شىء لأنهم كانوا مستعبدين أيضا ، ولكن الظلم كان على بنى إسرائيل الغرباء أشد ، ولو آمن فرعون وملؤه لآمن سائر المصريين لأنهم كانوا تبعا لهم ، وقد كان موسى مرسلا إلى قومه بنى إسرائيل قصدا وإلى فرعون وملئه وسيلة .

(فانظر كيف كان عاقبة المفسدين) أى فانظر أيها الرسول كيف كان عاقبة فرعون وملئه المفسدين فى الأرض بالظلم واستعباد البشر حين جحدوا آيات الله وكفروا بها .

وفى هذا تشويق وتوجيه للنظر إلى ما سيقصه الله تعالى من عاقبة أمرهم إذ نصر رسوله موسى وهو واحد من شعب مستضعف مستعبد لهم، على فرعون وملئه وهم أعظم أهل الأرض قوة وصولة بأن أبطل سحرهم وأقنع علماءهم وسحرتهم بصحة رسالته وكون آياته من عند الله ، ثم نصره بإرسال أنواع العذاب على البلاد ثم بإنقاذ قومه وإغراق فرعون ومن تبعه من ملئه وجنوده . وهذه عبرة قائمة على وجه الدهر وحجة على أن الغلب ليس للقوة المادية فحسب كما يقوله المغرورون بعظمة الأمم الظالمة فى الغرب لمن استضعفتهم من أهل الشرق .

وبعد التشويق والتنبيه المتقدم ، قص الله تعالى ما كان من أولئك القوم فى مبدأ أمرهم حتى انتهوا إلى تلك العاقبة .

(وقال موسى يا فرعون إنى رسول من رب العالمين. حقيق على ألا أقول على الله إلا الحق) أى إن موسى صلى الله عليه وسلم بلّغ فرعون أنه رسول من رب العالمين كلهم : أى سيدهم ومالكهم ومدبر جميع أمورهم ، فهو لايقول على الله إلا الحق إذ لايمكن أن يبعث الله رسولا يكذب عليه وهو الذى بيده ملكوت كل شىء فهو معصوم من الكذب والخطأ فيه .

والخلاصة — إن كلامه اشتمل على عقيدة الوحدانية ، وهى أن للعالمين ربا واحدا وعلى عقيدة الرسالة المؤيدة منه تعالى بالعصمة فى التبليغ والهداية .

ثم ذكر بعد هذا أن الله أيده ببينة تدل على صدقه فى دعواه فقال :

(قد جئتكم ببينة من ربكم فأرسل معى بنى إسرائيل) أى قد جئتكم ببرهان من ربكم شاهد على صدق ما أقول .

وفى قوله : من ربكم إيماء إلى أنهم مربوبون وأن فرعون ليس ربا ولا إلها وإلى أن البينة ليست من كسب موسى ولا مما يستقل به عليه السلام . ثم رتب على مجيئه بالبينة طلبه منه أن يرسل معه بنى إسرائيل أى يطلقهم من أسره ويعتقهم من رقه وقهره ليذهبوا معه إلى دار غير داره ويعبدوا فيها ربهم وربه .

وقد أجابه فرعون على طلبه بقوله :

(قال إن كنت جئت بآية فأت بها إن كنت من الصادقين) أى قال فرعون لموسى إن كنت قد جئت مؤيدا بآية من عند من أرسلك كما تدعى فأتنى بها وأظهرها لدىّ إن كنت ممن يقول الصدق ويلتزم قول الحق .

(فألقى عصاه فإذا هى ثعبان مبين ، ونزع يده فإذا هى بيضاء للناظرين) أى فلم يلبث موسى أن ألقى عصاه التى كانت بيمينه أمام فرعون فإذا هى ثعبان (ذكر الحيات) مبين، أى ظاهر بيّن لا خفاء فى كونه ثعبانا حقيقيا يسعى وينتقل من مكان إلى آخر وتراه الأعين من غير أن يسحرها ساحر فيخيل إليها أنها تسعى ، وقوله : ونزع يده ، أى أخرجها من جيب قميصه بعد أن وضعها فيه بعد إلقاء العصا فإذا هى بيضاء ناصعة البياض تتلألأ لكل من ينظر إليها .

وقد ذكر رواة التفسير بالمأثور روايات غاية فى الغرابة فى وصف الثعبان ليس لها سند يوثق به وما هى إلا إسرائيليات تلقفها المفسرون من أهل الكتاب الذين كانوا يكيدون للإسلام وللعرب كروايات وهب بن مُنَبِّه وهو فارسى الأصل أخرج كسرى والده إلى بلاد اليمن فأسلم فى زمن النبى صلى الله عليه وسلم وكان ابنه من بعده يختلف إلى بلاده بعد فتحها ، ومثله روايات كعب الأحبار الإسرائيلى ، وقد كان كلاهما كثير الرواية للغرائب التى لا يعرف لها أصل معقول ولا منقول ، وقومهما كانوا يكيدون للمسلمين الذين فتحوا بلاد الفرس وأجلوا اليهود من الحجاز ، ألا ترى أن قاتل الخليفة الثانى فارسى مرسل من جماعة سرية لقومه ، وقتلة الخليفة الثالث كانوا مفتونين بدسائس عبد الله بن سبأ اليهودى .

ويرى المحققون من أعلام المسلمين أن الفتن السياسية والأكاذيب التى حدثت فى الرواية فى الصدر الأول يرجع أمرها إلى جماعة السبئيين وجماعات الفرس التى كانت تزود هؤلاء الوضاعين بأسلحة من الغش والتدليس ليفسد الإسلام على أهله ولولا أن قيض الله للاسلام جماعة من أهل التحقيق أخرجوا البهرج والزيوف وأقروه

وراءهم ظهريا وأبقوا الجيد الذى لا لبس فيه ولا شك فى صحة روايته لكان خطبهم قد استفحل فى الإسلام وأفسدوا كثيرا منه على أهله ، ولكن الله قد حفظ الحنيفية لأهلها بيضاء نقية سمحة لا عنت فيها ولا إرهاق :

(قال الملأ من قوم فرعون إن هذا لساحر عليم ، يريد أن يخرجكم من أرضكم فماذا تأمرون) أى قال الأشراف من قوم فرعون وهم أهل مشورته ورؤساء دولته: إن هذا لساحر عليم : أى ماهر فى فنون السحر قد وجه كل همه لسلب ملككم منكم وإخراجكم من أرضكم بسحره ، إذ به يستميل الشعب وينتزع منكم الملك ، ثم يخرج الملك وعظماء رجاله من البلاد حتى لا يناوئوه فى شئون الملك واستعادته منه .

وقد أبان هذا المعنى بوضوح بقوله فى سورة يونس حكاية عنهم من مراجعتهم لموسى وأخيه: «قَالُوا أَجِئْتَنَا لِتَلْفِتَنَا عَمَّا وَجَدْنَا عَلَيْهِ آبَاءَنَا وَتَكُونَ لَكُمَا الْكِبْرِيَاءُ فِي الْأَرْضِ وَمَا نَحْنُ لَكُمَا بِمُؤْمِنِينَ » .

ولم يكن هذا القول منهم إلا صدى لما قاله فرعون وقد حكاه الله عنه فى سورة الشعراء بقوله : « قَالَ لِلْمَلَإِ حَوْلَهُ إِنَّ هَذَا لَسَاحِرٌ عَلِيمٌ ، يُرِيدُ أَنْ يُخْرِجَكُمْ مِنْ أَرْضِكُمْ بِسِحْرِهِ فَمَاذَا تَأْمُرُونَ » وقد رددوه بعده وصار بعضهم يلقيه إلى بعض كما هى عادة الناس فى ترديد كلام الملوك والرؤساء إظهارا للموافقة عليه وتعميا لتبليغه ، وبعد أن أتموا مقالتهم موافقين ما قاله فرعون تشاوروا فى أمره وكيف تكون حيلتهم فى إطفاء نوره وإخماد نار دعوته متخوفين أن يستميل الناس بسحره ، فاتفقت كلمتهم على ما حكاه الله عنهم بقوله :

(قالوا أرجه وأخاه وأرسل فى المدائن حاشرين) أى قال الملأ لفرعون حين استشارهم بقوله: فما تأمرون؟ أخر الفصل فى أمره وأمر أخيه وأرسل فى مدائن ملكك جماعات من رجال شرطتك وجندك حاشرين : أى جامعين لك السحرة منها وسائقيهم إليك .

وقد كان السحر فى زمانهم غالبا كثيرا ظاهرا ، ومن ثم خيل إلى كثير منهم أن ما جاء به موسى من قبيل ما تشعبذ به سحرتهم فلهذا جمعوا له السحرة ليعارضوه بنظير ما أراهم من البينات كما حكى الله عن فرعون حيث قال : « أَجِئْتَنَا لِتُخْرِجَنَا مِنْ أَرْضِنَا بِسِحْرِكَ يَامُوسَى، فَلَنَأْتِيَنَّكَ بِسِحْرٍ مِثْلِهِ فَاجْعَلْ بَيْنَنَا وَبَيْنَكَ مَوْعِدًا لَانُخْلِفُهُ نَحْنُ وَلَا أَنْتَ مَكَانًا سُوًى، قَالَ مَوْعِدُكُمْ يَوْمُ الزِّينَةِ وَأَنْ يُحْشَرَ النَّاسُ ضُحًى ، فَتَوَلَّى فِرْعَوْنُ فَجَمَعَ كَيْدَهُ ثُمَّ أَتَى » ،

(يأتوك بكل ساحر عليم) أى فإن ترسلهم يأتوك بكل ساحر مجيد لفنون السحر ماهر فيها فيكشفوا لك حقيقة ما جاء به موسى فلا يفتتن به أحد .

و إنما قال فى المدائن لأن السحر من العلوم التى توجد فى المدائن الجامعة المأهولة بدور العلم والصناعة ، و إنما نصحوه بإحضار السحرة الماهرين ، لأنهم الجديرون أن يأتوا موسى بمثل ما أتى به من الأمر العظيم .

فذلكة فى السحر وضروبه

السحر أعمال غريبة وحيل تخفى حقيقتها على جماهير الناس لجهلهم بأسبابها .

وقد كان فنا من الفنون التى يتعلمها قدماء المصريين فى مدارسهم الجامعة مع كثير من العلوم الكونية ، واقتفى أثرهم فى ذلك البابليون والهنود وغيرهم ولايزال يؤثر عن الوثنيين من الهنود أعمال غريبة مدهشة من السحر اهتم بعض الإنكليز وغيرهم بالبحث عن حقيقة أمرها فعرفوا بعضا وجهلوا تعليل الأكثر .

والسحر لا يروج إلا بين الجاهلين وله مكانة عظيمة فى القبائل الهمجية ، والبلاد ذات الحضارة تسميه بالشعوذة والاحتيال والدجل ، وهو أنواع ثلاثة :

(١) ما يعمل بأسباب طبيعية من خواص المادة معروفة للساحر مجهولة عند من يسحرهم بها كالزئبق الذى قيل إن سحرة فرعون وضعوه فى حبالهم وعصيهم كما سنذكره بعد ولو ادعى علماء الطبيعة والكيمياء فى هذا العصر السحر فى أواسط

إفريقيا وغيرها من البلاد التى يروج فيها السحر لأروهم العجب العجاب من غرائب الكهرباء وغيرها حتى لو ادعوا فيهم الألوهية لخضعوا لهم فضلا عن النبوة والولاية .

(٢) الشعوذة التى ملاك أمرها خفة اليدين فى إخفاء بعض الأشياء وإظهار بعض وإراءة بعضها بغير صورها وغير ذلك مما هو معروف فى هذه البلاد وغيرها من البلاد المتمدينة .

(٣) ما يكون مداره على تأثير الأنفس ذات الإرادة القوية فى الأنفس الضعيفة القابلة للأوهام والانفعالات التى يسميها علماء النفس : (بالأنفس الهستيرية) وأصحاب هذا النوع يستعينون على أعمالهم بأرواح الشياطين ومنهم من يكتب الأوفاق والطلّسمات للحب والبغض إلى نحو ذلك .

ومن ذلك ما استحدث فى هذا العصر من التنويم المغناطيسى .

وعلى الجملة فالسحر صناعة تتلقى بالتعليم كما ثبت بنص الكتاب الكريم وبالاختبار الذى لم يبق فيه شك بين العلماء فى هذا العصر .

قال أبو بكر الرازى المعروف بالجصاص وهو من فقهاء الحنفية فى القرن الرابع : زعموا أن النبى صلى الله عليه وسلم سحر وأن السحر عمل فيه حتى قال فيه : (إنه يخيل إلىّ أنى أقول الشىء وأفعله ، ولم أقله ولم أفعله وإن امرأة يهودية سحرته فى جُفّ طلعة : (وعاء طلع النخل) ومشط ومشاطة حتى أتاه جبريل عليه السلام فأخبره أنها سحرته فى جُفّ طلعة وهو تحت راعوفة البئر[1] . فاستخرج وزال عن النبى صلى الله عليه وسلم ذلك العارض .

إلى أن قال: ومثل هذه الأخبار من وضع الملحدين تلعبا بالحشو الطغام واستجرارا لهم إلى القول بإبطال معجزات الأنبياء عليهم السلام والقدح فيها ، وأنه لا فرق بين معجزات الأنبياء وفعل السحرة وأن جميعه من نوع واحد . والعجب ممن يجمع بين

(١) المشاطة : بالضم الشعر الذى يسقط حين تسريحه بالمشط ، وراعوفة البئر : الحجر الثابت الذى يقف عليه المستقى من البئر ، أى إنها وضعت المشط والمشاطة فى جف طلعة تحت حجر البئر .

تصديق الأنبياء عليهم السلام وإثبات معجزاتهم وبين التصديق بمثل هذا من فعل السحرة مع قوله تعالى : « وَلاَ يُفْلِحُ السَّاحِرُ حَيْثُ أَتَى » فصدق هؤلاء من كذبه الله وأخبر ببطلان دعواه وانتحاله ، وجائز أن تكون المرأة اليهودية بجهلها فعلت ذلك ظنا منها بأن ذلك يعمل فى الأجساد وقصدت به النبى عليه السلام فأطلع الله نبيه على موضع سرها وأظهر جهلها فيما ارتكبت وظنت ليكون ذلك من دلائل نبوته ، لا أن ذلك ضره ، وخلط عليه أمره ، ولم يقل كل الرواة انه اختلط عليه أمره ، وإنما هذا اللفظ زيد فى الحديث ولا أصل له اهـ .

وَجَاءَ السَّحَرَةُ فِرْعَوْنَ قَالُوا إِنَّ لَنَا لَأَجْرًا إِنْ كُنَّا نَحْنُ الْغَالِبِينَ (١١٣) قَالَ نَعَمْ وَإِنَّكُمْ لَمِنَ الْمُقَرَّبِينَ (١١٤) قَالُوا يَامُوسَى إِمَّا أَنْ تُلْقِيَ وَإِمَّا أَنْ نَكُونَ نَحْنُ الْمُلْقِينَ (١١٥) قَالَ أَلْقُوا فَلَمَّا أَلْقَوْا سَحَرُوا أَعْيُنَ النَّاسِ وَاسْتَرْهَبُوهُمْ وَجَاءُوا بِسِحْرٍ عَظِيمٍ (١١٦) .

المعنى الجملى

بعد أن ذكر فيما سلف أنهم طلبوا إليه تأخير الفصل فى أمره حتى يحضر السحرة ليفسدوا عليه أعماله ويبينوا خبء حيله ـ ذكر هنا أن السحرة جاءوا وطلبوا المثوبة من فرعون إن هم نفذوا ما طلبه فأجابهم إلى ذلك ففعلوا أفاعيلهم السحرية التى أوقعت الرهب فى قلوب المشاهدين .

الإيضاح

(وجاء السحرة فرعون قالوا إن لنا لأجرا إن كنا نحن الغالبين) أى وجاء السحرة الذين حشرهم أعوان فرعون وشرطته إليه ، وحين جاءوا قالوا لفرعون : هل لنا من أجر كفاء ما نقوم به من العمل العظيم الذى يتم به الغلب على موسى .

(قال نعم وإنكم لمن المقربين) أى قال فرعون مجيبا لهم إلى ما طلبوا : نعم إن لكم أجرا عظيما على ما تقومون به من ذلك العمل الجليل ، وأنتم مع ذلك تكونون من المقرّبين منا فتجمعون بين المال والجاه وذلك منتهى ما تطمعون فيه من نعيم الدنيا وسعادتها .

(قالوا يا موسى إما أن تلقى وإما أن نكون نحن الملقين) أى قال السحرة لموسى بعد عِدَة فرعون لهم : إما أن تلقى ما عندك أولا ، وإما أن نلقى ما عندنا ؛ وفى هذا التخيير منهم له — دليل على اعتدادهم بسحرهم وثقتهم بأنفسهم وعدم المبالاة بعمله ، ولولا ذلك لما خيروه . إذ المتأخر فى العمل يكون أبصر بما تقتضيه الحال بعد وقوفه على منتهى جهد خصمه .

(قال ألقوا) أى قال موسى عليه السلام وهو واثق بشأنه محتقر لهم غير مبال بهم : ألقوا ما أنتم ملقون وهو عليه السلام لم يأمرهم بفعل السحر ابتداء وإنما أمر بأن يتقدموه فيما جاءوا لأجله ولابد لهم منه ، وأراد بذلك التوسل إلى إظهار بطلان السحر لا إثباته وإلى بناء ثبوت الحق على بطلانه ، ولم يكن هناك وسيلة للإبطال إلا ذلك ، وقد صرح به فيما حكاه تعالى عنه : « قَالَ مُوسَى مَا جِئْتُمْ بِهِ السِّحْرُ إِنَّ اللّهَ سَيُبْطِلُهُ إِنَّ اللّهَ لاَ يُصْلِحُ عَمَلَ الْمُفْسِدِينَ . وَيُحِقُّ اللّهُ الْحَقَّ بِكَلِمَاتِهِ وَلَوْ كَرِهَ الْمُجْرِمُونَ » .

(فلما ألقوا سحروا أعين الناس واسترهبوهم وجاءوا بسحر عظيم) استرهبه أوقع فى قلبه الرَّهَبَ والخوف ، أى فلما ألقوا ما ألقوا من حبالهم وعصيهم سحروا أعين النظارة ومنهم موسى عليه السلام كما جاء فى سورة طه : « فَإِذَا حِبَالُهُمْ وَعِصِيُّهُمْ يُخَيَّلُ إِلَيْهِ مِنْ سِحْرِهِمْ أَنَّهَا تَسْعَى » وجاءوا بسحر عظيم فى مظهره كبير فى تأثيره فى أعين الناس .

قال ابن كثير أى خيلوا إلى الأبصار أن ما فعلوه له حقيقة فى الخارج ولم يكن إلا مجرد صنعة وخيال .

قال ابن عباس رضى الله عنه: إنهم ألقوا حبالا غلاظاً وخُشُبا طوالا فأقبلت يخيل إلىّ من سحرهم أنها تسعى .

قال ابن اسحق إن السحرة كانوا خمسة عشر ألف ساحر وأن الحيات التى أظهروها بخيال سحرهم كانت كأمثال الجبال قد ملأت الوادى . وقال السدى : إن السحرة كانوا بضعا وثلاثين ألفا اه .

وكل هذا مبالغات إسرائيلية وتهويلات لم يصح شىء منها وليس فى التوراة ما يؤيدها .

وقال الجصاص فى تفسيره : سحروا أعين الناس ، يعنى موهوا عليهم حتى ظنوا أن حبالهم وعصيهم تسعى ، كما قال : « يُخَيَّلُ إِلَيْهِ مِنْ سِحْرِهِمْ أَنَّهَا تَسْعَى » فأخبر أن ما ظنوه سعيا منها لم يكن سعيا وإنما كان تخيلا . وقد قيل إنها كانت عصيا مجوفة قد ملئت زئبقا وكذلك الحبال كانت معمولة من جلد محشوة زئبقا ، وقيل حفروا قبل ذلك تحت المواضع أسرابا ملئوها نارا فلما طرحت عليه وحمى الزئبق حركها لأن من شأن الزئبق إذا أصابته النار أن يطير اه .

فعلى هذا يكون سحرهم لأعين الناس عبارة عن هذه الحيلة الصناعية إذا صح خبرها . ويمكن أن تكون هناك حيلة أخرى كإطلاق أبخرة أثرت فى الأعين فجعلتها تبصر ذلك ، أو أن الحبال والعصى جعلت على صورة الحيات وحركت بحركات خفية سريعة لا تدركها أبصار الناظرين .

وَأَوْحَيْنَا إِلَى مُوسَى أَنْ أَلْقِ عَصَاكَ فَإِذَا هِيَ تَلْقَفُ مَا يَأْفِكُونَ (١١٧) فَوَقَعَ الْحَقُّ وَبَطَلَ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ (١١٨) فَغُلِبُوا هُنَالِكَ وَانْقَلَبُوا

صَاغِرِينَ (١١٩) وَأُلْقِيَ السَّحَرَةُ سَاجِدِينَ (١٢٠) قَالُوا آمَنَّا بِرَبِّ الْعَالَمِينَ (١٢١) رَبِّ مُوسَى وَهَارُونَ (١٢٢) .

شرح المفردات

لقف الشيء وتلقفه : تناوله بحذق وسرعة ، والمأفوك : المصروف عن وجهه الذى يحق أن يكون عليه ، ومن ثم يقال للرياح التى عدلت عن مهابها مؤتفكة كما قال : « وَجَاءَ فِرْعَوْنُ وَمَنْ قَبْلَهُ وَالْمُؤْتَفِكَاتُ بِالْخَاطِئَةِ » وقال : « قَاتَلَهُمُ اللَّهُ أَنَّى يُؤْفَكُونَ » أى يصرفون عن الحق فى الاعتقاد إلى الباطل ، وعن الصدق فى المقال إلى الكذب ، وعن الجميل فى الفعل إلى القبيح ، فالإفك يكون بالقول كالكذب وقد يكون بالفعل كعمل سحرة فرعون ، وانقلبوا عادوا ، وصاغرين أى أذلة بما رزئوا به من الخذلان والخيبة ، وألقى السحرة ساجدين : أى خروا سجدا لأن الحق بهرهم واضطرهم إلى السجود .

الإيضاح

(وأوحينا إلى موسى أن ألق عصاك فإذا هى تلقف ما يأفكون) أى أوحى الله إلى عبده ورسوله موسى عليه السلام فى ذلك الموقف العظيم الذى قرن فيه بين الحق والباطل — أن يلقى مافى يمينه وهى عصاه فإذا هى تبتلع ما يلقون ويوهمون به أنه حق وهو باطل — قال ابن عباس فجعلت لا تمر بشى من حبالهم ولا خُشُبهم إلا التقمته فعرفت السحرة أن هذا شىء من السماء وليس بسحر فخروا سجدا وقالوا آمنا برب العالمين رب موسى وهارون .

ويرى جماعة من المفسرين أن لقفها لما يأفكون — هو أنها أتت عليه حتى أظهرت بطلانه وبيان حقيقة أمره فى نفسه بسرعة فإن كان إفكهم بما أحدثوه من التأثير فى الأعين فلقفها إياه إزالته وإبطاله برؤية الحبال والعصى على حقيقتها وإن

كان تحريكا لها بحركات خفية سريعة فكذلك ، وإن كان قد حصل بجعلها مجوفة محشوة بالزئبق وتحريكه إياها بفعل الحرارة : (سواء كانت نارا أعدت لها أو الشمس حين أصابتها) فلقفها لذلك يكون بعمل من الحية أخرجت به الزئبق من الحبال والعصى فانكشفت به الحيلة ، ولو كانت قد ابتلعتها لبقى الأمر ملتبسا على الناس إذ قصاراه أن كلا من السحرة وموسى قد أظهر أمرا غريبا ولكن أحد الفريقين كان أقوى من الآخر فأخفاه على وجه غير معلوم ولا مفهوم ، وهذا لا ينافى كونهما من جنس واحد — ولكن زوال غشاوة السحر وتخييله حتى رأى الناس أن الحبال والعصى التى ألقاها السحرة ليست إلا حبالا وعصيا لا تسعى ولا تتحرك ، وأن عصا موسى لم تزل حية تسعى هو الذى ماز الحق من الباطل وعرفت به الآية الإلهية والحيلة الصناعية وقد فعلت ذلك بسرعة ومن ثم عبر عنه باللقف ، ولكن لا يعرف بما كان لها هذا التأثير لأنها آية إلهية لا أمر صناعى حتى تدرك حقيقته .

(فوقع الحق وبطل ما كانوا يعملون) أى فثبت الحق وفسد ما كانوا يعملون من الحيل والتخييل وذهب تأثيره ، إذ تبين لمن شهده وحضره أن موسى رسول من عند الله يدعو إلى الحق وأن ما عملوه ما هو إلا إفك السحر وكذبه ومخايله .

(فغلبوا هنالك وانقلبوا صاغرين) أى فغلب موسى فرعون وجموعه فى ذلك الجمع العظيم الذى كان فى عيد لهم ضربه موسى موعدا لهم كما جاء فى سورة طه : « قَالَ مَوْعِدُكُمْ يَوْمُ الزِّينَةِ وَأَنْ يُحْشَرَ النَّاسُ ضُحًى » وعادوا من ذلك الحفل صاغرين أذلة بما رزئوا به من خيبة وخذلان .

(وألقى السحرة ساجدين) أى وألقى السحرة حينما عاينوا عظيم قدرة الله ساقطين على وجوههم سجدا لربهم ، لأن الحق قد بهرهم واضطرهم إلى السجود ، حتى كأن أحدا دفعهم وألقاهم .

والخلاصة — إن ظهور بطلان سحرهم وإدراكهم فجأة لآية موسى وعلمهم بأنها من عند الله لا صنع فيها لمخلوق ملأت عقولهم يقينا وقلوبهم إيمانا فكأن هذا

اليقين الحاكم على الأعضاء والجوارح هو الذى ألقاهم على وجوههم سجدا لرب العالمين الذى بيده ملكوت كل شىء - وزالت من نفوسهم عظمة فرعون الدنيوية الزائلة بعد أن ظهر لهم صغاره أمام هذه الآية فنطقوا .

(قالوا آمنا برب العالمين . رب موسى وهارون) أى قالوا صدقنا بما جاءنا به موسى ، وأن الذى علينا أن نعبده هو رب الإنس والجن وجميع الأشياء المدبر لها رب موسى وهارون .

قَالَ فِرْعَوْنُ آمَنْتُمْ بِهِ قَبْلَ أَنْ آذَنَ لَكُمْ إِنَّ هٰذَا لَمَكْرٌ مَكَرْتُمُوهُ فِي الْمَدِينَةِ لِتُخْرِجُوا مِنْهَا أَهْلَهَا فَسَوْفَ تَعْلَمُونَ (١٢٣) لَأُقَطِّعَنَّ أَيْدِيَكُمْ وَأَرْجُلَكُمْ مِنْ خِلَافٍ ثُمَّ لَأُصَلِّبَنَّكُمْ أَجْمَعِينَ (١٢٤) قَالُوا إِنَّا إِلَى رَبِّنَا مُنْقَلِبُونَ (١٢٥) وَمَا تَنْقِمُ مِنَّا إِلَّا أَنْ آمَنَّا بِآيَاتِ رَبِّنَا لَمَّا جَاءَتْنَا رَبَّنَا أَفْرِغْ عَلَيْنَا صَبْراً وَتَوَفَّنَا مُسْلِمِينَ (١٢٦) .

شرح المفردات

المكر : صرف الإنسان عن مقصده بحيلة ، وهو نوعان : محمود ويراد به الخير . ومذموم يقصد به الشر ، وتقطيع الأيدى والأرجل من خلاف أن يقطع اليد اليمنى والرجل اليسرى والعكس بالعكس ، والصلب الشد على خشبة ونحوها وشاع فى تعليق الشخص بنحو حبل فى عنقه ليموت وهو المتعارف اليوم - ونقمت الشىء : إذا أنكرته إما باللسان وإما بالعقوبة كما قال تعالى « وَمَا نَقَمُوا إِلَّا أَنْ أَغْنَاهُمُ اللهُ وَرَسُولُهُ مِنْ فَضْلِهِ » - « وَمَا نَقَمُوا مِنْهُمْ إِلَّا أَنْ يُؤْمِنُوا بِاللهِ » وأفرغ علينا : أى أفض علينا صبرا يغمرنا كما يفرغ الماء من القرب .

المعنى الجملى

فى هذه الآية إخبار بما توعد به فرعون السحرة لما آمنوا بموسى عليه السلام وبما عزم عليه من التنكيل بهم وبما رد به السحرة عليه من استسلامهم لأمر الله لا لأمره ودعائهم ربهم بالتوفى على ملة الإسلام .

الإيضاح

(قال فرعون آمنتم به قبل أن آذن لكم) آمنتم إما خبر يراد به التوبيخ ، وإما استفهام يراد به الإنكار والتوبيخ .

والمعنى — أآمنتم به واتبعتموه مذعنين لرسالته قبل أن آذن لكم ؟ .

(إن هذا لمكر مكرتموه فى المدينة لتخرجوا منها أهلها) أى إن هذا الذى فعلتموه أنتم وهو ليس إلا مكرا مكرتموه واتفاقا دبرتموه من قبل بما أظهرتم من المعارضة والرغبة فى الغلب عليه مع إسرار اتباعه بعد ادعاء ظهور حجته كما جاء فى سورة طه : « إِنَّهُ لَكَبِيرُكُمُ الَّذِى عَلَّمَكُمُ السِّحْرَ » فأجمعتم كيدكم لنا فى هذه المدينة لأجل أن تخرجوا المصريين منها بسحركم ، ويكون لكم فيها مع بنى إسرائيل ماهو لنا الآن من الملك والرياسة والتصرف فى البلاد .

وكل ذى لب وفطنة يعلم أن هذه مقالة لا نصيب لها من الصحة ولا ظل لها من الحقيقة ، فإن موسى إثر مجيئه من مدين دعا فرعون إلى الله وأظهر المعجزات الباهرة ، فلم يكن من فرعون إلا أن أرسل رسله فى المدائن حاشرين ووعدهم بالعطاء الجزيل ، وموسى لايعرف منهم أحداً ولا رآه ولا اجتمع به ؛ وفرعون يعلم ذلك وإنما قال ذلك تسترا وتدليسا على رعاع دولته وجهلتهم كما قال تعالى « فَاسْتَخَفَّ قَوْمَهُ فَأَطَاعُوهُ » .

(فسوف تعلمون) ما أصنع بكم من العذاب جزاء على هذا المكر والخداع .

ثم بين ذلك بقوله :

(لأقطعنّ أيديكم وأرجلكم من خلاف ثم لأصلبنكم أجمعين) أى أقسم لأنكلنّ بكم أشد التنكيل، لأقطعن الأيدى والأرجل من خلاف ثم لأصلبنّ كل واحد منكم وهو على تلك الحال لتكونوا عبرة لمن تحدثه نفسه بالكيد لنا والترفع عن الخضوع لعظمتنا.

والخلاصة — إن اتهامه السحرة بالتواطؤ مع موسى إنما كان تمويها على قومه المصريين إذ خاف عاقبة إيمان الشعب بموسى فادعى أنه لا ينتقم من السحرة إلا حباً فيهم ودفاعا عنهم وإبقاء لاستقلالهم فى وطنهم كما هو شأن كل رئيس أو ملك فى شعب يخاف أن ينتقض عليه وتجتمع كلمته على اختيار زعيم آخر يقوم بدعوة دينية أو سياسية.

وعندما سمع السحرة هذا التهديد والوعيد من ذلك الجبار المتكبر أجابوه.

(قالوا إنا إلى ربنا منقلبون) أى إنهم لا يأبهون بقتلهم، لأنهم راجعون إلى ربهم، راجون مغفرته ورحمته، فتعجيل القتل يكون سبباً لقرب لقائه والتمتع بجزائه.

وقد يكون المعنى — إنا وإياك سننقلب إلى ربنا وما أنت بمخلد بعدنا، فلئن قتلتنا فسيحكم الله بعدله بينك وبيننا.

إلى ديان يوم الدين نمضى وعند الله تجتمع الخصوم

وفى هذا إيماء إلى تكذيبه فى دعوى الربوبية وتصريح بإيثار ما عند الله على ما عنده من الشهوات الدنيوية الزائلة وما جاء فى سورة الشعراء من قولهم « قَالُوا لاَ ضَيْرَ إِنَّا إِلَى رَبِّنَا مُنْقَلِبُونَ. إِنَّا نَطْمَعُ أَنْ يَغْفِرَ لَنَا رَبُّنَا خَطَايَانَا أَنْ كُنَّا أَوَّلَ الْمُؤْمِنِينَ » يؤيد المعنى الأول.

(وما تنقم منا إلا أن آمنا بآيات ربنا لما جاءتنا) أى وما تعيب منا وما تنكر إلا خير الأعمال وأصل المفاخر وهو الإيمان بالله، ومثل هذا لا يمكن العدول عنه مرضاة لك ولا طلبا للزلفى إليك.

وفيه تيئيس له وكأنهم قالوا لامطمع لك فى رجوعنا عن إيماننا ، وإلى أن تهديدك لايجدى فائدة .

وما ذكره السحرة من نقم فرعون منهم كان بالقول بالاستنكار التوبيخى لإيمانهم والتهمة فيه والوعيد عليه ، وهل نفذ الوعيد بالانتقام بالفعل ، الظاهر نعم بدليل قوله « فَانْظُرْ كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الْمُفْسِدِينَ » يعنى فرعون وملأه .

وقد ختم سبحانه كلام السحرة بدعائهم بقولهم :

« رَبَّنَا أَفْرِغْ عَلَيْنَا صَبْراً وَتَوَفَّنَا مُسْلِمِينَ » أى ربنا هب لنا صبراً واسعا تفرغه علينا وأيدنا بروحك حتى لايبقى فى قلوبنا شىء من خوف غيرك ولا من الرجاء فى سوى فضلك ، وتوفنا إليك مذعنين لأمرك ونهيك مستسلمين لقضائك غير مفتونين بتهديد فرعون ولا مطيعين له فى قوله ولا فعله . وقد ذكر المؤرخون قديما وحديثا أن المؤمنين بالله واليوم الآخر من كل ملة ودين يكونون أعظم شجاعة وأكثر صبراً على مشاق الحروب من غيرهم ، ومن ثم يحرص زعماء الشعوب على بث النزعة الدينية بين رجالات الجيوش .

وَقَالَ الْمَلَأُ مِنْ قَوْمِ فِرْعَوْنَ أَتَذَرُ مُوسَى وَقَوْمَهُ لِيُفْسِدُوا فِي الْأَرْضِ وَيَذَرَكَ وَآلِهَتَكَ ؟ قَالَ سَنُقَتِّلُ أَبْنَاءَهُمْ وَنَسْتَحْيِي نِسَاءَهُمْ وَإِنَّا فَوْقَهُمْ قَاهِرُونَ (١٢٧) قَالَ مُوسَى لِقَوْمِهِ اسْتَعِينُوا بِاللَّهِ وَاصْبِرُوا ، إِنَّ الْأَرْضَ لِلَّهِ يُورِثُهَا مَنْ يَشَاءُ مِنْ عِبَادِهِ وَالْعَاقِبَةُ لِلْمُتَّقِينَ (١٢٨) قَالُوا أُوذِينَا مِنْ قَبْلِ أَنْ تَأْتِيَنَا وَمِنْ بَعْدِ مَا جِئْتَنَا ، قَالَ عَسَى رَبُّكُمْ أَنْ يُهْلِكَ عَدُوَّكُمْ وَيَسْتَخْلِفَكُمْ فِي الْأَرْضِ فَيَنْظُرَ كَيْفَ تَعْمَلُونَ (١٢٩)

المعنى الجملى

يخبر سبحانه عما تمالأ عليه فرعون وملؤه وما أضمروه لموسى وقومه من الأذى والبغض وما كان من تأثير جوابه فى موسى وقومه ؛ لقد نصح موسى قومه ودار بينهم حوار قصه الله علينا فى تلكم الآيات .

الإيضاح

(وقال الملأ من قوم فرعون أتذر موسى وقومه ليفسدوا فى الأرض ويذرك وآلهتك ؟) أي قال الأشراف من قوم فرعون لفرعون : أتترك موسى وقومه أحرارا آمنين فتكون عاقبتهم أن يفسدوا عليك قومك بإدخالهم فى دينهم ، أو بجعلهم تحت سلطانهم ورياستهم ويتركك مع آلهتك فلا يعبدوك ولا يعبدوها فيظهر لأهل مصر عجزك وعجزها ولا يغيبن عنك إيمان السحرة فقد يكون مقدمة لما بعده .

والتاريخ المصرى المستمد من العاديات المصرية يدل على أنه كان للمصريين آلهة كثيرة منها الشمس ويسمونها (رع) وفرعون عندهم سليل الشمس وابنها .

(قال سنقتل أبناءهم ونستحيي نساءهم) أى قال فرعون مجيبا للملأ سنقتل أبناء قومه تقتيلا كلما تناسلوا ونستبقى نساءهم أحياء كما كنا نفعل قبل ولادته حتى ينقرضوا ويعلموا أنا على ما كنا عليه من القهر والغلبة .

(وإنا فوقهم قاهرون) أى وإنا مستعلون عليهم بالغلبة والسلطان قاهرون لهم كما كنا من قبل ، فلا يقدرون على أذانا ولا الإفساد فى أرضنا ولا الخروج من عبوديتنا وقد جاء فى سورة المؤمن « وَقَالَ فِرْعَوْنُ ذَرُونِي أَقْتُلْ مُوسَى وَلْيَدْعُ رَبَّهُ ، إِنِّي أَخَافُ أَنْ يُبَدِّلَ دِينَكُمْ أَوْ أَنْ يُظْهِرَ فِي الْأَرْضِ الْفَسَادَ » .

ولما سمع بنو إسرائيل هذا الوعيد خافوا من فرعون فطمأنهم موسى كما حكى الله عنه بقوله :

(قال موسى لقومه استعينوا بالله واصبروا إن الأرض لله يورثها من يشاء من عباده والعاقبة للمتقين) أى قال لهم ياقوم اطلبوا معونة الله وتأييده على رفع ذلك الوعيد عنكم ، واصبروا ولاتحزنوا فإن الأرض (فلسطين) التى وعدكموها ربكم هى لله الذى بيده ملكوت كل شىء يورثها من يشاء من عباده لالفرعون، فهى على مقتضى سننه دول وأيام ، والعاقبة الحسنى لمن يتقون الله ويراعون سننه فى أسباب إرث الأرض باتحاد الكلمة والاعتصام بالحق و إقامة العدل والصبر على الشدائد والاستعانة بالله لدى المكاره ، ونحو ذلك مما هدت إليه التجارب ودلت عليه الشرائع .

والخلاصة — إن الأمر ليس كما قال فرعون ، بل القهر والغلبة لمن صبر واستعان بالله ولمن وعده الله تعالى توريث الأرض ونحن الموعودون بذلك ولكن بشرط أن نقيم شرعه ونسير على سننه فى الخلق .

وليس الأمر كما يظن فرعون وقومه من بقاء القوى على قوته ، والضعيف على ضعفه اعتمادا على أن الآلهة ضمنت له بقاء ملكه وعظمته وجبروته .

لكن هذه الوصية وتلك النصائح لم تؤثر فى قلوبهم ففزعوا من فرعون وقومه .

و (قالوا أوذينا من قبل أن تأتينا ومن بعد ما جئتنا) فقد كان بنو إسرائيل قبل مجىء موسى مستضعفين فى يد فرعون يأخذ منهم إتاوات مختلفة و يستعملهم فى الأعمال الشاقة و يمنعهم من الترف و يقتل أبناءهم و يستحيى نساءهم ، فلما بعث الله موسى لم يستطع أن ينقذهم من ظلم فرعون إذ كان يؤذيهم و يظلمهم بعد إرساله كما كان يؤذيهم من قبل ذلك أو أشد .

ولما ذكروا ذلك لموسى أجابهم :

(قال عسى ربكم أن يهلك عدوكم و يستخلفكم فى الأرض فينظر كيف تعملون) أى قال موسى إن رجائى من فضل الله أن يهلك عدوكم الذى ظلمكم و يجعلكم خلفاء فى الأرض التى وعدكم إياها ومنعكم فرعون من الخروج منها فينظر سبحانه كيف

تعملون بعد استخلافه إياكم فيها — أتشكرون النعمة أم تكفرون ؟ وتصلحون فى الأرض أم تفسدون ، ويكون جزاؤكم فى الدنيا والآخرة على وفق ما تعملون .

وعبر بالرجاء دون أن يجزم بذلك لئلا يتركوا ما يجب من العمل ويتكلوا على ذلك ، أو لئلا يكذبوه لأن أنفسهم قد ضعفت بما طال عليها من الذل والاستخذاء لفرعون وقومه واستعظامهم لقومه وملكه .

وقد جاء فى الفصل السادس من سفر الخروج من التوارة : فقال الرب لموسى : ألا ترى ما أصنع بفرعون إنه بيد قديرة سيطلقكم ، وبيد قديرة سيطردكم من أرضه — وأعلمه بأنه أعطى إبراهيم وإسحق عهدا بأن يعطيهم أرض كنعان وأنه سمع أنين بنى إسرائيل الذين استعبدهم المصريون فذكر عهده — ثم قال: لذلك قل لبنى إسرائيل أنا الرب لأخرجنكم من تحت أثقال المصريين ، وأخلصنكم من عبوديتهم وأفدينكم بذراع مبسوطة وأحكام عظيمة وأتخذنكم لى شعبا وأكون لكم إلها وتعلمون أننى أنا الرب إلهكم المخرج لكم من تحت أثقال المصريين وسأدخلكم الأرض التى رفعت يدى مقسما أن أعطيها لإبراهيم وإسحق ويعقوب فأعطيها لكم ميراثا أنا الرب فكلم موسى بذلك بنى إسرائيل فلم يسمعوا لموسى لضيق أرواحهم وعبوديتهم الشاقة؟اه.

وعلينا أن نعرف أن جل ما كتبه المفسرون عن بنى إسرائيل إما منقول مما سمعوه ممن أسلم منهم وليس كل من أسلم منهم كان حافظا ثقة صادقا فى النقل وإما مأخوذ من كتب غير موثوق بها ، ومن ثم كان أكثر ما كتبوه فى التفسير منها مهوشا مضطربا حجة لأهل الكتاب علينا .

وإذا كان هذا حال علمائنا فى أخبارهم بعد انتشار العلوم فى البلاد الإسلامية ، فما بالك بأخبارهم لدى أهل مكة عند ظهور الإسلام ولم يكن فى مكة كتاب يقرأ ولا أحد يعرف القراءة والكتابة إلا ستة نفر من التجار يعرفونها معرفة ساذجة لا تشفى غليلا ولا تفيد فى تحقيق حادثة ولا حل مشكلة .

فأنى لمحمد بن عبد الله أن يعرف حقائق أخبارهم ومعرفة أحوالهم لولا الوحى الإلهى والفيض الربانى من لدن عليم خبير .

وَلَقَدْ أَخَذْنَا آلَ فِرْعَوْنَ بِالسِّنِينَ وَنَقْصٍ مِنَ الثَّمَرَاتِ لَعَلَّهُمْ يَذَّكَّرُونَ (١٣٠) فَإِذَا جَاءَتْهُمُ الْحَسَنَةُ قَالُوا لَنَا هَٰذِهِ وَإِنْ تُصِبْهُمْ سَيِّئَةٌ يَطَّيَّرُوا بِمُوسَى وَمَنْ مَعَهُ ، أَلَا إِنَّمَا طَائِرُهُمْ عِنْدَ اللَّهِ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لَا يَعْلَمُونَ (١٣١) وَقَالُوا مَهْمَا تَأْتِنَا بِهِ مِنْ آيَةٍ لِتَسْحَرَنَا بِهَا فَمَا نَحْنُ لَكَ بِمُؤْمِنِينَ (١٣٢) فَأَرْسَلْنَا عَلَيْهِمُ الطُّوفَانَ وَالْجَرَادَ وَالْقُمَّلَ وَالضَّفَادِعَ وَالدَّمَ آيَاتٍ مُفَصَّلَاتٍ فَاسْتَكْبَرُوا وَكَانُوا قَوْمًا مُجْرِمِينَ (١٣٣) .

تفسير المفردات

كثر استعمال الأخذ فى العذاب كقوله « وَكَذَٰلِكَ أَخْذُ رَبِّكَ إِذَا أَخَذَ الْقُرَىٰ وَهِيَ ظَالِمَةٌ إِنَّ أَخْذَهُ أَلِيمٌ شَدِيدٌ » وآل فرعون : قومه وخاصته وأعوانه فى أمور الدولة،وهم الملأ من قومه ولا يستعمل هذا اللفظ إلا فيمن يختص بالإنسان بقرابة قريبة كما قال عز اسمه (وَآلَ إِبْرَاهِيمَ وَآلَ عِمْرَانَ) أو بموالاة ومتابعة فى الرأى كما قال « أَدْخِلُوا آلَ فِرْعَوْنَ أَشَدَّ الْعَذَابِ » والسنون ، واحدها سنة : وهى بمعنى الحول ولكن أكثر ما تستعمل فى الحول الذى فيه الجدب كما هنا بدليل نقص الثمرات ، والمراد بالحسنة هنا :الخصب والرخاء ، وبالسيئة: ما يسوءهم من جدب وجائحة أو مصيبة فى الأبدان والأرزاق ، ويطيروا تشاءموا ، وسر إطلاق التطير على التشاؤم أن العرب كانت تتوقع الخير والشر مما تراه من حركة الطير فإذا طارت من جهة اليمين تيمنت بها ورجت الخير والبركة ، وإذا طارت من جهة الشمال تشاءمت وتوقعت

الشر ويسمى الطائر الأول السانح ، والثانى البارح ، وسموا الشؤم طيرا وطائرا والتشاؤم تطيرا ، الطوفان لغة : ما طاف بالشيء وغشيه، وغلب فى طوفان الماء سواء كان من السماء أو الأرض ، والقمل (بضم القاف وتشديد الميم المفتوحة) هو السوس الذى يخرج من الحنطة ، وقيل هو صغار الجراد ، وقال الراغب : هو صغار الذباب ، والدم : هو الرعاف ، وقيل هو دم كان يحدث فى مياه المصريين .

المعنى الجملى

بعد أن حكى الله وعد موسى لقومه بقوله . عسى ربكم أن يهلك عدوكم ـ ذكر هنا مبادئ الهلاك الموعود به بما أنزله على فرعون وقومه من المحق حالا بعد حال ، إلى أن حل بهم عذاب الاستئصال تنبيها للسامعين وزجرا لهم عن الكفر وتكذيب الرسل حذر أن ينزل بهم من الشر مثل ما نزل بهؤلاء .

الإيضاح

(ولقد أخذنا آل فرعون بالسنين ونقص من الثمرات لعلهم يذكرون) أى إنه تعالى أخذ آل فرعون بالجدب وضيق المعيشة لعلهم يتذكرون ضعفهم أمام قوة الله وعجز ملكهم العالى الجبار وعجز آلهتهم ، ليرجعوا عن ظلمهم لبنى إسرائل ويجيبوا دعوة موسى عليه السلام ، إذ قد دلت التجارب على أن الشدائد ترقق القلوب وتهذب الطباع وتوجه النفوس إلى مناجاة الرب سبحانه والعمل على مرضاته والتضرع له دون غيره من المعبودات متى اتخذوها وسائل إليه وشفعاء عنده .

فإن لم تُجْدِ المصايب فى تذكر المولى وبلغ الأمر بالناس أن يشركوا به حتى فى أوقات الشدائد فهم فى خسران مبين وضلال بعيد ، وكذلك كان دأب آل فرعون بعد أن أنذرهم موسى عليه السلام .

(فإذا جاءتهم الحسنة قالوا لنا هذه ، وإن تصبهم سيئة يطيروا بموسى ومن معه)

أى فإذا جاءهم خصب وثمار ومواش وسعة فى الرزق والعافية قالوا لنا هذه أى نحن المستحقون لها بما لنا من التفوق على الناس فبلادنا بلاد خصب ورخاء ، وقد غاب عنهم أن يعلموا أن هذا من الله فعليهم أن يشكروه عليه ويقوموا بحق النعمة فيه — وإن أصابهم قحط وجدب ومرض وبلاء تشاءموا بموسى ، وقالوا إنما أصابنا هذا الشر بشؤم موسى وقومه وغفلوا عن سيئات أنفسهم وظلمهم لقوم موسى توهما منهم أن ذلك حق من حقوقهم .

ومثل هذه المعاملة هى التى يجب أن يعامل بها الأجنبى فى الوطن والدين كما هى الحال الآن فى معاملة أهل المغرب للبلاد الشرقية المستعمرة لهم .

(ألا إنما طائرهم عند الله ولكن أكثرهم لايعلمون) أى إن كل ما يصيبهم من خير أو شر فهو بقضاء الله وتقديره وهو الذى وضع لنظام الكون سننا تكون فيه المسببات على وفق أسبابها ، وبمقتضى هذه السنن والأقدار ينزل عليهم البلاء ويكون امتحانا واختبارا لهم ليتوبوا ويرجعوا عن ظلمهم وبغيهم على بنى إسرائيل وعن طغيانهم وإسرافهم فى جميع أمورهم ، ولكن أكثرهم لايعلمون حكمة تصرف الخالق فى هذا الكون ولا أسباب الخير والشر ، ولا أن كل شىء فيه جاء بمشيئته وتدبيره .

وبعد أن ذكر أن هذه الحسنات والسيئات لم تردعهم عما هم فيه من الطغيان — ذكر أنه أصابهم بضروب أخرى من العذاب وهى فى أنفسها آيات بينات — وهم مع ذلك لم يرعووا عن كفرهم وعنادهم .

(وقالوا مهما تأتنا به من آية لتسحرنا بها فما نحن لك بمؤمنين) أى إنك إن جئتنا بكل نوع من أنواع الآيات التى تستدل بها على أنك محق فى دعوتك لأجل أن تسحرنا بها وتصرفنا بها بدقة ولطف عما نحن فيه من ديننا ومن تسخيرنا لقومك فى خدمتنا ، فما نحن بمصدقين لك ولا بمتبعين رسالتك .

(فأرسلنا عليهم الطوفان والجراد والقمل والضفادع والدم آيات مفصلات فاستكبروا وكانوا قوما مجرمين) أى فأرسلنا عليهم عقوبة على جرائمهم تلك المصايب والنكبات ، وهى آيات بينات على صدق رسالة موسى إذ قد توعدهم بوقوع كل واحدة منها على وجه التفصيل لتكون دلالتها على صدقه واضحة لا تحتمل تأويلا بأنها وقعت لأسباب لا ارتباط لها برسالته ، فاستكبروا عن الإيمان بها لرسوخهم فى الإجرام والإصرار على الذنوب وإن كانوا يعتقدون صدق دعوته وصحة رسالته .

وقد عدد سبحانه هنا من الآيات خمسا وفى سورة الإسراء تسعا وهى :

(١) الطوفان فقد نزلت عليهم أمطار أغرقت أرضهم وأتلفت زرعهم وثمارهم وجاء وصفها فى التوراة ، ففى الفصل التاسع فى سفر الخروج (ثم قال الرب لموسى : بكّر فى الغداة وقف بين يدى فرعون وقل له : كذا قال الرب إله العبرانيين أطلق شعبي ليعبدونى فإنى فى هذه المرة منزل جميع ضرباتى على قلبك وعلى عبيدك وشعبك لكى تعلم أنه ليس مثلى فى جميع الأرض وأنا الآن أمد يدى وأضربك أنت وشعبك بالوباء فتضمحل من الأرض ، غير أنى لهذا أبقيك لكى أريك قوتى ولكى يخبر باسمى فى جميع الأرض ، وأنت لم تزل مقاوما لشعبي ، هاأنا ممطر فى مثل هذا الوقت من غد بَرَدا عظيما جدا لم يكن مثله فى مصر منذ يوم أسست إلى الآن .

ثم ذكر فيها وقوع البَرَد مع نزول نار من السماء ، ووصف عظمته وشموله لجميع بلاد مصر وأن فرعون طلب موسى وهارون واعترف لهما بخطئه وطلب منهما أن يشفعا إلى الرب ليكف هذه النكبة عن مصر ووعدهما بإطلاق بنى إسرائيل وجاء فى ختام هذا الفصل .

فخرج موسى من المدينة من لدن فرعون وبسط يديه إلى الرب فكفت الرعود ولم يعد المطر يهطل على الأرض .

(٢) الجراد وقد ذكر فى التوراة بعد الطوفان فقد جاء فيها (إن فرعون قسا قلبه فلم يطلق بنى اسرائيل فأخبر الرب موسى فأمره بأن ينذره بإرسال الجراد عليهم

فيأكل ما سلم من النبات والشجر ويملأ بيوته وبيوت عبيده وسائر بيوت المصريين ففعل - فرضى فرعون أن يذهب الرجال من بنى إسرائيل ليعبدوا ربهم دون النساء والأولاد والمواشى ، فرد موسى عصاه بأمر الرب على أرض مصر فأرسل الرب ريحا شرقية ساقت الجراد على أرض مصر فغطى جميع وجه الأرض حتى أظلمت الأرض وأكل عشبها وجميع ما تركه البرد من ثمر الشجر حتى لم يبق شئ من الخضرة فى الشجر ولا فى عشب الصحراء فى جميع أرض مصر ، وجاء فيها : إن فرعون استدعى موسى وهارون واعترف لهما بخطئه وطلب منهما الصفح والشفاعة إلى الرب إلههما أن يرفع عنه هـــذه التهلكة ففعلا فأرسل الله ريحا غربية فحملت الجراد كله فألقته فى بحر القُلْزُم .

(٣) القمل : وهو صغار الذباب - وقد جاء فى التوراة - إن البعوض والذباب كان من الضربات العشر التى ضرب الرب بها فرعون وقومه ليرسلوا بنى إسرائيل مع موسى ، ففى الفصل الثامن من سفر الخروج : إن موسى أنذر فرعون أن الذباب سيدخل بيوته وبيوت عبيـده وسائر قومه فيفسدها ولا يدخل بيوت بنى إسرائيل المقيمين فى أرض جاسان وأن ذلك وقع وفسدت الأرض من تأثير الذباب .

(٤) الضفادع : وفى سفر الخروج - وقال الرب لموسى : ادخل على فرعون وقل له كذا قال الرب - أطلق شعبى ليعبدونى وإن أبيت أن تطلقهم فهأنذا ضارب جميع تخومك بالضفادع فيفيض النهر ضفادع فتصعد وتنتشر فى بيتك وفى مخدع فراشك وعلى سريرك وفى بيوت عبيدك وشعبك وفى تنانيرك ومعاجنك الخ .

وكذلك كان - وفيها - إن فرعون طلب من موسى أن يشفع له عند ربه برفع الضفادع فأجابه إلى ذلك قال : ففعل الرب كما قال موسى وماتت الضفادع من البيوت والأقبية والحقول فجمعوها أكواما وأنتنت الأرض منها .

(٥) الدم : فقد كانت مياه المصريين تتحول إلى دم وقد جاء فى الفصل السابع من سفر الخروج : « إن الرب أمر موسى أن ينذر فرعون ذلك ففعل ، ثم قال الرب

لموسى قل لهرون : خذ عصاك ومدّ يدك على مياه المصريين وأنهارهم وخُلُجهم ومنافعهم وسائر مجامع مياههم فتصير دما ، ويكون دم فى جميع أرض مصر وفى الخشب وفى الحجارة » وفيها أن موسى وهارون فعلا ذلك وأن سمك النهر مات وأنتن النهر فلم يستطيع المصريون أن يشربوا منه .

هذه هى الآيات الخمس التى أيد الله بها رسوله موسى عليه السلام وليس فيها ماينفى مافى التوراة ولا مايؤيدها ، وعلينا أن نقف عندما أثبته القرآن فقط دون زيادة عليه.

وَلَمَّا وَقَعَ عَلَيْهِمُ الرِّجْزُ قَالُوا يَا مُوسَى ادْعُ لَنَا رَبَّكَ بِمَا عَهِدَ عِنْدَكَ لَئِنْ كَشَفْتَ عَنَّا الرِّجْزَ لَنُؤْمِنَنَّ لَكَ وَلَنُرْسِلَنَّ مَعَكَ بَنِي إِسْرَائِيلَ (١٣٤) فَلَمَّا كَشَفْنَا عَنْهُمُ الرِّجْزَ إِلَى أَجَلٍ هُمْ بَالِغُوهُ إِذَا هُمْ يَنْكُثُونَ (١٣٥) فَانْتَقَمْنَا مِنْهُمْ فَأَغْرَقْنَاهُمْ فِي الْيَمِّ بِأَنَّهُمْ كَذَّبُوا بِآيَاتِنَا وَكَانُوا عَنْهَا غَافِلِينَ (١٣٦) .

شرح المفردات

الرجز : العذاب الذى يضطرب له الناس فى شئونهم ومعايشهم ، وذلك شامل لكل نقمة وجائحة أنزلها الله على قوم فرعون كالخمس التى ذكرت قبل ، والعهد : النبوة والرسالة ، والنكث لغة: نقض ماغزل أو ما فتل من الحبال ثم استعمل فى الحنث فى العهود والمواثيق ، واليمّ : البحر فى اللغة المصرية الموافقة للغة العربية فى كثير من مفرداتها مما يدل على أن أصل الأمتين واحد .

المعنى الجملى

بعد أن ذكر سبحانه الآيات الخمس التى سبق ذكرها ، بيّن هنا ما كان من أثرها فى نفوس المصريين جميعا وطلبهم من موسى أن يرفع الله عنهم العذاب ، فإذا هو فعل

آمنوا به ثم تبين نكثهم وخلفهم للوعد كل مرة حدث فيها الطلب حتى حل بهم عذاب الاستئصال بالغرق فى البحر .

الإيضاح

(ولما وقع عليهم الرجز قالوا يا موسى ادع لنا ربك بما عهد عندك لئن كشفت عنا الرجز لنؤمنن لك ولنرسلن معك بنى إسرائيل) أى ولما وقع ذلك العذاب الذى ذكره فى الآية السالفة اضطربوا وفزعوا أشد الفزع وقالوا حين نزول كل نوع بهم : يا موسى ادع لنا ربك وتوسل إليه بعهده عندك ورسالته لك أن يكشف عنا هذا الرجز، ونحن نقسم لك لئن كشفته عنا لنؤمنن لك ولنرسلن معك بنى إسرائيل ، وفى التوراة : إن فرعون كان يقول لموسى حين نزول كل آية منها : ادع لنا ربك واشفع لنا عنده أن يرفع عنا هذه ، ويعده بأن يرسل معه بنى إسرائيل ليعبدوا ربهم ويذبحوا له ثم ينكث .

(فلما كشفنا عنهم الرجز إلى أجل هم بالغوه إذاهم ينكثون) أى فلما كشفنا عنهم العذاب مرة بعد أخرى إلى أجل هم بالغوه ومنتهون إليه وهو الغرق الذى هلكوا فيه - إذاهم ينكثون عهدهم ويحنثون فى قسمهم فى كل مرة .

والخلاصة — إنه كشف العذاب عنهم إلى حين من الزمان هم واصلون إليه ولابد ، فمعذبون فيه أو مهلكون وهو وقت الغرق كما روى عن ابن عباس رضى الله عنهما .

(فانتقمنا منهم فأغرقناهم فى اليمّ بأنهم كذبوا بآياتنا وكانوا عنها غافلين) أى فانتقمنا منهم عند بلوغ الأجل المضروب لهم بأن أغرقناهم فى البحر ، وذلك بسبب تكذيبهم بالآيات وعدم تفكرهم فيها حتى صاروا كالغافلين عنها .

والخلاصة — إنهم كانوا يظهرون الإيمان عند كل آية من آيات العذاب ثم يكذبون حتى إذا انقضى الأجل المضروب لهم انتقمنا منهم بسبب أنهم كذبوا بها

كلها وكانوا غافلين عما يعقبها من العذاب فى الدنيا والآخرة إذ كانت فى نظر الكثير منهم من قبيل السحر والصناعة ، ومن ثم كانوا يكابرون أنفسهم فى كل آية منها ويحاولون أن يأتى سحرتهم وعلماؤهم بمثلها .

ومنهم من اهتدى إلى الحق وظهر له صدقه فآمن به جهرة ككبار السحرة ، ومنهم من كتم إيمانه كالذى عارض فرعون وملأه بالحجة والبرهان فى قتل موسى كما جاء فى سورة غافر ، ومنهم من جحد بها كبرا وعلوا فى الأرض كفرعون وأكابر وزرائه ورؤسائه .

وَأَوْرَثْنَا الْقَوْمَ الَّذِينَ كَانُوا يُسْتَضْعَفُونَ مَشَارِقَ الْأَرْضِ وَمَغَارِبَهَا الَّتِي بَارَكْنَا فِيهَا، وَتَمَّتْ كَلِمَةُ رَبِّكَ الْحُسْنَى عَلَى بَنِي إِسْرَائِيلَ بِمَا صَبَرُوا وَدَمَّرْنَا مَا كَانَ يَصْنَعُ فِرْعَوْنُ وَقَوْمُهُ وَمَا كَانُوا يَعْرِشُونَ (١٣٧)

شرح المفردات

مشارق الأرض ومغاربها : يراد بها جميع نواحيها والمراد بها أرض الشام ، وتمام الشيء : وصوله إلى آخر حده ، وكلمة الله : هى وعده لبنى إسرائيل بإهلاك عدوهم واستخلافهم فى الأرض : « عَسَى رَبُّكُمْ أَنْ يُهْلِكَ عَدُوَّكُمْ وَيَسْتَخْلِفَكُمْ فِي الْأَرْضِ » والتدمير: إدخال الهلاك على السالم والخراب على العامر، والعرش: رفع المبانى والسقائف للنبات والشجر المتسلق كعرائش العنب : ومنه عرش الملك .

المعنى الجملى

بعد أن بين سبحانه ما حل بالمصريين من الغرق عقوبة لهم على تكذيبهم بموسى بعد وجود الآية تلو الآية الدالة على صدقه ـ ذكر هنا ما فعله ببنى إسرائيل

من الخيرات إذ أصبحوا أعزة بعد أن كانوا أذلة وملكوا الأرض المقدسة التى بارك الله فيها ، وهى بلاد الشام .

الإيضاح

(وأورثنا القوم الذين كانوا يستضعفون مشارق الأرض ومغاربها التى باركنا فيها) أى وأورثنا القوم الذين كانوا يستضعفون فى مصر بقتل الأبناء واستحياء النساء وأخذ الجزية واستعمالهم فى الأعمال الشاقة الأرض التى باركنا فيها بالخصب والخير الكثير، مشارقها من حدود الشام ، ومغاربها من حدود مصر تحقيقا لما وعدنا به : « وَنُرِيدُ أَنْ نَمُنَّ عَلَى الَّذِينَ اسْتُضْعِفُوا فِي الْأَرْضِ وَنَجْعَلَهُمْ أَئِمَّةً وَنَجْعَلَهُمُ الْوَارِثِينَ . وَنُمَكِّنَ لَهُمْ فِي الْأَرْضِ وَنُرِيَ فِرْعَوْنَ وَهَامَانَ وَجُنُودَهُمَا مِنْهُمْ مَا كَانُوا يَحْذَرُونَ » .

وعن كعب الأحبار أنه قال : إن الله بارك فى الشام من الفرات إلى العريش ، ويؤيد ذلك قوله فى إبراهيم عليه السلام : « وَنَجَّيْنَاهُ وَلُوطاً إِلَى الْأَرْضِ الَّتِي بَارَكْنَا فِيهَا لِلْعَالَمِينَ » وقوله : « وَلِسُلَيْمَانَ الرِّيحَ عَاصِفَةً تَجْرِي بِأَمْرِهِ إِلَى الْأَرْضِ الَّتِي بَارَكْنَا فِيهَا ».

(وتمت كلمة ربك الحسنى على بنى إسرائيل بما صبروا) أى ونفذت كلمة الله ومضت على بنى إسرائيل تامة كاملة بسبب صبرهم على الشدائد التى كابدوها من فرعون وقومه ، وقد كان وعد الله تعالى إياهم بما وعد مقرونا بأمرهم بالصبر والاستقامة كما أمرهم نبيهم عليه السلام مبلغا عن ربه : « وَقَالَ مُوسَى لِقَوْمِهِ اسْتَعِينُوا بِاللَّهِ وَاصْبِرُوا » ومن قابل البلاء بالجزع وكله الله إليه ، ومن قابله بالصبر ضمن الله له الفرج وقد تم وعد الله تعالى لهم بذلك ثم سلبهم تلك الأرض بظلمهم لأنفسهم وللناس ولم يكن من مقتضى الوعد أن يعودوا إليها مرة أخرى .

(ودمرنا ما كان يصنع فرعون وقومه وما كانوا يعرشون) أى وخرّبنا ما كان يصنع فرعون وقومه من المبانى والقصور التى كانوا يبنونها للمصريين والمكايد السحرية والصناعية التى كان يصنعها السحرة لإبطال آياته والتشكيك فيها كما قال تعالى : « إِنَّمَا صَنَعُوا كَيْدُ سَاحِرٍ » وما كانوا يعرشون من الجنات والبساتين ، وأسباب هذا التدمير لتلك المصانع والعروش أمور :

(١) الآيات التى أيد الله تعالى بها موسى من الطوفان والجراد وغيرها ، وسمتها التوراة : الضربات العشر .

(٢) إنجاء بنى إسرائيل وحرمان فرعون وقومه من استعبادهم فى أعمالهم .

(٣) هلاك من غرق من قوم فرعون وحرمان البلاد وسائر الأمة من ثمرات أعمالهم فى العمران، وقد أنذرهم موسى عاقبة ذلك فكذبوا بالآيات وأصروا على الجحود والعناد فظلموا أنفسهم وما ظلمهم الله .

ووجه العبرة فى هذه الآيات ما كان للايمان فى قلب موسى وهارون من التأثير إذ تصديا لأكبر ملك فى أكبر دولة فى الأرض استعبدت قومه فى خدمتها عدة قرون ، وما زالا يكافحانه بالحجج والآيات حتى أظفرهما الله تعالى به وأنقذا قومهما من ظلمه ، ولهذا يجدر ألا تستعظم قوة الدول الظالمة أمام قوة الحق كما قال : « إِنْ تَنْصُرُوا اللهَ يَنْصُرْكُمْ » وقال : « وَكَانَ حَقًّا عَلَيْنَا نَصْرُ الْمُؤْمِنِينَ » .

وَجَاوَزْنَا بِبَنِي إِسْرَائِيلَ الْبَحْرَ فَأَتَوْا عَلَى قَوْمٍ يَعْكُفُونَ عَلَى أَصْنَامٍ لَهُمْ قَالُوا يَا مُوسَى اجْعَلْ لَنَا إِلَهًا كَمَا لَهُمْ آلِهَةٌ قَالَ إِنَّكُمْ قَوْمٌ تَجْهَلُونَ (١٣٨) إِنَّ هَؤُلَاءِ مُتَبَّرٌ مَا هُمْ فِيهِ وَبَاطِلٌ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ (١٣٩) قَالَ أَغَيْرَ اللهِ أَبْغِيكُمْ إِلَهًا وَهُوَ فَضَّلَكُمْ عَلَى الْعَالَمِينَ (١٤٠) وَإِذْ

أَنْجَيْنَاكُمْ مِنْ آلِ فِرْعَوْنَ يَسُومُونَكُمْ سُوءَ الْعَذَابِ يُقَتِّلُونَ أَبْنَاءَكُمْ وَيَسْتَحْيُونَ نِسَاءَكُمْ وَفِي ذَٰلِكُمْ بَلَاءٌ مِنْ رَبِّكُمْ عَظِيمٌ (١٤١)

شرح المفردات

جاز الشيء وجاوزه وتجاوزه : عدّاه وانتقل عنه ، والعكوف على الشيء : الإقبال عليه وملازمته تعظيما له ، والأصنام واحدها صنم : وهو ما يصنع من الخشب والحجر أو المعدن مثالاً لشيء حقيقى أو خيالى ليعظم تعظيم العبادة ؛ وقد اتخذ بعض العرب فى الجاهلية أصناما من عجوة التمر فعبدوها ثم جاعوا فأكلوها ، والتمثال لابد أن يكون مثالا لشيء حقيقى ، وقد يكون للعبادة فيسمى صنما ، وقد يكون للزينة كالذى يكون على جدران بعض القصور أو أبوابها أو فى حدائقها ، وقد يكون للتعظيم غير الدينى كالتماثيل التى تنصب لبعض الملوك وكبار العلماء والقواد للتذكير بتاريخهم وأعمالهم للاقتداء بهم .

والتعظيم الدينى يكون الغرض منه التقرب من المعبود وطلب ثوابه بدفع ضرر أو جلب منفعة من طريق الغيب باعتقاد أن له سلطة غيبية أو تعظيم ما يذكر به من صورة أو تمثال أو قبر أو غير ذلك من آثاره لأجل التقرب إليه وقصد الانتفاع به فى الأمور التى لاتنال بالأسباب العامة ، وكل ذلك عبادة ظاهرة فإن قصد التقرب به إلى الله ليحمله بجاهه على إعطائه ما يريد كانت العبادة له ولله بالاشتراك ، وهذا مظهر من مظاهر الشرك الجلى التى تعتبر كفرا مهما اختلفت تسميتها، والتبار والتبر: الهلاك، والتتبير : الإهلاك والتدمير، فيقال تبّره : أهلكه ودمره ، وباطل: أى هالك وزائل لابقاء له ، وبغى الشي وابتغاه : طلبه .

المعنى الجملى

بعد أن بين سبحانه أنواع نعمه على بنى إسرائيل بأن أهلك عدوهم وأورثهم أرضهم وديارهم أتبع ذلك بالنعمة الكبرى عليهم وهى أنه جاوز بهم البحر آمنين ،

ثم ارتدوا وطلبوا من موسى أن يعمل لهم آلهة وأصناما ، وفى هذا تسلية لرسول الله صلى الله عليه وسلم عما رآه من اليهود بالمدينة ؛ فإنهم جروا معه على دأب أسلافهم مع أخيه موسى صلوات الله عليه ، وإيقاظ المؤمنين ألا يغفلوا عن محاسبة أنفسهم ومراقبة نعم الله تعالى عليهم فإن بنى إسرائيل وقعوا فيما وقعوا فيه من جراء غفلتهم عما منّ الله تعالى به عليهم من النعم .

الإيضاح

(وجاوزنا ببنى إسرائيل البحر فأتوا على قوم يعكفون على أصنام لهم قالوا ياموسى اجعل لنا إلها كما لهم آلهة) أى إنهم تجاوزوه بعناية الله وتأييده فكأنه معهم بذاته فجاوزه مصاحبا لهم فأتوا عقب تجاوزهم إياه ودخولهم فى بلاد العرب من البحر الأسيوى على قوم يعبدون أصناما لهم : فقالوا يا موسى اجعل لنا إلها كما لهم آلهة حنينا منهم إلى ما ألفوا فى مصر من عبادة المصريين وتماثيلها وأنصابها وقبورها .

وسر هذا الطلب أنهم لم يكونوا قد فهموا التوحيد الذى جاء به موسى كما فهمه من آمن من سحرة المصريين، إذ أن السحرة كانوا من العلماء فأمكنهم التمييز بين آيات الله التى لا يقدر عليها غيره والسحر الذى هو من صناعات البشر وعلومهم .

ولم يذكر القرآن شيئا يعين شأن هؤلاء القوم الذين أتى عليهم بنو إسرائيل ، والراجح أنهم من العرب الذين كانوا يقيمون بقرب حدود مصر ، روى عن قتادة أنهم من عرب لخم ، وعن ابن جُرَيج أن أصنامهم كانت تماثيل بقر من نحاس .

وقد جاء آخر الفصل الثالث عشر من سفر الخروج (وكان الرب يسير أمامهم نهارا فى عمود من غمام ليهديهم الطريق ، وليلا فى عمود من نار ليضىء لهم ليسيروا نهارا وليلا ، لم يبرح عمود الغمام نهارا وعمود النار ليلا من أمام الشعب) .

ثم جاء فى الفصل الرابع عشر منه بعد ذكر أتباع فرعون ومن معه من بنى إسرائيل (فانتقل ملاك الله السائر أمام عسكر بنى إسرائيل فصار وراءهم وانتقل عمود الغمام من

أمامهم فوقف وراءهم ، ودخل بين عسكر المصريين ، وعسكر بنى إسرائيل ، فكان من هنا غماما مظلما ، وكان من هناك ينير الليل ، فلم يقترب أحد الفريقين من الآخر طول الليل .

ولاشك أن هذا الطلب دليل على الضعف البشرى فى كل زمان ومكان ، فلا عجب أن روى عن بعض حديثى العهد من الصحابة بالإسلام مثل ما طلب بنو إسرائيل من موسى عليه السلام لما كان للوثنية فى قلوبهم من التأثير — روى أحمد والنسائى عن أبى واقد الليثى قال «خرجنا مع رسول الله صلى الله عليه وسلم قِبَلَ حُنين فمررنا بِسِدْرَة فقلت يارسول الله اجعل لنا هذه ذات أنواط كما للكفار ذات أنواط فقال (الله أكبر) هذا كما قالت بنو إسرائيل لموسى (اجعل لنا إلها كما لهم آلهة) إنكم تركبون سنن مَن قبلكم » .

وللمسلمين عبرة فى هذا فإن لهم الآن ذوات أنواط فى بلاد كثيرة كشجرة الحنفى بمصر ، وقد اجتثت أخيرا وشجرة (ست المنضورة) ونحو ذلك مما اتخذوه من القبور والأشجار والأحجار التى يعكفون عليها و يطوفون حولها و يقبلونها و يتمرغون بأعتابها و يتمسحون بها خاشعين ضارعين راجين شفاء الأدواء والانتقام من الأعداء وحبل العقيم ورد الضالة وغير ذلك من النفع ، وكشف الضر ، وهذا مخالف لنصوص كتاب الله وسنة رسوله ، إذ هذا عبادة و إن كانوا لا يسمونها بذلك ، فلا فرق بينه و بين شرك الجاهلية (إلا بالتسمية) إذ حقيقة العبادة كل قول أو عمل يوجه إلى معظم يرجى نفعه أو يخشى ضره وحده ، وقد أجابهم موسى عن طلبهم بقوله :

(إنكم قوم تجهلون) أى إنكم تجهلون مقام التوحيد ، وما يجب من تخصيص الله بالعبادة بلا واسطة ولا مظهر من المظاهر كالأصنام والتماثيل والعجل أبيس والثعابين — فالله قد كرم البشر وجعلهم أهلا لمعرفته ودعائه ومناجاته بلا واسطة تقربه إليهم فإنه أقرب إليهم من حبل الوريد .

وبعد أن بيّن لهم جهلهم وسفههم بين لهم فساد ماطلبوه عسى أن تستعد عقولهم لفهمه واستبانة قبحه فقال :

(إن هؤلاء متبر ما هم فيه و باطل ما كانوا يعملون) أى إن هؤلاء القوم الذين يعكفون على هذه الأصنام مقضىّ على ما هم فيه بالتبار بما سيظهر من التوحيد الحق فى هذه الديار ، وزائل ما كانوا يعملون من عبادة غير الله ذى الجلال ، فإنما بقاء الباطل فى ترك الحق له و بُعده عنه .

وفى هذا بشارة منه عليه السلام بزوال الوثنية من تلك الأرض ، وقد حقق الله ما قال :

(قال أغير الله أبغيكم إلها وهو فضلكم على العالمين) أى قال لهم موسى : أأطلب لكم معبودا غير الله رب العالمين وخالق السموات والأرض ، وقد فضلكم على العالمين بما جدد فيكم من التوحيد وهداية الدين ، فماذا تبغون من عبادة غيره معه أو من دونه ؟ .

والخلاصة : إن موسى بدأ جوابه لقومه بإثبات جهلهم بربهم و بأنفسهم ، وثنى ببيان فساد ما طلبوه وكونه عرضة للتبار والزوال لأنه باطل فى نفسه ، ثم انتقل إلى بيان أن العبادة لغير الله لاتصح البتة سواء أكان المعبود أفضل المخلوقات كالملائكة والنبيين أو أخسها كالأصنام ؛ ثم أنكر عليهم أن يكون هو الواسطة فى هذا الجعل الذى دعا إليه الجهل ، ليعلمهم أن طلب هذا الأمر المنكر منه عليه السلام جهل بمعنى رسالته ، وأيد إنكاره لكلا الأمرين بما يعرفون من فضل الله عليهم بتفضيلهم على أهل زمانهم ممن كانوا أرقى منهم مدنية وحضارة وسعة ملك وسيادة على بعض الشعوب ، وهم فرعون وقومه ــ برسالة موسى وهرون منهم وتجديد ملة إبراهيم فيهم و إيتائهما من الآيات ما تقدم ذكره .

(وإذ أنجيناكم من آل فرعون يسومونكم سوء العذاب يقتلون أبناءكم ويستحيون نساءكم وفى ذلكم بلاء من ربكم عظيم) أى واذكروا إذ أنجيناكم

بإرسال موسى وبما أيدناه به من الآيات ـ من آل فرعون الذين كانوا يسومونكم سوء العذاب بجعلكم عبيدا مسخرين لخدمتهم ، ويقتلون ما يولد لكم من الذكور ويستبقون نساءكم لتزدادوا ضعفا بكثرتهن ، وفى ذلكم العذاب والإنجاء منه بفضل الله عليكم وتفضيله إياكم على غيركم من سكان مصر ، وسكان الأرض المقدسة التى سترثونها ـ بلاء عظيم أى اختبار لكم من ربكم المدبر لأموركم ليس هناك اختبار أعظم منه ، فلا أجدر بالاعتبار والاستفادة من أحداث الزمان ممن يعطى النعمة بعد النقمة ، وأحق الناس بمعرفة الله وإخلاص العبادة له من يرى فى نفسه وفى الآفاق ما يوقن به أنه لا يمكن أن يكون فيه شركة لغير الله ، وإن أعجب العجب أن تطلبوا بعد هذا كله ممن رأيتم على يديه هذه الآيات أن يجعل لكم آلهة من أخس المخلوقات ـ تجعلونها واسطة بينكم وبين الله ، وهو قد فضلكم عليها وعلى من يعبدونها ومن هم أرقى منهم .

وَوَاعَدْنَا مُوسَى ثَلَاثِينَ لَيْلَةً وَأَتْمَمْنَاهَا بِعَشْرٍ فَتَمَّ مِيقَاتُ رَبِّهِ أَرْبَعِينَ لَيْلَةً ، وَقَالَ مُوسَى لِأَخِيهِ هَارُونَ اخْلُفْنِي فِي قَوْمِي وَأَصْلِحْ وَلَا تَتَّبِعْ سَبِيلَ الْمُفْسِدِينَ (١٤٢) وَلَمَّا جَاءَ مُوسَى لِمِيقَاتِنَا وَكَلَّمَهُ رَبُّهُ قَالَ رَبِّ أَرِنِي أَنْظُرْ إِلَيْكَ قَالَ لَنْ تَرَانِي وَلَكِنِ انْظُرْ إِلَى الْجَبَلِ فَإِنِ اسْتَقَرَّ مَكَانَهُ فَسَوْفَ تَرَانِي فَلَمَّا تَجَلَّى رَبُّهُ لِلْجَبَلِ جَعَلَهُ دَكًّا وَخَرَّ مُوسَى صَعِقًا فَلَمَّا أَفَاقَ قَالَ سُبْحَانَكَ تُبْتُ إِلَيْكَ وَأَنَا أَوَّلُ الْمُؤْمِنِينَ (١٤٣) قَالَ يَا مُوسَى إِنِّي اصْطَفَيْتُكَ عَلَى النَّاسِ بِرِسَالَاتِي وَبِكَلَامِي فَخُذْ مَا آتَيْتُكَ وَكُنْ مِنَ الشَّاكِرِينَ (١٤٤) وَكَتَبْنَا لَهُ فِي الْأَلْوَاحِ مِنْ كُلِّ

شَيْءٍ مَوْعِظَةً وَتَفْصِيلاً لِكُلِّ شَيْءٍ، فَخُذْهَا بِقُوَّةٍ وَأْمُرْ قَوْمَكَ يَأْخُذُوا بِأَحْسَنِهَا سَأُرِيكُمْ دَارَ الْفَاسِقِينَ (١٤٥)

شرح المفردات

الميقات : الوقت الذى يقرر فيه عمل من الأعمال كمواقيت الحج ، اخلفنى أى كن خليفتى ، وجلا الشيء والأمر وانجلى وتجلى وجلاه فتجلى: إذا انكشف ووضح بعد خفاء فى نفسه أو على مجتليه وطالبه ، والدك: الدق ، والخر والخرور: السقوط من علو ، والانكباب على الأرض كما قال «يَخِرُّونَ لِلأَذْقَانِ سُجَّدًا » وصعقا أى صاعقا صائحا مغشيا عليه ، وأفاق أى رجع إليه عقله وفهمه بعد ذهابهما بالغشيان: والاصطفاء اختيار صفوة الشيء أى خالصه الذى لا شائبة فيه ، بقوة أى بجد وعزيمة وحزم .

المعنى الجملى

بعد أن ذكر عز اسمه ما أنعم به على بنى إسرائيل من النجاة من العبودية ومن جعلهم أمة حرة مستقلة قادرة على القيام بما يشرعه الله لها من العبادات والأحكام ـ ذكر هنا بدء وحى الشريعة لموسى عليه السلام ممتنا عليهم بما حصل لهم من الهداية بتكليم موسى وإعطائه التوراة ، وفيها تفاصيل شرعهم وبيان ما يقربهم من ربهم من الأحكام ، وقد روى أن موسى عليه السلام وعد بنى إسرائيل وهو بمصر ، إن أهلك الله عدوهم أتاهم بكتاب من عند الله فيه بيان ما يأتون وما يذرون ، فلما هلك فرعون سأل موسى ربه الكتاب ، فبينت هذه الآيات كيفية نزول هذا الكتاب وهو التوراة .

الإيضاح

(وواعدنا موسى ثلاثين ليلة وأتممناها بعشر فتم ميقات ربه أربعين ليلة) أى ضرب الله تعالى موعدا لموسى لمكالمته وإعطائه الألواح المشتملة على أصول الشريعة

ثلاثين ليلة ، قيل هى شهر ذى القعدة وأتم الثلاثين ليلة بعشر ليال فتم الموعد بذلك أربعين ليلة ، صعد جبل سيناء فى أوله وهبط فى آخره ، وروى عن أبى العالية أنه قال فى بيان زمان الموعد : يعنى ذا القعدة وعشرا من ذى الحجة فمكث على الطور أربعين ليلة وأنزل عليه التوراة فى الألواح فقربه الرب نجيا ، وكلمه وسمع صريف القلم.

وجاء فى التوراة من سفر الخروج (وقال الرب لموسى : اصعد إلىّ إلى الجبل وكن هناك فأعطيك لوحى الحجارة والشريعة والوصية التى كتبتها لتعليمهم ، فقام موسى ويشوع خادمه ، وصعد موسى إلى جبل الله تعالى . وأما الشيوخ فقال لهم اجلسوا هاهنا ، وهو ذا هارون وحُورٌ معكم ، فمن كان صاحب دعوى فليتقدم إليهما، فصعد موسى إلى الجبل فغطى السحاب الجبل ، وحل مجد الرب على جبل سيناء وغطاه السحاب ستة أيام وفى اليوم السابع دعى موسى من وسط السحاب وكان ينظر مجد الرب كنار آكلة على رأس الجبل أمام عيون بنى إسرائيل ، ودخل موسى فى وسط السحاب وصعد إلى الجبل ، وكان موسى فى الجبل أربعين نهارا وأربعين ليلة) .

وفى الفصل الرابع والثلاثين ما نصه (وقال الرب لموسى : اكتب لنفسك هذه الكلمات ، قطعت عهدا معك ومع بنى إسرائيل وكان هناك عند الرب أربعين نهارا وأربعين ليلة لم يأكل خبزا ولم يشرب ماء فكتب على اللوحين كلمات العهد الكلمات العشر) .

(وقال موسى لأخيه هرون اخلفنى فى قومى وأصلح ولا تتبع سبيل المفسدين) أى وقال موسى حين أراد الذهاب لميقات ربه لأخيه هرون وكان أكبر منه سنا ، كن خليفتى فى قومى وراقبهم فيما يأتون وما يذرون ، وكانت الرياسة فيهم لموسى وكان هرون وزيره ونصيره بسؤاله لربه « وَاجْعَلْ لِي وَزِيراً مِنْ أَهْلِي . هٰرُونَ أَخِي اشْدُدْ بِهِ أَزْرِي. وَأَشْرِكْهُ فِي أَمْرِي» وأصلح ما يحتاج إلى الإصلاح من أمور دينهم ، ولا تتبع سبيل من سلك الإفساد فى الأرض ، واتباع سبيل المفسدين يشمل مشاركتهم فى أعمالهم ومساعدتهم عليها ومعاشرتهم والإقامة معهم حال اقتراف الإفساد .

(ولما جاء موسى لميقاتنا وكلمه ربه قال رب أرنى أنظر إليك) أى لما جاء موسى للميقات الذى وقت له للكلام وإعطاء الشريعة وكلمه ربه من وراء حجاب بغير واسطة ملك استشرفت نفسه للجمع بين فضيلتى الكلام والرؤية فقال : رب أرنى ذاتك المقدسة واجعل لى من القوة على حمل تجليك ما أقدر به على النظر إليك وكمال المعرفة بك .

(قال لن ترانى) أى إنك لا ترانى الآن ولا فيما يستقبل من الزمان إذ ليس لبشر أن يطيق النظر إلىّ فى الدنيا ثم أتى بما هو كالعلة لذلك (ليخفف عن موسى شدة وطأة الرد بإعلامه مالم يكن يعلم من سننه) وهو أن شيئا فى الكون لا يقوى على رؤيته كما جاء فى حديث أبى موسى الذى رواه مسلم وهو قوله صلى الله عليه وسلم « حجابه النور لو كشفه لأحرقت سُبُحات وجهه (أنواره) ما انتهى إليه بصره من خلقه » فقال :

(ولكن انظر إلى الجبل فإن استقر مكانه فسوف ترانى) أى فإن ثبت لدى التجلى وبقى مستقرا فى مكانه فسوف ترانى إذ هو مشارك لك فى مادة هذا العالم الفانى ، وإذا كان الجبل فى قوته وثباته لا يستطيع أن يثبت ويستقر لأن مادته غير مستعدة لقوة تجلى خالقه وخالق كل شىء - فاعلم أنك لن ترانى أيضا وأنت مشارك له فى كونك مخلوقا من هذه المادة وخاضعا للسنن الربانية فى ضعف استعدادها وقبولها للفناء .

وروى عن ابن عباس أنه قال : حين قال موسى لربه تبارك وتعالى : «أَرِنِى أَنْظُرْ إِلَيْكَ » قال له يا موسى إنك لن ترانى ، قال يقول : ليس ترانى ، لا يكون ذلك أبدا ، ياموسى إنه لن يرانى أحد فيحيا ، قال موسى رب أن أراك ثم أموت أحب إلى من ألا أراك ثم أحيا ، فقال الله ياموسى انظر إلى الجبل الطويل العظيم الشديد « فإن استقر مكانه » يقول فإن ثبت مكانه لم يتضعضع ولم ينهد لبعض ما يرى من عُظْمى : « فسوف ترانى » أنت لضعفك وذلتك ، وإن الجبل تضعضع وانهد بقوته وشدته وعظمته فأنت أضعف وأذل .

(فلما تجلى ربه للجبل جعله دكا وخر موسى صعقا) أى فلما تجلى ربه للجبل

أقل التجلى وأدناه انهد وهبط وصار كالأرض المدكوكة أو الناقة الدكاء ، وسقط موسى على وجهه مغشيا عليه كمن أخذته الصاعقة ، والتجلى إنما كان للجبل دونه فما بالك لو كان له .

روى أنه ساخ : أى غاص فى الأرض : أى أنه رج بالتجلى رجا ، بست به حجارته بسا ، وساخ فى الأرض كله أو بعضه فى أثناء ذلك حتى صار ربوة دكاء وكان كالرمل المتلبد .

(فلما أفاق قال سبحانك تبت إليك وأنا أول المؤمنين) أى فلما أفاق من غشيه قال سبحانك : أى تنزيها لك وتقديسا عما لاينبغى فى شأنك مما سألت .

وأكثر المفسرين يجعلون وجه التنزيه والتوبة أنه سأل الرؤية بغير إذن من الله تعالى فتاب ورجع عما طلب .

قال مجاهد : « تبت إليك » أن أسألك الرؤية : « وأنا أول المؤمنين » أى من بنى إسرائيل ، وفى رواية عن ابن عباس : وأنا أول المؤمنين أنه لايراك أحد .

والخلاصة — إن موسى لما نال فضيلة التكليم بلا واسطة فسمع من عالم الغيب مالم يسمع من قبل تاقت نفسه أن يمنحه الرب شرف رؤيته فطلب ذلك منه وهو يعلم أنه ليس كمثله شىء لا فى ذاته ولا فى صفاته التى منها كلامه ، ولكن الله تبارك وتعالى قال له : « لن ترانى » ولكى يخفف عليه ألم الرد أراه بعينه من تجليه للجبل مافهم منه أن المانع من جهته لامن جانب الفيض الإلهى ، حينئذ نزه الله وسبحه وتاب إليه من هذا الطلب ، فبشره بأنه اصطفاه على الناس برسالته وبكلامه وأمره أن يأخذ ما أعطاه ويكون من الشاكرين له كما قال :

(قال يا موسى إنى اصطفيتك على الناس برسالاتى وبكلامى) أى اصطفيتك بتكليمى لك بلا توسط ملك وإن كان من وراء حجاب ، وقد طلب موسى رفع هذا الحجاب لتحصل له الرؤية مع الكلام .

(فخذ ما آتيتك وكن من الشاكرين) أى فخذ ما أعطيتك من الشريعة وهى التوراة وكن من جماعة الشاكرين لنعمتى عليك وعلى قومك، بإقامتها بقوة وعزيمة والعمل بها، وأداء حقوق نعمى جميعها عليك تنل المزيد من فضلى: «لَئِنْ شَكَرْتُمْ لَأَزِيدَنَّكُمْ».

وقد تقدم أن قلنا إن الوحى إلى الرسل أنواع ثلاثة بينها الله بقوله: «وَمَا كَانَ لِبَشَرٍ أَنْ يُكَلِّمَهُ اللهُ إِلاَّ وَحْياً أَوْ مِنْ وَرَاءِ حِجَابٍ أَوْ يُرْسِلَ رَسُولاً فَيُوحِيَ بِإِذْنِهِ مَا يَشَاءُ إِنَّهُ عَلِيٌّ حَكِيمٌ».

والخلاصة — إن إثبات الكلام والتكليم لله تعالى صريح فى القرآن الكريم فى آيات عدة لاتعارض بينها، وأما الرؤية ففيها آيات متعارضة كقوله تعالى: «لاَ تُدْرِكُهُ الْأَبْصَارُ وَهُوَ يُدْرِكُ الْأَبْصَارَ» وقوله: «لَنْ تَرَانِي» وهما أصرح فى النفى من دلالة قوله تعالى: «وُجُوهٌ يَوْمَئِذٍ نَاضِرَةٌ. إِلَى رَبِّهَا نَاظِرَةٌ» على الإثبات فإن استعمال النظر بمعنى الانتظار كثير فى القرآن وكلام العرب كقوله: «هَلْ يَنْظُرُونَ إِلاَّ تَأْوِيلَهُ» وقوله: «مَا يَنْظُرُونَ إِلاَّ صَيْحَةً وَاحِدَةً» وفى الأحاديث الصحيحة تصريح بإثبات الرؤية بحيث لا تحتمل تأويلا، والمرفوع منها مروى عن أكثر من عشرين صحابيا، ولم يرد فى معارضتها شىء أصرح من حديث عائشة عن مسروق قال: قلت لعائشة رضى الله عنها يا أماه هل رأى محمد صلى الله عليه وسلم ربه ليلة المعراج؟ فقالت: لقد قفّ شعرى مما قلت، أىّ أنت من: «ثلاث من حدثكهن فقد كذب: من حدثك أن محمدا صلى الله عليه وسلم رأى ربه فقد كذب، وفى رواية فقد أعظم الفرية ثم قرأت: «لاَ تُدْرِكُهُ الْأَبْصَارُ وَهُوَ يُدْرِكُ الْأَبْصَارَ وَهُوَ اللَّطِيفُ الْخَبِيرُ — وَمَا كَانَ لِبَشَرٍ أَنْ يُكَلِّمَهُ اللهُ إِلاَّ وَحْياً أَوْ مِنْ وَرَاءِ حِجَابٍ» ومن حدثك أنه يعلم ما فى غد فقد كذب، ثم قرأت «وَمَا تَدْرِي نَفْسٌ مَاذَا تَكْسِبُ غَداً» ومن حدثك أنه كتم شيئا من الدين فقد كذب ثم قرأت: «يَا أَيُّهَا الرَّسُولُ بَلِّغْ مَا أُنْزِلَ إِلَيْكَ» قال مسروق: وكنت متكئا فجلست وقلت: ألم يقل

الله : « وَلَقَدْ رَآهُ نَزْلَةً أُخْرَى » فقالت أنا أول هـذه الأمة سأل رسولَ الله صلى الله عليه وسلم عند ذلك فقال : « إنمـا هو جبريل » .

ومن هذا تعلم أن عائشة تنفى دلالة سورة النجم على رؤية النبى صلى الله عليه وسلم لربه بالحديث المرفوع وتنفى جواز الرؤية مطلقا أوفى هذه الحياة الدنيا بالاستدلال بقوله تعالى : « لا تدركه الأبصار » وقوله : « وما كان لبشر أن يكلمه الله إلا وحيا أو من وراء حجاب » وهذا الاستدلال ليس نصا فى النفى حتى يرجح على الأحاديث الصريحة فى الرؤية وقد قال بها بعض علماء الصحابة .

والمثبتون للرؤية يقولون : إن استنباط عائشة إنمـا هو لنفى الرؤية فى الدنيا فقط كما قال بذلك الجمهور ، ولا تقاس شئون البشر فى الآخرة على شئونهم فى الدنيا ، لأن لذلك العالم سننا ونواميس تخالف سنن هذا العالم ونواميسه حتى فى الأمور المادية كالأكل والشرب ، والمأكول والمشروب ، فماء الجنة غير آسن فلا يتغير كماء الدنيا بما يخالطه أو يجاوره فى مقره أو جوّه ، قال ابن عباس ليس فى الدنيا شىء مما فى الجنة إلا الأسماء .

وجمهرة المسلمين أن رؤية العباد لربهم فى الآخرة حق وأنها أعلى وأكمل للنعيم الروحانى الذى يرتقى إليه البشر فى دار الكرامة ، وأنها أحق ما يصدق عليه قوله صلى الله عليه وسلم : « قال الله عز وجل أعددت لعبادى الصالحين مالا عين رأت ولا أذن سمعت ولا خطر على قلب بشر» وهى المعبر عنها بقولهم: إنها رؤية بلا كيف.

و بعد أن أخبر سبحانه فى الآيات السالفة أنه منع موسى رؤيته فى الدنيا و بشره بأنه اصطفاه على أهل زمانه برسالته و بكلامه أخبرنا فيما بعد بمـا آتاه يومئذ بالإجمال فقال :

(وكتبنا له فى الألواح من كل شىء موعظة وتفصيلا لـكل شىء) أى إننا أعطيناه ألواحا كتبنا له فيها أنواع الهداية والمواعظ التى تؤثر فى القلوب ترغيبا وترهيبا

وتفصيلا لأصول الشرائع وهى أصول العقائد والآداب وأحكام الحلال والحرام .

والراجح أن هذه الألواح كانت أول ما أوتيه من وحى التشريع الإجمالى . أما سائر الأحكام التفصيلية من العبادات والمعاملات المدنية والحربية والعقوبات فكانت تنزل عليه وقت الحاجة كالقرآن.

وقد اختلفوا فى عدد الألواح فمن مقل قال إنها اثنان ومن مكثر قال إنها عشرة أو سبعة.

وجاء فى التوراة فى شأن الألواح فى سفر الخروج : « قال الرب لموسى اصعد إلى الجبل وكن هناك فأعطيك لوحى الحجارة والشريعة والوصية التى كتبتها لتعليمهم الكلمات العشر » وجاء فيها أيضا : « ثم انثنى موسى ونزل من الجبل ولوحا الشهادة فى يده . لوحان مكتوبان على جانبيهما ، من هنا ومن هناك كانا مكتوبين ، واللوحان هما صنعة الله والكتابة كتابة الله منقوشة على اللوحين » وجاء فيها : « وقال الرب لموسى أكتب لك هذا الكلام لأنى بحسبه عقدت عهدا معك ومع بنى إسرائيل وأقام هناك عند الرب أربعين يوما وأربعين ليلة لم يأكل خبزا ولم يشرب ماء فكتب على اللوحين كلام العهد الكلمات العشر » ومن هذا تعلم أن ما كتبه المفسرون عن الإسرائيليات مخالفا لذلك فهو باطل ، أراد به واضعوه الكذب والافتراء ، فيجب علينا أن نمحص تلك الروايات ونحققها من كتبهم .

(فخذها بقوة) أى وكتبنا له فى الألواح ماذكر وقلنا له : هذه وصايانا وأصول شريعتنا وكلياتها ، فخذها بقوة وجدّ وعزم ، ذاك أنك ستكوّن بها شعبا جديدا بعادات جديدة وأخلاق جديدة مخالفة فى جوهرها وصفاتها لما كان عليه من الذل والعبودية لدى فرعون وقومه ، وما كان عليه من الشرك والوثنية التى ألفها وراضت نفسه لقبولها ، فأنى للقائد والمرشد أن يصلح ذلك الفساد ويرأب ذلك الصدع إذا لم يكن ذا عزيمة وقوة وبأس شديد وحزم فى أوامره ونواهيه ؟ .

(وأمر قومك يأخذوا بأحسنها) أى وأمر قومك بالاعتصام بهذه الموعظة والأحكام المفصلة فى الألواح التى هى منتهى الكمال والحسن كالإخلاص لله فى العبادة،

إذ به يتحلى العقل وتتزكى النفس ، مع ترك اتخاذ الصور والتماثيل لأنها ذرائع للشرك وسبب للوصول إليه .

(سأريكم دار الفاسقين) أى إن لم تأخذوا ما آتينا كم بقوة وتتبعوا أحسنه كنتم فاسقين عن أمر ربكم فيحل بكم ما حل بالفاسقين من قوم فرعون الذين أنجاكم الله منهم ، ونصركم عليهم وسيريكم ما حل بهم بعدكم من الغرق .

قال ابن كثير : أى سترون عاقبة من خالف أمرى وخرج عن طاعتى كيف يصير إلى الهلاك والدمار .

قال ابن جرير : وإنما قال (سأريكم دار الفاسقين) كما يقول القائل لمن يخالفه : سأريك غدا مايصير إليـــه حال من خالف أمرى ـ على وجه التهديد والوعيد لمن عصاه وخالف أمره .

وفى الآية عبرة لمن يقرؤها ويتدبر أمرها من وجوه :

(١) إن الشريعة يجب أن تتلقى بعزيمة وجدّ لتنفيذ ما بها من الإصلاح وتكوين الأمة تكوينا جديدا ، ومظهر ذلك الرسول المبلغ لها والداعى إليها والمنفذ لها بقوله وعمله فهو الأسوة والقدوة ، وهذه سنة الله فى كل انقلاب ، وتجديد اجتماعى وسياسى وإن لم يكن بهدى الله ، فما بالك بالدين وهو أحوج ما يكون إلى إصلاح الظاهر والباطن ، وقد أخذ سلفنا الصالح القرآن بقوة بالعمل بهداية دينهم لا بالتبرك بالمصاحف والتغنى بالقرآن فى المحافل ، فسادوا جميع الأمم التى كانت لها القوة الحربية والصناعية والمالية والعددية ، وسعدوا به فى دنياهم وسيكونون كذلك فى آخرتهم ، وخلف من بعدهم خلف أعرضوا عنه وتركوا هدايته فشقُوا فى دنياهم وآخرتهم كما قال « يُضِلُّ بِهِ كَثِيراً وَيَهْدِي بِهِ كَثِيراً وَمَا يُضِلُّ بِهِ إِلاَّ الْفَاسِقِينَ. الَّذِينَ يَنْقُضُونَ عَهْدَ اللهِ مِنْ بَعْدِ مِيثَاقِهِ وَيَقْطَعُونَ مَا أَمَرَ اللهُ بِهِ أَنْ يُوصَلَ وَيُفْسِدُونَ فِي الْأَرْضِ أُولَئِكَ هُمُ الْخَاسِرُونَ » .

(٢) أن شعب إسرائيل عظم ملكه حين أقام شريعته بقوة حتى إذا غلبه الغرور وظن أن الله ينصره لنسبه وأنه شعب الله فسق وظلم فأنزل الله به البلاء وسلط عليه البابليين فأزالوا ملكه ، ثم ثاب إلى رشده فرحمه وأعاد إليه بعض ملكه ، ثم ظلم وأفسد فسلط عليه النصارى فمزقوه كل ممزق .

(٣) إن المسلمين الذين اتبعوا سننهم قد اغتروا بدينهم كما اغتروا واتكلوا على لقب (الإسلام) ولقب (أمة محمد) ولم يثوبوا إلى رشدهم ، فزالت دولتهم وذهب ريحهم وامتلك عدوهم ناصيتهم وجدّ فى إفساد عقائدهم وأخلاقهم و إيقاع الشقاق فيما بينهم وتولى تربيتهم وتعليمهم كما يحب ويهوى ، ولله الأمر من قبل ومن بعد .

سَأَصْرِفُ عَنْ آيَاتِيَ الَّذِينَ يَتَكَبَّرُونَ فِي الْأَرْضِ بِغَيْرِ الْحَقِّ ، وَإِنْ يَرَوْا كُلَّ آيَةٍ لَا يُؤْمِنُوا بِهَا ، وَإِنْ يَرَوْا سَبِيلَ الرُّشْدِ لَا يَتَّخِذُوهُ سَبِيلًا ، وَإِنْ يَرَوْا سَبِيلَ الْغَيِّ يَتَّخِذُوهُ سَبِيلًا ، ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ كَذَّبُوا بِآيَاتِنَا وَكَانُوا عَنْهَا غَافِلِينَ (١٤٦) وَالَّذِينَ كَذَّبُوا بِآيَاتِنَا وَلِقَاءِ الْآخِرَةِ حَبِطَتْ أَعْمَالُهُمْ هَلْ يُجْزَوْنَ إِلَّا مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ (١٤٧)

شرح المفردات

التكبر: التكثر من الكبر ، وهو غمط الحق بعدم الخضوع له و يصحبه احتقار الناس، فصاحبه يرى أنه أكبر من أن يخضع لحق أو يساوى نفسه بشخص ، والرُّشْد والرَّشَد والرشاد كالسقم والسقم والسقام: الصلاح والاستقامة، وضده الغى والفساد ، والآيات الأولى : هى البينات والدلائل ، والثانية: هى الآيات المنزلة من حيث اشتمالها على الهداية وتزكية النفوس .

المعنى الجملى

بعد أن أبان سبحانه فى الآيات السالفة ما لحق فرعون وقومه من الهلاك بسبب استكباره وظلمه وفساده فى الأرض ـ ذكر هنا سنته تعالى فى ضلال البشر بعد مجىء البينات وتكذيبهم لدعاة الحق والخير من الرسل وأتباعهم ، وأبان أن السبب الأول لذلك هو التكبر ، فإن من شأن الكبر أن يصرف أهله عن النظر والاستدلال على الحق والهدى ، فهم يكونون دائما من المكذبين بالآيات الدالة عليه ، ومن الغافلين عنه كما هى حال الملوك والرؤساء والزعماء الضالين كفرعون وملئه .

وفى هذا إيماء للنبى صلى الله عليه وسلم بأن الطاغين المستكبرين من صناديد قومه لن ينظروا فى دعوته ولا فى آيات القرآن الدالة على وحدانية الله بما أقامته عليها من البراهين الكثيرة من آيات كونية ، وآيات فى الآفاق وفى أنفسهم .

وجملة الموانع الصادة لهم عن اتباعه ترجع إلى التكبر فإنهم بزعمهم يعتقدون أنهم سادة قريش وكبراؤها وأقوياؤها فلا ينبغى أن يتبعوا من دونهم سنا وقوة وثروة وعصبية .

الإيضاح

(سأصرف عن آياتى الذين يتكبرون فى الأرض بغير الحق) أى سأمنع قلوب المتكبرين عن طاعتى وعلى الناس بغير حق ـ فهم الأدلة والحجج الدالة على عظمتى وعلى مافى شرائعى من هدى وسعادة لهم كما قال « فَلَمَّا زَاغُوا أَزَاغَ اللهُ قُلُوبَهُمْ » كما منعت فرعون وقومه عن فهم آيات موسى التى أوحيتها إليه ، وقوله بغير الحق أى بتلبسهم بالباطل وانغماسهم فيه ـ إذ لاقيمة للحق لدى هؤلاء فهم لايبحثون عنه ولا يطلبونه ، وقد تظهر لهم آياته ويجحدونها وهم بها موقنون كما قال تعالى فى قوم فرعون « وَجَحَدُوا بِهَا وَاسْتَيْقَنَتْهَا أَنْفُسُهُمْ ظُلْمًا وَعُلُوًّا » .

ثم بين صفات المستكبرين وأحوالهم فقال :

(١) (وإن يروا كل آية لايؤمنوا بها) أى إنهم إذا رأوا الآيات التى تدل على الحق وتثبته لايستفيدون منها فائدة ما فلا يؤمنون بها ، لأن كثرة الآيات وتعدد أنواعها إنما تفيد من تكون نفسه توّاقة لمعرفة الحق لكنه يجهل الوصول إليه أو يشك فى الطريق الموصلة إليه لتعارض الأدلة لديه لخفاء دلالتها أو لسوء فهمه لها ، فإذا خفيت عليه دلالة بعضها فقد تظهر له دلالة غيره فتنكشف الحقيقة واضحة أمامه وتسفر له عن وجهها ، وفى هذا إيماء إلى النبى صلى الله عليه وسلم بأن الذين يقترحون عليه الآيات من قومه لايقصدون استبانة الحق وإيضاحه بل يريدون إحداث الشغْب والتعجيز ، فإن هم أجيبوا إلى طلبهم لم يؤمنوا بما جئت به .

(٢) (وإن يروا سبيل الرشد لايتخذوه سبيلا) أى وهم ينفرون من سبيل الهدى والرشاد وهى السبيل المعبدة الواضحة ، فإذا رأى أحدهم هذه السبيل لايختارها لنفسه ولا يفضلها على ما هو عليه من سبيل الغى ، وهذا منتهى ما يكون من الطبع على القلب والخروج عن جادة العقل والفطرة ، ومن الناس من يسلك هذه السبيل عن جهل فإذا رأى لنفسه مخرجا منها ارعوى وتركها واختار لنفسه سبيل الرشاد .

(٣) (وإن يروا سبيل الغى يتخذوه سبيلا) أى إنهم إذا رأوا سبيل الغى والضلال هرعوا إليها وخبّوا فيها وأوضعوا بما تزينه لهم نفوسهم من سلوكها والسير فيها إلى آخر الخَلْبة ، وهذه حال لهم شر من سابقتيها ، وهؤلاء الذين اجتمعت لهم هذه الصفات هم الذين طبع الله على قلوبهم وختم على سمعهم وقلوبهم ، وجعل على أبصارهم غشاوة ، فسبل الحق بغيضة إليهم ، وطرقه مكروهة لديهم .

ثم علل ما سلف من صرفهم عن النظر فى الآيات وعدم اعتبارهم بها فقال :

(ذلك بأنهم كذبوا بآياتنا وكانوا عنها غافلين) أى إننا عاقبناهم على تكذيبهم بالآيات والغفلة عن النظر إلى الأدلة الموصلة إلى الحق فيما أمرنا به ونهينا عنه — بالختم على قلوبهم ، والغشاوة على أعينهم حتى لايجد الحق منفذاً فى الوصول إليها .

والخلاصة — إن الله لم يخلق هؤلاء مطبوعين على الغى والضلال طبعا ، ولم يجبرهم إجبارا ويكرههم عليه إكراها بل كان ذلك بكسبهم واختيارهم ، إذ هم آثروا التكذيب بالآيات والصد عن السبل الموصلة إلى الرشاد وغفلوا عن النظر فى أدلتها لشغلهم بأهوائهم واتباع شهواتهم وبذا لجوا فى الطغيان وتمادوا فى العصيان واحتقروا ما سوى ذلك مما يهدى عقولهم إلى صوب الحق وسلوك طريقه .

وأمثال هؤلاء هم الذين عناهم الله بقوله « وَلَقَدْ ذَرَأْنَا لِجَهَنَّمَ كَثِيراً مِنَ الْجِنِّ وَالْإِنْسِ لَهُمْ قُلُوبٌ لَا يَفْقَهُونَ بِهَا وَلَهُمْ أَعْيُنٌ لَا يُبْصِرُونَ بِهَا وَلَهُمْ آذَانٌ لَا يَسْمَعُونَ بِهَا أُولَئِكَ كَالْأَنْعَامِ بَلْ هُمْ أَضَلُّ أُولَئِكَ هُمُ الْغَافِلُونَ » .

ولا شك أن كثيرا من المسلمين الذين تعلموا التعاليم الغربية ورأوا زخرف المدنية الأوروبية وغرهم بهرجها وخلبتهم زينتها تنطبق عليهم هذه الصفات ، فهم يحتقرون هداية الدين الروحية وأوامره ونواهيه وسائر تعاليمه وما له من تأثير عظيم فى النفوس وتوجيه لها إلى الخير وصدّ لها عن الشر والبعد عن الفواحش والمنكرات .

ذاك أنهم رأوا أنفسهم بعيدين عن الفنون والصناعات وزخرف الحياة الذى وصل فيه الغربيون إلى الغاية القصوى وهم عبيد شهواتهم منصرفون عن هداية الأديان إلى أبعد غاية ، فحدثتهم أنفسهم أن ينهجوا نهجهم ويسيروا على سنتهم علّهم يصلون فى ذلك إلى بعض ما وصلوا إليه ، ولو ساغ لبنى إسرائيل ألا يتبعوا موسى عليه السلام لأنه لم يكن عنده من زينة الدنيا ومن الفنون والصناعات ومن رائع المدنية مثل ما كان عند فرعون وقومه لساغ لهم أن ينحدروا فى تلك الهُوّة ويقعوا فى تلك الحفرة.

ولله فى خلقه شئون وهو يصرف الأمور بيده وله الأمر من قبل ومن بعد .

(والذين كذبوا بآياتنا ولقاء الآخرة حبطت أعمالهم هل يجزون إلا ما كانوا يعملون) أى والذين كذبوا بآياتنا المنزلة بالحق والهدى على رسلنا ، فلم يؤمنوا بها ولم يهتدوا بهديها ، وكذبوا بما يكون فى الآخرة من الجزاء على الأعمال من ثواب

على الخير وعقاب على الشر ـ تحبط أعمالهم وتذهب سدى لأنهم عملوا لغير الله وأتعبوا أنفسهم فى غير ما يرضى الله فتصير أعمالهم وبالا عليهم ولا يجزون إلا جزاء ما استمروا على عمله من الكفر والمعاصى ، فأثر فى نفوسهم وأرواحهم حتى دسّاها وأفسدها ، فقد مضت سنته تعالى بجعل الجزاء فى الآخرة أثرا للعمل مرتبا عليه كترتيب المسبب على السبب ، ولا يظلم ربك أحدا فى جزائه مثقال ذرة .

وَاتَّخَذَ قَوْمُ مُوسَى مِنْ بَعْدِهِ مِنْ حُلِيِّهِمْ عِجْلاً جَسَدًا لَهُ خُوَارٌ، أَلَمْ يَرَوْا أَنَّهُ لاَيُكَلِّمُهُمْ وَلاَ يَهْدِيهِمْ سَبِيلاً ؟ اتَّخَذُوهُ وَكَانُوا ظَالِمِينَ (١٤٨) وَلَمَّا سُقِطَ فِي أَيْدِيهِمْ وَرَأَوْا أَنَّهُمْ قَدْ ضَلُّوا قَالُوا لَئِنْ لَمْ يَرْحَمْنَا رَبُّنَا وَيَغْفِرْ لَنَا لَنَكُونَنَّ مِنَ الْخَاسِرِينَ (١٤٩)

شرح المفردات

الْحُلِيّ (بالضم والتشديد) واحدها حَلْيٌ (بالفتح والتخفيف) . والعجل: ولد البقرة من العراب أو الجواميس كالحوار لولد الناقة والمهر لولد الفرس ، والجسد : الجثة وبدن الإنسان والشىء الأحمر كالذهب والزعفران والدم الجاف ، والخوار : صوت البقر كالرغاء لصوت الإبل ، وسقط فى يده وأسقط فى يده (بضم أولها على البناء للمفعول) أى ندم ، ويقولون فلان مسقوط فى يده وساقط فى يده أى نادم . قال فى العُباب وتاج العروس : هذا نظم لم يُسمع قبل القرآن ولا عرفته العرب ، وذكرت اليد لأن الندم يحدث فى القلب وأثره يظهر فيها بعضّها أو الضرب بها على أختها كما قال سبحانه فى النادم « فَأَصْبَحَ يُقَلِّبُ كَفَّيْهِ عَلَى مَا أَنْفَقَ فِيهَا » ولأن اليد هى الجارحة العظمى وربما يسند إليها مالم تباشره كقوله تعالى « ذَٰلِكَ بِمَا قَدَّمَتْ يَدَاكَ » .

المعنى الجملى

بعد أن ذكر خبر مناجاة موسى لربه واصطفائه إياه برسالاته وبكلامه وأمره بأخذ الألواح بقوة ــ ذكر هنا ما حدث أثناء المناجاة من اتخاذ قومه بنى إسرائيل عجلا مصوغا من الذهب والفضة ، ثم عبادته من دون الله ــ لما رسخ فى نفوسهم من فخامة المظاهر الوثنية الفرعونية فى مصر ــ وقد ذكرت هذه القصة عقب تلك لما بينهما من العلاقات الظاهرة وللاشتراك فى الزمن .

الإيضاح

(واتخذ قوم موسى من بعده من حليهم عجلا جسدا له خوار) أى وصاغ بنو إسرائيل من بعد ما فارقهم موسى ماضيا إلى ربه لمناجاته ووفاء الموعد الذى وعده به ــ من حلى القبط التى كانوا استعاروها منهم عجلا جسدا له خوار أى تمثالا له صورة العجل وبدنه وصوته ثم عبدوه .

والذى فعل ذلك كما سيأتى فى سورة طه هو السامرى ، وكان رجلا مطاعا فيهم ذا منزلة واحترام ، وإنما نسبه إليهم لأنه عمل برأى جمهورهم الذين طلبوا أن يجعل لهم إلها يعبدونه .

قال ابن كثير : وقد اختلف المفسرون فى ذلك العجل هل صار لحما ودما له خوار أو استمر على كونه من ذهب إلا أنه يدخل فيه الهواء فيصوت كالبقر على قولين والله أعلم اهـ .

ويرى الرأى الأول قتادة والحسن البصرى فى جماعة آخرين ، وتعليل ذلك عندهم أن السامرى رأى جبريل حين جاوز ببنى إسرائيل البحر راكبا فرسا ما وطىء بها أرضا إلا حلت فيها الحياة واخضر نباتها فأخذ من أثرها قبضة فنبذها فى جوف تمثال العجل فحلت فيه الحياة وصار يخور كما يخور العجل .

ويرى جماعة آخرون الرأى الثانى ويقولون : إن خواره كان بتأثير دخول الريح فى جوفه وخروجها من فيه ، ذاك أنه صنع تمثال عجل مجوفا ووضع فى جوفه أنابيب على طريق فنية مستمدة من دراسة علم الصوت وجعل وضعه على مهب الرياح فمتى دخلت الريح فى جوف التمثال انبعث منه صوت يشبه خوار العجل .

وقال آخرون بل ذلك الخوار كان تمويها وعملا منه يشبه عمل : (الحواة) ذاك أنه جعل التمثال أجوف وجعل تحت الموضع الذى نصب فيه من ينفخ فيه من حيث لايشعر الناس فسمعوا الصوت من جوفه كالخوار ، والناس يفعلون مثل هذا فى النافورات التى تجرى فيها المياه ، وبهذا الطريق ونحوه ظهر الصوت من التمثال ثم ألقى فى رُوع الناس أن هـــذا العجل إلههم وإله موسى فعبدوه كلهم إلا هارون كما قال الحسن .

ثم رد الله عليهم ضلالاتهم وأبان لهم فساد آرائهم وقرّعهم على جهالاتهم فقال: (ألم يروا أنه لايكلمهم ولا يهديهم سبيلا) أى ألم يروا أنه فاقد لما يعرف به الإله الحق من تكليمه لمن يختاره من البشر لرسالته لتعليم عباده مايجب عليهم معرفته من صفاته وسبيل عبادته كما كلم رب العالمين موسى وألقى إليه الألواح التى فيها من الشرائع مايزكى النفوس وتقوم بها مصالح العباد وعليها سعادتهم فى دنياهم وآخرتهم.

وخلاصـــة ذلك — إنه فاقد لأهم صفة من صفات الإله الحق وهى صفة الهداية والإرشاد للعباد بإنزال الرسل الذين يختارهم إلى الناس ــ ومرجعها صفة الكلام .

(اتخذوه وكانوا ظالمين) أى إنهم لم يتخذوه عن دليل وبرهان بل اتخذوه عن تقليد للمصريين إذ رأوهم يعبدون العجل : (أبيس) من قبلُ وعن تقليد لما رأوه من العاكفين على أصنام لهم من بعدُ فعبدوه مثلهم .

وبهذا كانوا ظالمين لأنفسهم إذ هم يعملون ما يضرهم ولا ينفعهم بشىء .

(ولما سقط فى أيديهم ورأوا أنهم قد ضلوا قالوا لئن لم يرحمنا ربنا ويغفر لنا لنكونن من الخاسرين) أى ولما اشتد ندمهم وازدادت حسرتهم على ما فرط منهم

فى جنب الله وعلموا أنهم قد ضلوا ضلالا بعيدا بعبادة العجل قالوا إن ذنبنا لعظيم و إن جرمنا لكبير ، و إنه لن يسعهم بعد هذا الذنب إلا رحمة الله التى وسعت كل شىء ، ولئن لم يرحمنا ربنا بقبول توبتنا والتجاوز عن جريمتنا لنكونن من الذين خسروا سعادة الدنيا وهى الحرية والاستقلال فى أرض الموعد ، وخسروا سعادة الآخرة وهى دار الكرامة والنعيم المقيم وجنات النعيم .

وَلَمَّا رَجَعَ مُوسَى إِلَى قَوْمِهِ غَضْبَانَ أَسِفًا قَالَ بِئْسَمَا خَلَفْتُمُونِى مِنْ بَعْدِى ، أَعَجِلْتُمْ أَمْرَ رَبِّكُمْ ؟ وَأَلْقَى الْأَلْوَاحَ وَأَخَذَ بِرَأْسِ أَخِيهِ يَجُرُّهُ إِلَيْهِ قَالَ ابْنَ أُمَّ إِنَّ الْقَوْمَ اسْتَضْعَفُونِى وَكَادُوا يَقْتُلُونَنِى فَلَا تُشْمِتْ بِىَ الْأَعْدَاءَ وَلَا تَجْعَلْنِى مَعَ الْقَوْمِ الظَّالِمِينَ (١٥٠) قَالَ رَبِّ اغْفِرْ لِى وَلِأَخِى وَأَدْخِلْنَا فِى رَحْمَتِكَ وَأَنْتَ أَرْحَمُ الرَّاحِمِينَ (١٥١)

شرح المفردات

الأسف : الحزن والغضب ، ويقال أسف من باب تعب حزن وتلهف ، وأسف كغضب وزنا ومعنى ، ويعدى بالهمزة فيقال : آسفته ، ومن استعمال الأسف بمعنى الحزن قوله تعالى حكاية عن يعقوب : « وَقَالَ يَا أَسَفَا عَلَى يُوسُفَ » وبمعنى الغضب قوله : « فَلَمَّا آسَفُونَا انْتَقَمْنَا مِنْهُمْ » وعجله : سبقه ، وأعجله : استعجله ، وألقى : طرح ، والشماتة : الفرح بالمصيبة .

المعنى الجملى

بعد أن ذكر ما أحدثه السامرى من اتخاذه العجل لبنى إسرائيل وعبادتهم له ثم ندمهم على ما فرط منهم فى جنب الله وطلبهم الرحمة من ربهم — ذكر هنا

ما حدث من موسى من الأسى والحزن حين رأى قومه على هذه الحال من الضلال والغى ، ومن التعنيف واللوم لهرون على السكوت على قومه حين رآهم فى ضلالتهم يعمهون .

الإيضاح

(ولما رجع موسى إلى قومه غضبان أسفا) أى ولما رجع موسى من الطور إلى قومه غضبان على أخيه هرون ، إذ رأى أنه لم يكن فيهم صليب الرأى قوى الشكيمة نافذ الكلمة ، حزينا على ما وقع منهم من كفر الشرك وإغضاب الله والتفريط فى جنبه .

(قال بئسما خلفتمونى من بعدى) أى بئس خلافة خلفتمونيها من بعد ذهابى عنكم إلى مناجاة ربى وقد كنت لقنتكم التوحيد وكففتكم عن الشرك و بينت لكم فساده وسوء مغبته وحذرتكم صنيع القوم الذين كانوا يعكفون على أصنام لهم من تماثيل البقر .

وقد كان من الحق عليكم أن تقتفوا أثرى وتتبعوا سيرتى ، بَيْدَ أنكم سلكتم ضد ذلك فصنعتم صنما كأحد أصنامهم فعبده بعضكم ولم يردعكم عن ذلك باقيكم .

(أعجلتم أمر ربكم ؟) قال صاحب الكشاف : المعنى أعجلتم عن أمر ربكم وهو انتظار موسى حافظين لعهده وما وصاكم به فبنيتم الأمر على أن الميعاد قد بلغ آخره ولم أرجع إليكم فحدثتكم أنفسكم بموتى فغيرتم كما غيرت الأمم بعد أنبيائهم .

وروى أن السامرى قال لهم حين أخرج لهم العجل وقال : « هذا إلهكم و إله موسى » إن موسى لن يرجع و إنه قد مات اهـ .

(وألقى الألواح وأخذ برأس أخيه يجره إليه) أى وطرح الألواح من يديه وأخذ برأس أخيه يجره إليه بذؤابته ظنا منه أنه قد قصر فى ردعهم وتأنيبهم وكفهم عن عبادة العجل كما فعل هو بتحريقه و إلقائه فى اليم إن قدر ، أو أن يتبعه إلى جبل

الطور إن لم يستطع كما حكى الله تعالى عنه فى سورة طه : « قَالَ يَا هٰرُونُ مَا مَنَعَكَ إِذْ رَأَيْتَهُمْ ضَلُّوا أَلَّا تَتَّبِعَنِ أَفَعَصَيْتَ أَمْرِى ؟ » .

ولا شك أن سياسة الأمم تختلف باختلاف أحوال رعاتها وسائسيها ، فالقوى منهم الشديد الغضب للحق كموسى يشعر بما لايشعر به من يغلب عليه الحلم ولين العريكة كهرون عليه السلام .

ثم ذكر سبحانه جواب هرون لموسى فقال :

(قال ابن أم إن القوم استضعفونى وكادوا يقتلوننى) أى يابن أمى لا تعجل بلومى وتعنيفى وتظنّ تقصيرى فى جنب الله فإنى لم آل جهدا فى الإنكار على القوم والنصح لهم لـكنهم قد استضعفونى ولم يرعووا لنصحى ولم يمتثلوا لأمرى بل أوشكوا أن يقتلونى .

(فلا تشمت بى الأعداء ولا تجعلنى مع القوم الظالمين) أى فلا تفعل بى من اللوم والتقريع مايجعل الأعداء يشمتون بى، ولاتجعلنى فى زمرة القوم الظالمين لأنفسهم وهم الذين عبدوا العجل فتغضب منى كما غضبت منهم وتؤاخذنى كما آخذتهم فإنى لست منهم فى شىء ، وفى هذا دليل على أن هرون كان دون موسى فى شدة العزيمة وقوة الإرادة وأخذ الأمور بالحزم ، وهذا ما أطبق عليه المسلمون وأهل الـكتاب .

ثم أبان سبحانه أثر هذا الاستعطاف فى قلب موسى عليه السلام فقال :

(قال رب اغفر لى ولأخى وأدخلنا فى رحمتك وأنت أرحم الراحمين) أى قال رب اغفرلى ما فرط منى من قول وفعل فيهما غلظة وجفاء ، واغفر له ما عساه يكون قد قصر فيه من مؤاخذة القوم على ما اجترموه من الآثام خوفا ممـا توقعه من الإيذاء الذى قد يصل إلى القتل ، وأدخلنا فى رحمتك التى وسعت كل شىء واغمرنا بجودك وفضلك فأنت أرحم بعبادك من كل من رحم .

والآية صريحة فى براءة هرون من جريمة اتخاذ العجل وفى إنكاره على متخذيه

وعابديه من قومه ، وبهذا قد صححت ما وقع فى التوراة التى بين يدى أهل الكتاب من نسبة اتخاذ العجل إلى هرون وجعله هو الفاعل لذلك كما جاء فى الفصل الثانى والثلاثين من سفر الخروج قال :

(ولما رأى الشعب أن موسى قد أبطأ فى النزول من الجبل اجتمع الشعب على هرون وقالوا : قم فاصنع لنا آلهة تسير أمامنا لأن موسى الرجل الذى كان قد أصعدنا من أرض مصر لانعلم ما قد أصابه ، فقال لهم هرون انزعوا أقراط الذهب التى فى آذان نسائكم وبنيكم وبناتكم وائتونى بها فنزع كل الشعب أقراط الذهب التى كانت فى آذانهم وأتوا بها إلى هرون ، فأخذ ذلك من أيديهم وصوّره بالأزميل وصنعه عجلا مسبوكا فقالوا هذه آلهتك يا إسرائيل التى أصعدتك من أرض مصر ، فلما نظر هرون بنى مذبحا أمامه ونادى هرون وقال : غدا عيد للرب فبكروا فى الغد وأصعدوا محرقات وقدموا ذبائح سلامة ، وجلس الشعب للأكل والشرب ثم قاموا للعب ، فقال الرب لموسى : اذهب انزل ، لأنه قد فسد شعبك الذى أصعدته من أرض مصر ، زاغوا سريعا عن الطريق الذى أوصيتهم به صنعوا عجلا مسبوكا وسجدوا له وذبحوا له وقالوا : هذه آلهتك يا إسرائيل الذى أصعدتك من أرض مصر ـ ثم قال :

وكان عند ما اقترب إلى المحلة أنه أبصر العجل والرقص فحمى غضب موسى وطرح اللوحين من يديه وكسرهما فى أسفل الجبل ، ثم أخذ العجل الذى صنعوا وأحرقه بالنار وطحنه حتى صار ناعما وذرّاه على وجه الماء وسقى بنى إسرائيل وقال موسى لهرون : ماذا صنع بك هذا الشعب حتى جلبت عليه خطية عظيمة فقال هرون : لايحمَ غضب سيدى على ، أنت تعرف الشعب إنه فى شر ، فقالوا اصنع لنا آلهة تسير أمامنا ... ثم ذكر طلب موسى من الرب أن يغفر لقومه ، وأمر الرب إياهم بأن يقتل كل واحد أخاه وكل واحد صاحبه وكل واحد قريبه وإن بنى لاوَى فعلوا ذلك فقتل منهم فى ذلك اليوم نحو ثلاثة آلاف رجل) ـ وقد تقدم ذكر ذلك فى سورة البقرة .

إِنَّ الَّذِينَ اتَّخَذُوا الْعِجْلَ سَيَنَالُهُمْ غَضَبٌ مِنْ رَبِّهِمْ وَذِلَّةٌ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا، وَكَذَلِكَ نَجْزِي الْمُفْتَرِينَ (١٥٢) وَالَّذِينَ عَمِلُوا السَّيِّئَاتِ ثُمَّ تَابُوا مِنْ بَعْدِهَا وَآمَنُوا، إِنَّ رَبَّكَ مِنْ بَعْدِهَا لَغَفُورٌ رَحِيمٌ (١٥٣)

شرح المفردات

الغضب هنا: هو ما أمروا به من قتل أنفسهم، والذلة: هي ما يشعرون به من هوانهم على الناس واحتقارهم لهم، وقيل هي الذلة التي عرتهم عند تحريق إلههم ونسفه في اليم نسفا مع عدم قدرتهم على دفع ذلك عنه.

المعنى الجملي

بعد أن ذكر عتاب موسى لأخيه هارون عليهما السلام ثم استغفاره لنفسه وله ـ قفى على ذلك بذكر ما استحقه القوم من الجزاء على اتخاذ العجل وهو مما أوحاه الله إلى موسى يومئذ.

الإيضاح

(إن الذين اتخذوا العجل سينالهم غضب من ربهم وذلة فى الحياة الدنيا) أى إن الذين بقوا على اتخاذ العجل واستمروا عليه كالسامرى وأشياعه ـ سيصيبهم غضب من ربهم بألا يقبل توبتهم إلا إذا قتلوا أنفسهم، وذلة عظيمة فى الحياة الدنيا بالخروج من الديار والغربة عن الوطن.

(وكذلك نجزى المفترين) أى ومثل هذا الجزاء فى الدنيا نجزى المفترين على الله فى كل زمان إذا فضحوا بظهور افترائهم كما فضح هؤلاء.

قال الحسن البصرى: إن ذل البدعة على أكتافهم وإن هملجت بهم البغال وطقطقت بهم البراذين.

وروى عن أبى قلابة أنه قرأ هذه الآية وقال هى والله لكل مفتر إلى يوم القيامة.

(والذين عملوا السيئات ثم تابوا من بعدها وآمنوا إن ربك من بعدها لغفور رحيم) أى والذين عملوا السيئات من الكفر والمعاصى ثم تابوا ورجعوا من بعدها إلى الله بأن رجع الكافر عن كفره والعاصى عن عصيانه وأخلص الإيمان وزكاه بالعمل الصالح - إن ربك من بعد ذلك لغفور لهم ستار لذنوبهم رحيم بهم منعم عليهم .

وينتظم فى هذا السلك متخذو العجل وسواهم من المجترحين للسيئات ، عظمت ذنوبهم أو حقرت ، لأن الذنوب وإن جلت وعظمت فعفو الله وكرمه أعظم وأجل على شريطة التوبة والإنابة ، وبدونها الطمع فيه طمع فى غير مطمع ، ألا ترى أن طمع الفساق فى المغفرة بدون الإنابة إلى ربهم قد ذهب بكثير من حرمة الأوامر والنواهى من قلوبهم وجعلهم يستحلون كثيرا من المحرمات وكانوا شرا ممن قال الله فيهم : « وَقَالُوا لَنْ تَمَسَّنَا النَّارُ إِلاَّ أَيَّاماً مَعْدُودَةً » ولم يكن طمعهم ثمرة إيمان وعمل صالح بل هى أمانى جر إليها الحمق والغفلة عما يجب من تعظيم تلك الأوامر والنواهى : « إن الأمانى والأحلام تضليل » .

وَلَمَّا سَكَتَ عَنْ مُوسَى الْغَضَبُ أَخَذَ الْأَلْوَاحَ وَفِي نُسْخَتِهَا هُدًى وَرَحْمَةٌ لِلَّذِينَ هُمْ لِرَبِّهِمْ يَرْهَبُونَ (١٥٤)

شرح المفردات

السكوت فى اللغة : ترك الكلام، نسب إلى الغضب على تصويره بصورة شخص ذى قوة ورياسة يأمر وينهى فيطاع ، قال فى الكشاف : هذا مثل كأن الغضب كان يغريه على ما فعل ويقول له قل لقومك كذا وألق الألواح وجر برأس أخيك إليك ، فترك النطق بذلك وقطع الإغراء اه . وفى نسختها أى ما نسخ وكتب منها فهى من النسخ كالخطبة من الخطاب ، وهدى : بيان للحق ، ورحمة بالإرشاد إلى ما فيه الخير والإصلاح ، والرهبة : أشد الخوف .

المعنى الجملى

بعد أن ذكر حال القوم وقسمهم قسمين : مصر على الذنب وعبادة العجل ، وتائب منيب إلى ربه ، وبين مآل كل من القسمين ـ ذكر هنا بيان حال موسى بعد أن سكنت سورة غضبه وهدأ رَوْعه .

الإيضاح

(ولما سكت عن موسى الغضب أخذ الألواح وفى نسختها هدى ورحمة للذين هم لربهم يرهبون) أى ولما سكن غضب موسى باعتذار أخيه إليــه ولجأ إلى رحمة ربه وفضله وجأر بالدعاء له أن يغفر له ولأخيه خطاياهما عاد إلى الألواح فأخذها ، وفيها الهدى والرشاد من بارئ النسم لمن يرهب الله ويخشى عقابه ويرجو ثوابه .

وَاخْتَارَ مُوسَى قَوْمَهُ سَبْعِينَ رَجُلاً لِمِيقَاتِنَا فَلَمَّا أَخَذَتْهُمُ الرَّجْفَةُ قَالَ رَبِّ لَوْ شِئْتَ أَهْلَكْتَهُمْ مِنْ قَبْلُ وَإِيَّاىَ ، أَتُهْلِكُنَا بِمَا فَعَلَ السُّفَهَاءُ مِنَّا ، إِنْ هِىَ إِلَّا فِتْنَتُكَ تُضِلُّ بِهَا مَنْ تَشَاءُ وَتَهْدِى مَنْ تَشَاءُ ، أَنْتَ وَلِيُّنَا فَاغْفِرْ لَنَا وَارْحَمْنَا وَأَنْتَ خَيْرُ الْغَافِرِينَ (١٥٥) وَاكْتُبْ لَنَا فِى هَذِهِ الدُّنْيَا حَسَنَةً وَفِى الآخِرَةِ إِنَّا هُدْنَا إِلَيْكَ ، قَالَ عَذَابِى أُصِيبُ بِهِ مَنْ أَشَاءُ وَرَحْمَتِى وَسِعَتْ كُلَّ شَىْءٍ فَسَأَكْتُبُهَا لِلَّذِينَ يَتَّقُونَ وَيُؤْتُونَ الزَّكَاةَ وَالَّذِينَ هُمْ بِآيَاتِنَا يُؤْمِنُونَ (١٥٦) الَّذِينَ يَتَّبِعُونَ الرَّسُولَ النَّبِىَّ الْأُمِّىَّ الَّذِى يَجِدُونَهُ مَكْتُوبًا عِنْدَهُمْ فِى التَّوْرَاةِ وَالْإِنْجِيلِ يَأْمُرُهُمْ بِالْمَعْرُوفِ وَيَنْهَاهُمْ عَنِ الْمُنْكَرِ ، وَيُحِلُّ لَهُمُ الطَّيِّبَاتِ ، وَيُحَرِّمُ عَلَيْهِمُ الْخَبَائِثَ

وَيَضَعُ عَنْهُمْ إِصْرَهُمْ وَالْأَغْلَالَ الَّتِى كَانَتْ عَلَيْهِمْ ، فَالَّذِينَ آمَنُوا بِهِ وَعَزَّرُوهُ وَنَصَرُوهُ وَاتَّبَعُوا النُّورَ الَّذِى أُنْزِلَ مَعَهُ ، أُولٰئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ (١٥٧)

شرح المفردات

يقال اختاره من الرجال وانتقاه : اصطفاه من بينهم ، والرجفة: الصاعقة ، والفتنة : الاختبار والامتحان مطلقا أو بالأمور الشاقة ، والولى : المتولى أمور غيره القائم عليها ، والحسنة فى الدنيا : هى العافية و بسطة الرزق وعز الاستقلال والملك ، وفى الآخرة دخول الجنة ونيل الرضوان ، وهاد يهود وتهود : تاب ورجع إلى الحق فهو هائد وقوم هود ، والنبى من النبأ : وهو الخبر المهم العظيم الشأن ؛ وفى لسان الشرع من أوحى الله إليه وأنبأه بما لم يكن يعلم بكسبه من خبر أو حكم به يعلم علما ضروريا أنه من الله عز وجل، والرسول: نبى أمره الله بتبليغ شرع ودعوة دين و باقامته والعمل به ولا يشترط أن يكون كتابا يقرأ و ينشر ولا شرعا جديدا يعمل به و يحكم بين الناس ، بل قد يكون تابعا لشرع غيره كله كالرسل من بنى إسرائيل الذين كانوا يتبعون التوراة عملا وحكما، والأمى: الذى لايقرأ ولا يكتب نسبة إلى الأم ، وأهل الكتاب يلقبون العرب بالأميين كما حكى الله عنهم : «ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ قَالُوا لَيْسَ عَلَيْنَا فِي الْأُمِّيِّينَ سَبِيلٌ» . والمعروف: ما تعرف العقول السليمة حسنه لموافقته للفطرة والمصلحة بحيث لا تستطيع أن ترده أو تعترض عليه إذا ورد به الشرع ، والمنكر ما تنكره القلوب وتأباه على الوجه المذكور، والطيب : ما تستطيبه الأذواق من الأطعمة وتستفيد منه التغذية النافعة ، والخبيث من الأطعمة : ما تمجه الطباع السليمة كالميتة والدم المسفوح ، أو تصد عنه العقول الراجحة لضرره فى البدن كالخنزير الذى تتولد من أكله الدودة الوحيدة ، أو لضرره فى الدين كالذى يذبح للتقرب به إلى غير الله على سبيل العبادة ، والخبيث من الأموال:

ما يؤخذ بغير حق : كالرياء والرشوة والغلول والسرقة والغصب ونحو ذلك ، والإصر : الثقل الذى يأصِر صاحبه : أى يحبسه من الحراك لثقله ، والأغلال : واحدها غل (بالضم) وهو الحديدة التى تجمع يد الأسير إلى عنقه ويقال لها جامعة أيضا ، والتعزير : الإعانة والنصرة حتى لا يقوى عليه عدو .

الإيضاح

(واختار موسى قومه سبعين رجلا لميقاتنا) أى وانتخب موسى واصطفى سبعين رجلا من خيار قومه للميقات الذى وقته الله تعالى له ودعاهم للذهاب معه إلى حيث يناجى ربه من جبل الطور .

(فلما أخذتهم الرجفة قال رب لو شئت أهلكتهم من قبل وإياى) أى فلما أخذتهم رجفة الجبل وصعقوا قال موسى رب إننى أتمنى أن لو كانت سبقت مشيئتك أن تهلكهم من قبل خروجهم معى إلى هذا المكان فأهلكتهم وأهلكتنى معهم حتى لا أقع فى شديد الحرج مع قومى فيقولوا قد ذهبت بخيارنا لإهلاكهم وإن لم تفعل فإنى أسألك برحمتك ألا تفعل الآن .

وقد اختلف المفسرون فى أن هذا هل كان بعد أن أفاق موسى من صعقة تجلى ربه للجبل عقب سؤاله الرؤية إذ كان معه شيوخ بنى إسرائيل ينتظرونه فى مكان وضعهم فيه غير مكان المناجاة — أو كان بعد عبادة العجل حين ذهبوا للاعتذار وتأكيد التوبة وطلب الرحمة .

قال محمد بن إسحق : اختار موسى من بنى إسرائيل سبعين رجلا الخيِّر فالخيِّر وقال انطلقوا إلى الله فتوبوا إليه مما صنعتم واسألوه التوبة على من تركتم وراءكم من قومكم ، صوموا وتطهروا وطهروا ثيابكم ، فخرج بهم إلى طور سيناء لميقات وقَّته ربه وكان لا يأتيه إلا بإذن منه وعلم ، فقال له السبعون فيما ذكر لى حين صنعوا ما أمرهم به وخرجوا معه للقاء ربه : يا موسى اطلب لنا نسمع كلام ربنا فقال أفعل ، فلما دنا

موسى من الجبل وقع عليه عمود الغمام حتى تغشى الليل كله ودنا موسى فدخل فيه وقال للقوم ادنوا ، وكان موسى إذا كلمه الله وقع على جبهته نور ساطع لايستطيع أحد من بنى آدم أن ينظر إليه فضرب دونه بالحجاب ودنا القوم حتى إذا دخلوا فى الغمام وقعوا سجودا فسمعوه وهو يكلم موسى : يأمره وينهاه افعل ولا تفعل ، فلما فرغ إليه من أمره وانكشف عن موسى الغمام أقبل إليهم فقالوا لموسى : « لَنْ نُؤْمِنَ لَكَ حَتَّى نَرَى اللَّهَ جَهْرَةً » فأخذتهم الرجفة وهى الصاعقة فأتلفت أرواحهم فماتوا جميعا ، فقام موسى يناشد ربه ويدعوه ويرغب إليه ويقول : « رب لو شئت أهلكتهم من قبل وإياى » قد سفهوا ، أتهلك من ورائى من بنى إسرائيل اهـ .

ولاشك أن هذه الرواية ونحوها مأخوذة عن الإسرائيليات وليس فيها شىء مرفوع إلى النبى صلى الله عليه وسلم .

(أتهلكنا بما فعل السفهاء منا) أى قال موسى لربه مستعطفا : لاتهلكنا بما فعل السفهاء منا من العناد وسوء الأدب أو من عبادة العجل ، وفى هذا إيماء إلى أن عقلاء بنى إسرائيل وأصحاب الروية منهم لم يعبدوه وإنما عبده السفهاء وهم الأكثرون .

(إن هى إلا فتنتك تضل بها من تشاء وتهدى من تشاء) أى ما تلك الفعلة التى كانت سببا فى أخذهم بالرجفة إلا محنة منك وابتلاء جعلته سببا لظهور استعداد الناس وما طويت عليه سرائرهم من ضلال وهداية وما يستحقون عليه العقوبة أو المثوبة على حسب سنتك فى خلقك بالعدل والحق ، تضل بمقتضاها من تشاء من عبادك ولست بالظالم لهم فى تقديرك ، وتهدى من تشاء ولست بالمحابى لهم فى توفيقك ، فأمرهم دائر بين العدل والفضل .

(أنت ولينا فاغفر لنا وارحمنا وأنت خير الغافرين) أى أنت المتولى أمورنا والقائم علينا بما تكتسب نفوسنا ، فاغفر لنا ما تترتب عليه المؤاخذة والعقاب من مخالفة سنتك والتقصير فيما يجب من ذكرك وشكرك وعبادتك ، وارحمنا وأنت خير الغافرين حلما وكرما وجودا ، فكل غافر سواك إنما يغفر لغرض كحب الثناء ودفع

الضرر وأنت تغفر لا لطلب عوض بل لمحض الفضل والكرم ، وأنت خير الراحمين رحمة وأوسعهم فيها فضلا وإحسانا ؛ فرحمة من سواك نفحة مفاضة على قلوبهم من رحمتك .

(واكتب لنا فى هذه الدنيا حسنة وفى الآخرة) أى وأثبت لنا برحمتك وفضلك حياة طيبة فى هذه الدنيا من عافية وبسطة فى الرزق وتوفيق للطاعة ، ومثوبة حسنة فى الآخرة بدخول جنتك ونيل رضوانك فهو بمعنى قوله فيما علمنا من دعائه : « رَبَّنَا آتِنَا فِي الدُّنْيَا حَسَنَةً وَفِي الْآخِرَةِ حَسَنَةً » .

(إنا هدنا إليك) أى إنا تبنا إليك مما فرط من سفهائنا من طلب الآلهة وعبادة العجل ومن تقصير عقلائنا فى الإنكار عليهم — مستغفرين مسترحمين كما فعل من قبلُ آدم إذ تاب إليك من معصيته فتبت عليه واجتبيته فكانت تلك سنتك فى ولده .

(قال عذابى أصيب به من أشاء ورحمتى وسعت كل شىء) أى قد كان من سبق رحمتى غضبى أن جعلت عذابى خاصا أصيب به من أشاء من الكفار والعصاة ؛ أما رحمتى فقد وسعت كل شىء فى العالمين فهى من صفاتى التى قام بها أمر العالم منذ خلقته ، والعذاب من أفعالى المترتبة على صفة العدل، ولولا الرحمة العامة المبذولة لكل أحد لهلك كل كافر وعاص عقب كفره وفجوره : « وَلَوْ يُؤَاخِذُ اللَّهُ النَّاسَ بِمَا كَسَبُوا مَا تَرَكَ عَلَى ظَهْرِهَا مِنْ دَابَّةٍ » .

ثم ذكر من ستكتب لهم الرحمة فقال :

(فسأكتبها للذين يتقون ويؤتون الزكاة والذين هم بآياتنا يؤمنون) أى فأثبت رحمتى بمشيئتى للذين يتقون الكفر والمعاصى ويؤتون الصدقة التى تتزكى بها أنفسهم، وخص الزكاة بالذكر دون ما عداها من الطاعات ، لأن النفوس شحيحة ففتنته تقتضى أن يكون المانعون للزكاة أكثر من التاركين غيرها من الطاعات ، كما أن فى ذلك

إيماء إلى أن اليهود أشربوا فى قلوبهم حب المال وفتنوا بجمعه ومنع بذله فى سبيل الله،
كما أنى سأكتبها كِتْبة خاصة للذين يصدقون بجميع آياتنا التى تدل على توحيدنا
وصدق رسلنا تصديق إيقان مبنى على العلم الصحيح دون تقليد للآباء والأجداد .

(الذين يتبعون الرسول النبى الأمى) أى إن كتابة الرحمة كتابة خاصة لمن
يتصفون بالصفات الثلاث المتقدمة : وهم الذين يتبعون الرسول النبى الأمى وهو وصف
خاص بمحمد صلى الله عليه وسلم لايشاركه فيه غيره من النبيين . فالأمية آية من آيات
نبوته فهو مع أميته قد جاء بأعلى العلوم النافعة التى بها يصلح ما فسد من عقائد البشر
وأخلاقهم وآدابهم وأعمالهم ، فغير نظم البشر فى تلك الحِقْبة الطويلة وأثر فى حياة الأمم
التى حوله أكبر الأثر بما شهد له المنصفون فى كل الأديان .

وقد وصف الله ذلك الرسول الذى أوجب اتباعه على كل من أدركه من بنى
إسرائيل بصفات :

(١) إنه نبى أمى .

(٢) إنه هو (الذى يجدونه مكتوبا عندهم فى التوراة والإنجيل) أى يجد الذين
يتبعونه من بنى إسرائيل وصفه مكتوبا فى التوراة والإنجيل بحيث لايشكون أنه هو.
فقد جاء فى الباب الثالث والثلاثين من سفر التثنية : « جاء الرب من سينا
وأشرق لنا من ساعير واستعلى من جبال فاران ومعه ألوف الأطهار ، فى يمينه قبس
من نار » فمجيئه من سينا إعطاؤه التوراة لموسى عليه السلام ، وإشراقه من ساعير
إعطاؤه الإنجيل لعيسى عليه السلام ، واستعلاؤه من جبال فاران إنزاله القرآن لأن
فاران من جبال مكة .

وجاء فى الباب الخامس عشر من إنجيل يوحنا : « فأما إذا جاء الفارَقْليط الذى
أرسله أنا إليكم من الأب روح الحق الذى من الأب ينبثق فهو يشهد لى وأنتم
تشهدون لأنكم معى من الابتداء ـ والفارقليط بالعبرية معناه أحمد ـ كما قال تعالى
حكاية عن عيسى عليه السلام : « مُصَدِّقًا لِمَا بَيْنَ يَدَيَّ مِنَ التَّوْرَاةِ وَمُبَشِّرًا

بِرَسُولٍ يَأْتِي مِنْ بَعْدِي اسْمُهُ أَحْمَدُ » وجاء فى سفر التكوين : « فلا يزول القضيب من يهوذا والراسم من تحت أمره إلى أن يجىء الذى هو له و إليه تجتمع الشعوب » وفى هذا دلالة على مجىء محمد عليه السلام بعد تمام حكم موسى وعيسى، لأن المراد من الحاكم موسى لأنه ماجاء بعد يعقوب صاحب شريعة إلا هو ، والمراد من الراسم عيسى و بعدهما ما جاء صاحب شريعة إلا محمد عليه السلام .

وعلى الجملة ، فأهل الكتاب من اليهود والنصارى كانوا يتناقلون خبر بعثته صلى الله عليه وسلم فيما بينهم و يذكرون البشارات من كتبهم ، حتى إذا ما بعثه الله بالهدى ودين الحق آمن به كثيرون وكان علماؤهم يصرحون بذلك كعبد الله بن سلام وأصحابه من علماء اليهود وتميم الدارى من علماء النصارى وغيرهم من الذين أسلموا فى عصر النبي صلى الله عليه وسلم .

وأما الذين استكبروا فكانوا يكتمون البشارات به فى كتبهم و يؤولون كثيرا منها و يكتمونه عمن لم يطلع عليه ، وقد قيض الله عالما من علماء الهند يسمى الشيخ رحمة الله فى القرن الماضى فحقق هذه البشارات فى كتاب سماه : (إظهار الحق) وتناول به مسائل غاية فى الأهمية و يجدر بمن يريد التوسع فى هذه المسائل أن يطلع عليه وهو مطبوع متداول بين أيدى الناس .

(٣ ، ٤) إنه (يأمرهم بالمعروف و ينهاهم عن المنكر) أى لا يأمر إلا بالخير ولا ينهى إلا عن الشر كما قال عبد الله بن مسعود إذا سمعت الله يقول : « يأيها الذين آمنوا » فأرعها سمعك فإنه خير تؤمر به أو شر تنتهى عنه اهـ .

ومن أهم ما أمر به عبادة الله وحده لاشريك له ، ومن أهم ما نهى عنه عبادة ما سواه كما هو شأن جميع الرسل فى ذلك كما قال . « وَلَقَدْ بَعَثْنَا فِي كُلِّ أُمَّةٍ رَسُولاً أَنِ اعْبُدُوا اللَّهَ وَاجْتَنِبُوا الطَّاغُوتَ » .

(٥ ، ٦) إنه (يحل لهم الطيبات ويحرم عليهم الخبائث) أى إنه يحل لهم ما تستطيبه الأذواق من الأطعمة وفيه فائدة فى التغذية ، ويحرم عليهم ما تستقذره

النفوس : كالميتة والدم المسفوح وما يؤخذ من الأموال بغير حق كالربا والرشوة والغصب والخيانة .

(٧) إنه (يضع عنهم إصرهم والأغلال التى كانت عليهم) أى إنه يضع عنهم التكاليف الشاقة كاشتراط قتل الأنفس فى صحة التوبة والقصاص فى القتل العمد أو الخطأ من غير شرع الدية وقطع الأعضاء الخاطئة وقطع موضع النجاسة من الثوب وتحريم السبت .

وقال ابن كثير : أى إنه جاء بالتيسير والسماحة كما ورد فى الحديث : « بعثت بالحنيفية السمحة » وقال صلى الله عليه وسلم لأميريه معاذ بن جبل وأبى موسى الأشعرى لما بعثهما إلى اليمن : « بشروا ولا تنفروا ، ويسروا ولا تعسروا ، وتطاوعا ولا تختلفا » .

والخلاصة — إن بنى إسرائيل كانوا أخذوا بالشدة فى أحكام العبادات والمعاملات الشخصية والمدنية والعقوبات فكان مثلهم مثل من يحمل أثقالا يئط منها وهو موثق بالسلاسل والأغلال فى عنقه ويديه ورجليه ، وقد خفف المسيح عليه السلام عنهم بعض التخفيف فى الأمور المادية وشدد فى الأحكام الروحية إلى أن جاءت الشريعة الوسطى السمحة التى بعث بها خاتم الرسل محمد صلوات الله عليه .

ثم بين سبحانه وتعالى كيفية اتباعه عليه السلام وعلو مرتبة متبعيه واغتنامهم مغانم الرحمة فى الدارين إثر بيان نعوته الجليلة فقال :

(فالذين آمنوا به وعزروه ونصروه واتبعوا النور الذى أنزل معه أولئك هم المفلحون) أى إن الذين آمنوا بالرسول الأمى حين بعث — من قوم موسى ومن كل أمة ، وعزروه بأن منعوه وحموه من كل من يعاديه مع التعظيم والإجلال ، لا كما يحمون بعض ملوكهم مع الكره والاشمئزاز ، ونصروه باللسان والسنان ، واتبعوا النور الأعظم الذى أنزل مع رسالته وهو القرآن ، أولئك هم المفلحون الفائزون بالرحمة والرضوان دون سواهم من حزب الشيطان الذين خذلهم الله فى الدنيا والآخرة .

قُلْ يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِنِّى رَسُولُ اللهِ إِلَيْكُمْ جَمِيعاً الَّذِى لَهُ مُلْكُ السَّمٰوَاتِ وَالْأَرْضِ، لَا إِلٰهَ إِلَّا هُوَ يُحْيِي وَيُمِيتُ، فَآمِنُوا بِاللهِ وَرَسُولِهِ النَّبِيِّ الْأُمِّيِّ الَّذِى يُؤْمِنُ بِاللهِ وَكَلِمَاتِهِ وَاتَّبِعُوهُ لَعَلَّكُمْ تَهْتَدُونَ (١٥٨)

الإيضاح

بعد أن حكى عز اسمه مافى التوراة والإنجيل من نعوته صلى الله عليه وسلم وذكر شرف من يتبعه من أهلهما ونيلهما سعادة الدنيا والآخرة ـ قفى على ذلك ببيان عموم بعثته صلى الله عليه وسلم ودعوة الناس كافة إلى الإيمان به ؛ فقال :

(قل يأيها الناس إنى رسول الله إليكم جميعا) أى قل لجميع البشر من عرب وعجم إنى رسول الله إليكم كافة لا إلى قومى خاصة فهو بمعنى قوله تعالى : « وَمَا أَرْسَلْنَاكَ إِلَّا كَافَّةً لِلنَّاسِ بَشِيرًا وَنَذِيرًا » وقوله : « وَأُوحِيَ إِلَيَّ هَذَا الْقُرْآنُ لِأُنْذِرَكُمْ بِهِ وَمَنْ بَلَغَ » أى وأنذر به كل من بلغه من الثقلين وقوله : « وَمَا أَرْسَلْنَاكَ إِلَّا رَحْمَةً لِلْعَالَمِينَ » .

وجاءت أحاديث صحيحة ناطقة باختصاصه صلى الله عليه وسلم بالرسالة العامة كحديث جاء فى الصحيحين وغيرهما من قوله صلى الله عليه وسلم « أعطيت خمسا لم يعطهن أحد من الأنبياء قبلى : نصرت بالرعب مسيرة شهر وجعلت لى الأرض مسجدا وطهورا ، فأيما رجل من أمتى أدركته الصلاة فليصل ، وأحلت لى الغنائم ولم تحل لأحد قبلى ، وأعطيت لى الشفاعة ، وكان النبى يبعث إلى قومه خاصة ، و بعثت إلى الناس عامة » .

ثم وصف الله تعالى نفسه بتوحيد الربوبية وتوحيد الإلهية وبالإحياء والإماتة فقال :

(الذى له ملك السموات والأرض لا إله إلا هو يحيى و يميت) أى إن الله

الذى أنا رسوله هو من له التصرف فى السموات والأرض وتدبير العالم كله ، إذ وحدة النظام فى جملة المخلوقات وعدم التفاوت فيها دليل على وحدة مصدرها وتدبيرها ، فهو المعبود وحده لا إله إلا هو .

وتوحيد الربوبية بالإيمان ، وتوحيد الألوهية بالإيمان والعمل : أى بعبادة الله وحده - هما أصل الدين والركن الأول فى العقيدة . والركن الثانى الإيمان برسالة محمد صلى الله عليه وسلم ، والركن الثالث عقيدة البعث بعد الموت وهى تتضمن الإحياء والإماتة وتصرف الرب فى خلقه .

وقد بنى على تقرر هذه الأمور الثلاثة الدعوة إلى الإيمان فقال :

(فآمنوا بالله ورسوله النبى الأمى) أى فآمنوا أيها الناس جميعا بالله الواحد فى ربوبيته وألوهيته الذى يحيى كل ما تحله الحياة ويميت كل ما يعرض له الموت بعد الحياة ، وهذا أمر مشاهد كل يوم .

وآمنوا برسوله النبى الأمى الذى بعثه فى الأميين رسولا إلى الخلق أجمعين يعلمهم الكتاب والحكمة، ويطهرهم من خرافات الشرك والجهل والتفرق والتعادى ليكونوا بهدايته أمة واحدة يتحقق بها الإخاء البشرى العام ، وقد بشر بهذا النبى الأنبياء صلوات الله عليهم لأنه المتمم لما بعثوا به من هداية الناس .

(الذى يؤمن بالله وكلماته) أى يؤمن بتوحيد الله وكلماته التشريعية التى أنزلها لهداية خلقه على ألسنة رسله وهى مظهر علمه ورحمته ، وكلماته التكوينية التى هى مظهر إرادته وقوته وحكمته .

وبعد أن أمرهم سبحانه بالإيمان أمرهم بالإسلام فقال :

(واتبعوه لعلكم تهتدون) أى واسلكوا طريقه واقتفوا أثره فى كل ما يأتى وما يذر من أمور الدين رجاء اهتدائكم بالإيمان وباتباعه إلى ما فيه سعادتكم فى الدنيا والآخرة ، وتلك هى الثمرة التى تجنى منهما ، فما آمن قوم بنبى إلا كانوا بعد الإيمان

به خيرا مما كانوا قبله من العزة والكرامة فى دنياهم وسعادتهم فى الآخرة بنيل رضوان ربهم والحظوة بالقرب منه .

وليس من التشريع الذى يجب فيه امتثال الأمر واجتناب النهى ـ مالا تعلق له بحق الله ولا حق خلقه من جلب مصلحة أو دفع مفسدة كمسائل العادات والزراعات والصناعات والعلوم والفنون المبنية على التجارب ، وما جاء فيها من أمر ونهى فهو إرشاد لا تشريع ـ وقد ظن بعض الصحابة أن إنكار النبى صلى الله عليه وسلم لبعض الأمور الدنيوية المبنية على التجارب من قبيل التشريع كامتناعهم عن تلقيح النخل حين نهاهم عنه فأشاص : (أى خرج ثمره شيصا رديئا) فراجعوه فأخبرهم أن ما قاله كان عن ظن ورأى لا عن تشريع ووحى وقال لهم : (أنتم أعلم بأمور دنياكم) والحكمة فى ذلك تنبيه الناس إلى أن مثل هذه الأمور الدنيوية والمعاشية متروكة لمعارف الناس وتجاربهم .

وَمِنْ قَوْمِ مُوسَى أُمَّةٌ يَهْدُونَ بِالْحَقِّ وَبِهِ يَعْدِلُونَ (١٥٩)

المعنى الجملى

بعد أن بين عز اسمه كتابته للرحمة لمن يتبع محمدا صلى الله عليه وسلم من قوم موسى ووصفهم بأنهم هم المفلحون ـ ذكر هنا حال خواص أتباع موسى عليه السلام الذين كانوا متبعين له حق الاتباع وعطفهم على المهتدين باتباع خاتم النبيين صلى الله عليه وسلم .

الإيضاح

(ومن قوم موسى أمة يهدون بالحق وبه يعدلون) الأمة : الجماعة الكثيرة ، ويهدون : يرشدون ويدلون، والعدل الحكم بين الناس بالحق ـ يقال هو يقضى بالحق ويعدل وهو حكم عادل ؛ أى ومن قوم موسى جماعة عظيمة يهدون الناس بالحق

الذى جاءهم به من عند الله ويعدلون به دون غيره إذا حكموا بين الناس ، فلا يتبعون هوى ولا يأكلون سحتا ولا رشى ، وهؤلاء من كانوا فى عصر موسى وممن بعد عصره حتى بعد ما ضاع أصل التوراة ووجدت النسخ المحرفة بعد السبى ، فإن الأمم الكبيرة لاتخلو من أهل الحق والعدل .

ونحو الآية قوله : « وَمِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ مَنْ إِنْ تَأْمَنْهُ بِقِنْطَارٍ يُؤَدِّهِ إِلَيْكَ وَمِنْهُمْ مَنْ إِنْ تَأْمَنْهُ بِدِينَارٍ لاَ يُؤَدِّهِ إِلَيْكَ إِلاَّ مَا دُمْتَ عَلَيْهِ قَائِمًا » .

وقد ورد فى خيار أهل الكتاب ثلاثة أنواع من الآيات :

(١) ما كان منها صريحا فى الذين أدركوا النبى صلى الله عليه وسلم وآمنوا به كقوله فى سورة البقرة : « الَّذِينَ آتَيْنَاهُمُ الْكِتَابَ يَتْلُونَهُ حَقَّ تِلاَوَتِهِ أُولَئِكَ يُؤْمِنُونَ بِهِ » .

(٢) ما كان صريحا فى الذين كانوا فى عهد موسى عليه السلام واتبعوه أواتبعوا من بعده من أنبيائهم إلى عهد البعثة العامة قبل بلوغ دعوتها كالآية التى نحن نفسرها .

(٣) ما كان محتملا للقسمين كقوله (من أهل الكتاب أمة قائمة يتلون آيات الله آناء الليل وهم يسجدون) .

وَقَطَّعْنَاهُمُ اثْنَتَيْ عَشْرَةَ أَسْبَاطاً أُمَماً ، وَأَوْحَيْنَا إِلَى مُوسَى إِذِ اسْتَسْقَاهُ قَوْمُهُ أَنِ اضْرِبْ بِعَصَاكَ الْحَجَرَ فَانْبَجَسَتْ مِنْهُ اثْنَتَا عَشْرَةَ عَيْنًا ، قَدْ عَلِمَ كُلُّ أُنَاسٍ مَشْرَبَهُمْ ، وَظَلَّلْنَا عَلَيْهِمُ الْغَمَامَ وَأَنْزَلْنَا عَلَيْهِمُ الْمَنَّ وَالسَّلْوَى ، كُلُوا مِنْ طَيِّبَاتِ مَا رَزَقْنَاكُمْ وَمَا ظَلَمُونَا وَلَكِنْ كَانُوا أَنْفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ (١٦٠)

شرح المفردات

قطعناهم أى صيرناهم قطعا وفرقا كل فرقة منها سبط ، والسبط : ولد الولد مطلقا، وقد يخص بولد البنت، وأسباط بنى إسرائيل سلائل أولاده العشرة : أى ماعدا لاوى

وسلائل ولدى ابنه يوسف وهما إفرايم ومنسى ، إذ سلائل لاوى نيطت بها خدمة الدين فى جميع الأسباط ولم تجعل سبطا مستقلا ، والأمة : الجماعة التى تؤلف بين أفرادها رابطة خاصة أو مصلحة واحدة أو نظام واحد ، والاستسقاء : طلب الماء للسقيا ، والانبجاس والانفجار واحد، يقال: بجسه فانبجس وبجّسه فتبجّس كما يقال فجره : أى شقه فانفجر ، وقال الراغب الانبجاس أكثر ما يقال فيما يخرج من شىء ضيق ، والانفجار يستعمل فيه وفيما يخرج من شىء واسع ، والغمام : السحاب مطلقا أو الأبيض منه أو الرقيق ، والمن مادة بيضاء تنزل من السماء كالطلّ حلوة الطعم شبيهة بالعسل وإذا جفت كانت كالصمغ ، والسلوى : طير يشبه السُّمَّانى (السمان) لكنه أكبر منه .

المعنى الجملى

ذكر سبحانه فى هذه الآية حالين من أحوال بنى إسرائيل ، أولاهما : أنه قسمهم ثنتى عشرة فرقة بعدد أسباطهم الاثنى عشر ، ثانيتهما : أنهم لما استسقوا موسى ضرب الحجر فانبجس منه اثنتا عشرة عينا بقدر عدد الأسباط وقد تقدم ذكر هاتين الواقعتين فى سورة البقرة .

الإيضاح

(وقطعناهم اثنتى عشرة أسباطا أمما) أى وفرقنا قوم موسى الذين كان منهم أمة يهدون بالحق وبه يعدلون ومنهم الظالمون والفاسقون فجعلناهم اثنتى عشرة فرقة تسمى أسباطا : أى أمما وجماعات يمتاز كل منهم بنظام خاص فى معيشته وبعض شئونه .

(وأوحينا إلى موسى إذ استسقاه قومه أن اضرب بعصاك الحجر فانبجست منه اثنتا عشرة عينا) أى وأوحينا إلى موسى حين استسقاه قومه فاستسقى ربه لهم - أن اضرب بعصاك الحجر فضربه فنبعت منه عقب ضربه إياه اثنتا عشرة عينا من الماء بقدر عدد أسباطهم ، وخص كل واحد بعين منها للزحام وحفظا للنظام، وفى سفر

العدد من التوراة أن عدد الرجال الصالحين للحرب من بنى إسرائيل كان يزيد على ستمائة ألف من ابن عشرين فما فوق وعلى هـذا فيكون عددهم جميعا يزيد على ألفى ألف (مليونين) وابن خلدون قال فى مقدمته : إن هذا العدد لايتصور بقاؤه فى صحراء مجدبة قليلة المياه بحال فلاينبغى للمؤرخين اعتماد هذا ، كذلك ما ورد من حجم الحجر وشكله ككون رأسه كرأس الشاة أو أكبر وكونه يوضع فى الجوالق أو يحمل على ثور أو حمار فكل ذلك من الخرافات الإسرائيلية التى تلقاها المفسرون بالقبول على غرابتها .

(وظللنا عليهم الغمام) أى وسخرنا لهم الغمام يلقى عليهم ظله فيقيهم لفح الشمس من حيث لايحرمون فائدة نورها وحرها المعتدل ، ولولا السحاب فى التيه لأحرقتهم حرارة الشمس إذ لم يكن هناك من الشجر ما يستظلون به .

(وأنزلنا عليهم المن والسلوى) فسهلنا عليهم الطعام والشراب على أحسن الوجوه وكان المنّ يقوم مقام الخبز عندهم ويكفى الألوف من الناس ، وتقوم السُّمَانَى مقام اللحوم والطيور الأخرى .

(كلوا من طيبات ما رزقناكم) أى وأنزلنا عليهم ما ذكر قائلين لهم كلوا من طيبات ما رزقناكم ، وفى ذلك تنبيه وتذكير بما كان يجب عليهم من شكر هذه النعم .

(وما ظلمونا ولكن كانوا أنفسهم يظلمون) أى وما ظلمونا بكفرهم بهذه النعم ، بل ظلموا أنفسهم وأضروها بهذا الجحود والإنكار، وقدكان ذلك من دأبهم وعادتهم آنا بعد آن ، وقد جاء فى الحديث القدسى الذى رواه مسلم عن أبى ذر مرفوعا «ياعبادى إنى حرمت الظلم على نفسى وجعلته بينكم محرما فلا تَظالموا ، يا عبادى إنكم لن تبلغوا ضرى فتضرونى ولن تبلغوا نفعى فتنفعونى » .

ولا شك أن من ظلم نفسه كان لغيره أظلم ، وإن كان ظلمه لنفسه مما يجهل أنه ظلم لها ، إذ يتجلى له فى صورة المنفعة وإنما تكون عاقبته مضرة ، وهكذا الحال فى جميع

الظالمين والمجرمين فهم يظنون أنهم بظلمهم وإجرامهم ينفعون أنفسهم جهلا منهم للعواقب وقلة تدبر ما ينبغى أن يتفطن له .

وَإِذْ قِيلَ لَهُمُ اسْكُنُوا هَذِهِ الْقَرْيَةَ وَكُلُوا مِنْهَا حَيْثُ شِئْتُمْ وَقُولُوا حِطَّةٌ وَادْخُلُوا الْبَابَ سُجَّدًا نَغْفِرْ لَكُمْ خَطِيئَاتِكُمْ سَنَزِيدُ الْمُحْسِنِينَ (١٦١) فَبَدَّلَ الَّذِينَ ظَلَمُوا مِنْهُمْ قَوْلاً غَيْرَ الَّذِى قِيلَ لَهُمْ فَأَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ رِجْزًا مِنَ السَّمَاءِ بِمَا كَانُوا يَظْلِمُونَ (١٦٢) .

الإيضاح

تقدم مثل هاتين الآيتين فى سورة البقرة غير أن بين الموضعين فروقا :

(١) إنه قال هنا : اسكنوا القرية ، وفى سورة البقرة : «ادْخُلُوا» والفائدة هنا أتم ، لأن السكنى تستلزم الدخول دون العكس .

(٢) إنه قال هنا : (وكلوا منها حيث شئتم) وفى سورة البقرة « فَكُلُوا مِنْهَا حَيْثُ شِئْتُمْ رَغَدًا » ، فجاء العطف هناك بالفاء لأن بدء الأكل يكون عقب الدخول كأكل الثمرات والفواكه التى تكون فى كل ناحية من القرية ـ أما السكنى فأمر ممتد يكون الأكل فى أثنائه لاعقبه ، كما وصف هناك الأكل بالرغد وهو : الواسع الهنىء لأن الأكل فى أول الدخول يكون ألذ و بعد السكنى والإقامة لايكون كذلك .

(٣) إنه قال هنا : (وقولوا حطة وادخلوا الباب سجدا) وقدم هنا ما أخر هناك وأخر ما قدمه ، والواو لا تدل على طلب ترتيب بين الأمرين ، فالاختلاف فى التعبير دال على عدم الفرق بين تقديم هـذا وتأخير ذاك و بين عكسه إذ لا فارق بين أن يدعوا بقولهم : (حطة) أى حط عنا أوزارنا وخطايانا الذى هو بمعنى قولنا اللهم غفرا ـ

فى حال التلبس بالتواضع والخضوع وتنكيس الرءوس شكرا لله على نعمه عند دخول القرية، و بين أن يبدءوا بتنكيس الرءوس والخضوع والتواضع ثم يدعوا بقولهم (حطة) .

(٤) إنه قال هنا : (سنزيد المحسنين) بدون واو ، وهناك : «وَسَنَزِيدُ الْمُحْسِنِينَ» بالعطف والمعنى واحد وترك الواو أدل على أن الزيادة تفضل من الله ليست مشاركة للمغفرة فيما جعل سببا لها من الخضوع والسجود والاستغفار والدعاء بحط الأوزار .

(٥) إنه قال هاهنا : (فبدل الذين ظلموا منهم قولا غير الذى قيل لهم) فزيد منهم على مثله فى سورة البقرة .

ومعنى تبديلهم قولا غير الذى قيل لهم : أنهم عصوا بالقول والفعل وخالفوا الأمر مخالفة تامة لا تحتمل اجتهادا ولا تأويلا فلم يراعوا ظاهر مدلول اللفظ ولا الفحوى والمقصد منه ، حتى كأن المطلوب منه غير الذى قيل لهم .

وما روى فى الإسرائيليات من هذا التبديل من الألفاظ العبرانية أو العربية — فلا ثقة به ، و إن خرّج بعضه فى الصحيح والسنن موقوفا ومرفوعا كحديث أبى هريرة فى الصحيحين وغيرهما — قيل لبنى إسرائيل : (ادخلوا الباب سجدا وقولوا حطة فدخلوا يزحفون على أستاههم وقالوا : (حطة) حبة فى شعيرة إذ هو مروى من طريق همام بن منبه أخى وهب وهما صاحبا الغرائب فى الإسرائيليات ، وأبو هريرة لم يصرح بسماعه من النبى صلى الله عليه وسلم فيحتمل أنه سمعه من كعب الأحبار إذ ثبت أنه روى عنه .

(٦) إنه قال هنا : (فأرسلنا عليهم رجزا من السماء بما كانوا يظلمون) وقال هناك « وَأَنْزَلْنَا عَلَى الَّذِينَ ظَلَمُوا رِجْزًا مِنَ السَّمَاءِ بِمَا كَانُوا يَفْسُقُونَ » فالاختلاف بين الإنزال والإرسال وهو خلاف لفظى ، و بين عليهم وعلى الذين ظلموا ، و بين يظلمون و يفسقون ، وفائدته بيان أنهم كانوا يجمعون بين الظلم الذى هو نقص للحق أو إيذاء للنفس أو للغير ، والفسق الذى هو الخروج عن الطاعة ، والرجز كما تقدم العذاب الذى تضطرب له القلوب أو يضطرب له الناس فى شئونهم ومعايشهم .

والعبرة فى هـذا القصص أن نعلم أن الله يعاقب الأمم على ذنوبها فى الدنيا قبل أن يعذبها فى الآخرة ، وأن نبتعد بقدر الطاقة عن الظلم والفسق ، فقد عاقب الله بنى إسرائيل بظلمهم ولم يحل دون عقابه ما كان لهم من فضائل ومزايا ككثرة الأنبياء فيهم وتفضيلهم على العالمين كما تقدم .

وَاسْأَلْهُمْ عَنِ الْقَرْيَةِ الَّتِي كَانَتْ حَاضِرَةَ الْبَحْرِ إِذْ يَعْدُونَ فِي السَّبْتِ إِذْ تَأْتِيهِمْ حِيتَانُهُمْ يَوْمَ سَبْتِهِمْ شُرَّعًا وَيَوْمَ لَا يَسْبِتُونَ لَا تَأْتِيهِمْ ، كَذَلِكَ نَبْلُوهُمْ بِمَا كَانُوا يَفْسُقُونَ (١٦٣) وَإِذْ قَالَتْ أُمَّةٌ مِنْهُمْ لِمَ تَعِظُونَ قَوْمًا اللَّهُ مُهْلِكُهُمْ أَوْ مُعَذِّبُهُمْ عَذَابًا شَدِيدًا ؟ قَالُوا مَعْذِرَةً إِلَى رَبِّكُمْ وَلَعَلَّهُمْ يَتَّقُونَ (١٦٤) فَلَمَّا نَسُوا مَا ذُكِّرُوا بِهِ أَنْجَيْنَا الَّذِينَ يَنْهَوْنَ عَنِ السُّوءِ وَأَخَذْنَا الَّذِينَ ظَلَمُوا بِعَذَابٍ بَئِيسٍ بِمَا كَانُوا يَفْسُقُونَ (١٦٥) فَلَمَّا عَتَوْا عَنْ مَا نُهُوا عَنْهُ قُلْنَا لَهُمْ كُونُوا قِرَدَةً خَاسِئِينَ (١٦٦) .

شرح المفردات

القرية : هى أَيْـلَة، وقيل مدين، وقيل طبرية، والعرب تسمى المدينة قرية، حاضرة البحر : أى قريبة منه على شاطئه ، ويعدون فى السبت : أى يتجاوزون حكم الله بالصيد المحرم عليهم فيه ، وحيتانهم : سمكهم ، ويوم سبتهم : أى تعظيمهم للسبت يقال سبتت اليهود تسبت إذا عظمت السبت بترك العمل فيـه وتخصيصه للعبادة ، وشرّعا : واحدها شارع كركع وراكع : أى ظاهرة على وجه الماء ، ونبلوهم : نختبرهم ، وأمة منهم : أى جماعة منهم ، والمعذرة : بمعنى العذر وهو التنصل من الذنب ، فمعنى معذرة إلى ربكم : قيام منا بعذر أنفسنا إلى الله تعالى ، ونسوا ما ذكروا به :

أى تركوه ترك الناسى وأعرضوا عنه إعراضا تاما ، والسوء : العمل الذى تسوء عاقبته ، والبئيس : الشديد من البأس وهو الشدة ، أو من البؤس وهو المكروه أو الفقر ، والعتو : الإباء والعصيان ، وخاسئين : أى أذلاء صاغرين .

المعنى الجملى

قد ذكرت هذه القصة فى سورة البقرة إجمالا وها هنا ذكرت تفصيلا إذ كانت سورة الأعراف نزلت بمكة فى أوائل الإسلام ولم يكن النبى صلى الله عليه وسلم لقى أحدا من اليهود وقد كان أميا لايقرأ كتابا كما قال تعالى : « وَمَا كُنْتَ تَتْلُو مِنْ قَبْلِهِ مِنْ كِتَابٍ وَلاَ تَخُطُّهُ بِيَمِينِكَ إِذًا لاَرْتَابَ الْمُبْطِلُونَ » فكان ذلك أدل على الإعجاز .

الإيضاح

(واسألهم عن القرية التى كانت حاضرة البحر) الخطاب للنبى صلى الله عليه وسلم والسؤال للتقرير المتضمن للتقريع والتوبيخ وبيان أن كفر أهل الكتاب بمحمد صلى الله عليه وسلم وبمعجزاته ليس بدعا جديدا منهم ، فإن أسلافهم أقدموا على هذا الذنب القبيح والمعصية الفاحشة واعتدوا هذا الاعتداء الشائن الذى قص الله خبره .

والمعنى — واسأل بنى إسرائيل عن أهل المدينة التى كانت قريبة من البحر راكبة على شاطئه .

(إذ يعدون فى السبت) أى اسألهم عن حالهم حين كانوا يعتدون فى السبت ويجاوزون حكم الله بالصيد فيه وقد نهوا عنه .

(إذ تأتيهم حيتانهم يوم سبتهم شرعا) أى يأتيهم السمك ظاهرا على وجه الماء يوم تعظيمهم للسبت بترك العمل والتفرغ للعبادة فيه ابتلاء من الله واختبارا لهم .

(ويوم لايسبتون لاتأتيهم) أى لا تأتيهم يوم لايسبتون كما كانت تأتيهم يوم

السبت حذرا من صيدهم لاعتيادها أحوالهم : قيل إنها اعتادت ألا يتعرض أحد لصيدها يوم السبت فأمنت وصارت تظهر فيـه وتخفى فى الأيام التى لايسبتون فيها لما اعتادت من اصطيادها فيها ، فلما رأوا ظهورها وكثرتها فى يوم السبت أغراهم ذلك بالاحتيال على صيدها فيه .

(كذلك نبلوهم بما كانوا يفسقون) أى مثل هذا البلاء بظهور السمك يوم السبت نبتليهم ونعاملهم معاملة المختبر لحال من يراد إظهار حاله ليترتب الجزاء على عمله بسبب فسقهم المستمر على أمر ربهم واعتدائهم حدود شرعه ، فقد جرت سنة الله بأن من أطاعه سهل له أمور الدنيا وأجزل له الثواب فى الآخرة ، ومن عصاه : ابتلاه بأنواع المحن والبلاء .

(وإذ قالت أمة منهم لم تعظون قوما الله مهلـكهم أو معذبهم عذابا شديدا ؟) أى واسألهم عن حال أهل تلك القرية حين قالت جماعة منهم هذه المقالة ، وفى ذلك دلالة على أن الذين كانوا يعدون فى السبت بعض أهل القرية لاجميعهم وأن أهلها كانوا فرقا ثلاثا :

(١) فرقة العادين فى السبت التى أشير إليها فى الآية الأولى .

(٢) فرقة الواعظين لهؤلاء العادين لينتهوا عن عدوانهم ويكفوا عنه .

(٣) فرقة اللائمين للواعظين التى قالت لهم : لم تعظون قوما قد قضى الله عليهم بالهلاك بالاستئصال أو بعذاب شديد دون الاستئصال ، أو المراد مهلـكهم فى الدنيا ومعذبهم فى الآخرة .

(قالوا معذرة إلى ربكم ولعلهم يتقون) أى قال الواعظون للائمين لهم : نعظكم عظة اعتذار نعتذر بها إلى ربكم عن السكوت على المنكر ، فإذا طولبنا بإقامة فريضة النهى عن المنكر قلنا قد فعلنا فنكون بذلك معذورين ــ إلى أنا نرجو أن ينتفعوا بالموعظة فيحملهم ذلك على اتقاء الاعتداء الذى اقترفوه ، إذ نحن لم نيأس من رجوعهم إلى الحق كما أنتم منهم يائسون .

(فلما نسوا ما ذكروا به) أى إنهم لما تركوا ما ذكّرهم به الصالحون وأعرضوا عنه حتى صار كالمنسى فى كونه لا تأثير له .

(أنجينا الذين ينهون عن السوء) أى أنجينا الذين ينهون عن العمل السيء وهما الفريقان الآخران .

(وأخذنا الذين ظلموا بعذاب بئيس بما كانوا يفسقون) أى وأخذنا الذين ظلموا أنفسهم بشديد العذاب بسبب تماديهم فى الفسق حتى صار ديدنهم وهِجِّيراهم .

والخلاصة — إنه لما ذكر المذكرون ولم يتذكر المعتدون أنجينا الأولين وأخذنا الآخرين .

وقد جرت سنة الله بألا يؤاخذ كل ظالم فى الدنيا بكل ما يقع منه من ظلم ولو كان قليلا فى الصفة أو العدد كما يدل على ذلك قوله : « وَلَوْ يُؤَاخِذُ اللهُ النَّاسَ بِمَا كَسَبُوا مَا تَرَكَ عَلَى ظَهْرِهَا مِنْ دَابَّةٍ » وقوله : « وَيَعْفُو عَنْ كَثِيرٍ » ولكنه يؤاخذ الأمم والشعوب فى الدنيا قبل الآخرة بما يقع منها من ظلم يظهر أثره بالاستمرار عليه كما قال : « وَاتَّقُوا فِتْنَةً لَا تُصِيبَنَّ الَّذِينَ ظَلَمُوا مِنْكُمْ خَاصَّةً » كما عاقب الله بنى إسرائيل كافة بتنكيل البابليين ثم النصارى بهم وسلبهم ملكهم حين عم فسقهم ولم يدفع ذلك وجود بعض الصالحين فيهم .

وعلى الجملة فالآية صريحة فى هلاك الظالمين الفاسقين ونجاة الصالحين الذين نهوهم عن عمل السوء وارتكاب المنكر ، وسكت عن الفرقة التى أنكرت على الواعظين وعظهم وإنكارهم ، وهى ناجية أيضا لأنها كانت منكرة للمنكر مستقبحة له بدليل أنها لم تفعله ، وإنما لم تنه عنه ليأسها من فائدة النهى واعتقادها أن القوم قد استحقوا عقاب الله بإصرارهم على الفسق فلا يفيدهم الوعظ وهذا رأى ابن عباس .

(فلما عتوا عما نهوا عنه قلنا لهم كونوا قردة خاسئين) أى فلما تمردوا وتكبروا وأبوا أن يتركوا ما نهاهم عنه الواعظون قلنا لهم كونوا قردة صاغرين أذلاء بعداء عن الناس : أى تعلقت إرادتنا بأن يكونوا كذلك .

وفى الآية إيماء إلى أن هذا المسخ لم يكن لخصوص الحوت بل لمخالفتهم الأوامر وتماديهم فى العصيان وهـذا الجزاء تفصيل للعذاب البئيس الذى فى الآية السالفة ، وقيل إنه عذاب آخر فقد عاقبهم الله أولا بالبؤس والشقاء فى المعيشة ، إذ من الناس من لا يربيه ولا يهذبه إلا الشدة والبؤس، ولما لم يزدهم البؤس إلا عتوا وإصرارا على الفسق والظلم مسخهم الله مسخ خَلْق وجسم فكانوا قردة على الحقيقة وهـذا ما يراه جمهرة العلماء أو مسخ خُلُق ونفس فكانوا كالقردة فى الطيش والشر والإفساد لما تصل إليه أيديهم وهذا رأى مجاهد قال : مسخت قلوبهم فلم يوفقوا لفهم الحق .

وَإِذْ تَأَذَّنَ رَبُّكَ لَيَبْعَثَنَّ عَلَيْهِمْ إِلَى يَوْمِ الْقِيَامَةِ مَنْ يَسُومُهُمْ سُوءَ الْعَذَابِ، إِنَّ رَبَّكَ لَسَرِيعُ الْعِقَابِ، وَإِنَّهُ لَغَفُورٌ رَحِيمٌ (١٦٧) وَقَطَّعْنَاهُمْ فِي الْأَرْضِ أُمَمًا، مِنْهُمُ الصَّالِحُونَ وَمِنْهُمْ دُونَ ذَٰلِكَ، وَبَلَوْنَاهُمْ بِالْحَسَنَاتِ وَالسَّيِّئَاتِ لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ (١٦٨) فَخَلَفَ مِنْ بَعْدِهِمْ خَلْفٌ وَرِثُوا الْكِتَابَ يَأْخُذُونَ عَرَضَ هَٰذَا الْأَدْنَى وَيَقُولُونَ سَيُغْفَرُ لَنَا، وَإِنْ يَأْتِهِمْ عَرَضٌ مِثْلُهُ يَأْخُذُوهُ، أَلَمْ يُؤْخَذْ عَلَيْهِمْ مِيثَاقُ الْكِتَابِ أَلَّا يَقُولُوا عَلَى اللَّهِ إِلَّا الْحَقَّ وَدَرَسُوا مَا فِيهِ ، وَالدَّارُ الْآخِرَةُ خَيْرٌ لِلَّذِينَ يَتَّقُونَ، أَفَلَا تَعْقِلُونَ (١٦٩) وَالَّذِينَ يُمَسِّكُونَ بِالْكِتَابِ وَأَقَامُوا الصَّلَاةَ إِنَّا لَا نُضِيعُ أَجْرَ الْمُصْلِحِينَ (١٧٠) وَإِذْ نَتَقْنَا الْجَبَلَ فَوْقَهُمْ كَأَنَّهُ ظُلَّةٌ وَظَنُّوا أَنَّهُ وَاقِعٌ بِهِمْ، خُذُوا مَا آتَيْنَاكُمْ بِقُوَّةٍ وَاذْكُرُوا مَا فِيهِ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ (١٧١)

شرح المفردات

قال سيبويه: آذن: أعلم، وأذَّن: نادى وصاح للإعلام ومنه « فَأَذَّنَ مُؤَذِّنٌ بَيْنَهُمْ » ومثله تأذن ، ليبعثن : أى ليسلطن ، ويسومهم : يذيقهم ويوليهم ، وقطعناهم : فرقناهم

أمما : أى جماعات ، دون ذلك : أى منحطون عنهم ، و بلوناهم : امتحناهم ، والحسنات : النعم ، والسيئات : النقم ، والخلف : (بسكون اللام) يستعمل فى الأشرار (وبالتحريك) فى الأخيار ، والكتاب : التوراة ، والعرض (بالتحريك) متاع الدنيا وحطامها ، والأدنى : أى الشىء الأدنى والمراد به الدنيا ، ودرسوا ما فيه : أى قرءوه فهم ذاكرون له ، و يمسكون : أى يتمسكون به و يعملون ، ونتقنا الجبل : أى رفعناه كما روى عن ابن عباس ، أو زلزلناه وهو مرفوع ، يقال نتق السقاء : إذا هزه ونفضه ليخرج منه الزبد ، أو اقتلعناه كما هو رأى كثير من العلماء ، والظلة : كل ما أظلك من سقف بيت أو سماء أو جناح طائر والجمع ظلل وظلال .

المعنى الجملى

بعد أن بين الله تعالى قبائح طائفة من اليهود وذكر عقابهم على ذلك بالمسخ قردة ــ ذكر هنا أنه كتب على اليهود جميعا الذلة والصغار إلى يوم القيامة عقابا لهم على أفعالهم ، وهذه سنة الله فى عقاب الأمم التى تفسق عن أمره وتخالف أوامر دينه ، وهى كما تنطبق على اليهود تنطبق على غيرهم من الأمم التى لا ترعوى عن غيها ، بل تمادى فى فجورها وطغيانها وتسير قُدُما فى غوايتها وضلالها .

الإيضاح

(و إذ تأذن ربك ليبعثن عليهم إلى يوم القيامة من يسومهم سوء العذاب) أى واذكر أيها الرسول إذ أعلم ربك هؤلاء القوم مرة إثر أخرى أنه قضى عليهم فى علمه وفقا لما قام عليه نظام الاجتماع ، ليسلطن عليهم إلى يوم القيامة من يوقع بهم العقاب الشديد على ظلمهم وفسقهم وفسادهم فى الأرض ، والآية بمعنى قوله فى سورة الإسراء : « وَقَضَيْنَا إِلَى بَنِي إِسْرَائِيلَ فِي الْكِتَابِ لَتُفْسِدُنَّ فِي الْأَرْضِ مَرَّتَيْنِ وَلَتَعْلُنَّ عُلُوًّا كَبِيرًا » إلى أن قال : « وَإِنْ عُدْتُمْ عُدْنَا » أى و إن عدتم بعد عقاب

المرة الآخرة إلى الإفساد عدنا إلى التعذيب والإذلال ، وقد عادوا فسلط الله عليهم النصارى فسلبوا ملكهم الذى أقاموه بعد أن نجوا من سبى البابليين وقهرهم واستذلالهم ـ إلى أن جاء الإسلام، فعاداه منهم الذين هربوا من الذل والنكال وجئوا إلى بلاد العرب فعاشوا فيها آمنين أعزاء لكنهم نكثوا العهد الذى أعطوه للنبى صلى الله عليه وسلم وبه أمّنهم على أنفسهم وأموالهم وحرية دينهم فنصروا المشركين عليه فسلطه الله عليهم فقاتلهم ونصره عليهم فأجلى بعضهم وقتل بعضا وأجلى عمر البقية الباقية منهم إلى سورية ، ولما فتحها انتقل اليهود من حكم الروم الجائر إلى سلطة الإسلام العادلة ولكنهم فقدوا الملك والاستقلال فى جميع الحالات .

(إن ربك لسريع العقاب) أى إن الله سريع العقاب للأمم التى تفسق عن أمره وتفسد فى الأرض فلا يتخلف عقابه عنها كما يتخلف عن بعض الأفراد ، يؤيد هذا قوله : « وَإِذَا أَرَدْنَا أَنْ نُهْلِكَ قَرْيَةً أَمَرْنَا مُتْرَفِيهَا فَفَسَقُوا فِيهَا فَحَقَّ عَلَيْهَا الْقَوْلُ فَدَمَّرْنَاهَا تَدْمِيرًا » أى وإذا أردنا هلاك قرية من القرى أمرنا سادتها وكبراءها بالحق والعدل والرحمة فعصوا أمر ربهم وأفسدوا وظلموا فى الأرض فحق عليهم القول بمقتضى سنته فى خلقه فحل بهم الهلاك وحاق بهم النكال جزاء بما كانوا يعملون .

(وإنه لغفور رحيم) لمن أقلع عن ذنبه وأناب إلى ربه وأصلح ما كان قد أفسد فى الأرض قبل أن يحل به عذاب الله ، والآية بمعنى قوله : « وَإِنِّى لَغَفَّارٌ لِمَنْ تَابَ وَآمَنَ وَعَمِلَ صَالِحًا ثُمَّ اهْتَدَى » .

وقلما ذكر عذاب الفاسقين إلا قرنه بذكر الرحمة والمغفرة للمحسنين حتى لا ييأس صالح مصلح من رحمة ربه بذنب عمله بجهالة ، ولا يأمن مفسد من عقابه اغترارا بعفوه وكرمه وهو مصرّ على ذنبه .

وقد فصل سبحانه عقابهم فذكر بدء إذلالهم بإزالة وحدتهم وتمزيق جامعتهم فقال :

(وقطعناهم فى الأرض أمما) أى وفرقنا بنى إسرائيل فى الأرض وجعلنا كل فرقة منهم فى قطر من أقطارها فلا يخلو منهم قطر وليس لهم شوكة ولا دولة ، وهذا من معجزات الكتاب الكريم .

(منهم الصالحون ومنهم دون ذلك) أى منهم الصالحون كالذين نهوا من اعتدوا فى السبت عن ظلمهم ، والذين كانوا يؤمنون بالأنبياء من بعد موسى ، والذين آمنوا بمحمد عليه السلام ، ومنهم من دونهم فى الصلاح لم يبلغوا مبلغهم ، ومن أولئك الغلاة فى الكفر والفسق كالذين كانوا يقتلون النبيين بغير حق، ومنهم السماعون للكذب الأكالون للسحت والرشا لتبديل الأحكام والقضاء بغير ما أنزل الله كما هو شأن الأمم فإنها تفسد تدريجا لا دفعة واحدة كما نشاهد ذلك فى المسلمين .

(و بلوناهم بالحسنات والسيئات لعلهم يرجعون) أى وامتحناهم واختبرنا استعدادهم بالنعم التى تحسن فى عيونهم وتقربها أفئدتهم ، و بالنقم التى تسوءهم و إن كانت قد تحسن بالصبر عاقبتها لديهم رجاء أن يرجعوا عن ذنبهم و ينيبوا إلى ربهم فيعود إليهم فضله ورحمته .

(فخلف من بعدهم خلف ورثوا الكتاب يأخذون عرض هذا الأدنى و يقولون سيغفر لنا وإن يأتهم عرض مثله يأخذوه) أى نبتت من أولئك الذين منهم الصالح والطالح نابتة ورثوا التوراة : أى وقفوا على مافيها وكانوا عالمين بأحكامها بعد أسلافهم والحال أنهم يؤثرون حطام الدنيا ومتاعها بما يأكلونه من السحت والرشا والاتجار بالدين والمحاباة فى الحكم ، ويقولون سيغفر لنا ولا يؤاخذنا بما فعلنا فإننا أبناء الله وأحباؤه وسلائل أنبيائه وشعبه الذى اصطفاه من سائر البشر إلى نحو ذلك من الأمانى والأضاليل وهم والغون فى خطاياهم مصرون على ذنوبهم ، فإن يأتهم عرض آخر مثل الذى أخذوه أولا بالباطل يأخذوه ولايتعففوا عنه ــ وهم يعلمون أن الله إنما وعد بالمغفرة التائبين الذين يقلعون عن ذنبهم ندما وخوفا من ربهم و يصلحون ما كانوا قد أفسدوا .

ثم رد الله عليهم ما زعموه بقولهم : سيغفر لنا ، وهم مقيمون على ظلمهم وفسادهم وحبهم للدنيا فقال :

(ألم يؤخذ عليهم ميثاق الكتاب ألا يقولوا على الله إلا الحق ودرسوا مافيه) أى قد أخذ الله العهد والميثاق عليهم فى كتابه ألا يقولوا عليه غير الحق الذى بينه فيه ، فمنعهم من تحريفه وتغيير الشرائع لأجل أخذ الرشا وهم قد درسوا الكتاب وفهموا ما فيه فهم ذاكرون لما أخذ عليهم من تحريم أكل أموال الناس بالباطل والكذب على الله إلى نحو أولئك .

(والدار الآخرة خير للذين يتقون أفلا تعقلون) أى والدار الآخرة وما أعد الله فيها من نعيم للذين يتقون المعاصى ما ظهر منها وما بطن ــ خير من حطام الدنيا الفانى الذى يؤخذ بالرشا والسحت وغير ذلك ، أفلا تعقلون ذلك وهو واضح لا يخفى على كل ذى عقل لم تطمسه الشهوات ولم يغم بصيرته حطام الدنيا العاجل ، وبذا يرجح الخير على الشر والنعيم المقيم على المتاع الزائل .

وفى هذا إيماء إلى أن الطمع فى متاع الدنيا هو الذى أفسد على بنى إسرائيل أمرهم واستحوذ عليهم حب العاجلة فأذهب عنهم رشدهم .

وفى هذا عبرة للمسلمين الذين سرى إليهم كثير من هذا الفساد وغلب عليهم الطمع وحب الدنيا وعرضها الزائل وهم قد درسوا كتابهم الكريم ، لكن التحلى بلقب الإسلام والتعلل بأمانى المغفرة مع الإصرار على الذنوب اتكالا على الشفاعات والمكفرات ــ هو الذى غرهم وجعلهم يتمادون فى غيهم ، وكتابهم ينهاهم عن الأمانى والأوهام وكون الشفاعة لاتقع إلا بإذن الله لمن رضى عنه كما قال : « وَلاَ يَشْفَعُونَ إلاَّ لِمَنِ ارْتَضَى وَهُمْ مِنْ خَشْيَتِهِ مُشْفِقُونَ » .

(والذين يمسكون بالكتاب وأقاموا الصلاة إنا لانضيع أجر المصلحين) أى والذين يستمسكون بأوامر الكتاب ويعتصمون بحبله فى جميع شئونهم ، ويقيمون

الصلاة التى هى عماد الدين وركن منه متين كعبد الله بن سلام وأصحابه ـ لانضيع أجرهم لأنهم قد أصلحوا أعمالهم والله لايضيع أجر المصلحين ، وهى بمعنى قوله : « إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ إِنَّا لاَ نُضِيعُ أَجْرَ مَنْ أَحْسَنَ عَمَلاً » .

ثم ختم سبحانه هذه القصة مذكرا ببدء حالهم فى إنزال الكتاب عليهم عقب بيان مخالفتهم لأمور دينهم والخروج عنه فقال :

(وإذ نتقنا الجبل فوقهم كأنه ظلة وظنوا أنه واقع بهم) أى واذكر أيها الرسول إذ رفعنا جبل الطور فوقهم كما روى عن ابن عباس أو اقتلعناه وجعلناه فوقهم كأنه غمامة وأيقنوا أنهم إن خالفوا أوامر دينهم وقع لامحالة عليهم .

ذاك أنه أخذ عليهم الميثاق ليأخذُن الشريعة بقوة وعزم فخالفوا الميثاق فرفع فوقهم الطور وأوقع فى قلوبهم الرعب خوف وقوعه بهم ، فخر كل واحد منهم ساجدا لربه وقبل العمل بالميثاق ، روى أن بنى إسرائيل أبوا أن يقبلوا التوراة ، فرفع الجبل فوقهم وقيل لهم إن قبلتم العمل بها وإلا ليقعن عليكم فوقع كل منهم ساجدا على حاجبه الأيسر وهو ينظر بعينه اليمنى إلى الجبل فرَقا من سقوطه ، فلذلك لا ترى يهوديا يسجد إلا على حاجبه الأيسر ويقولون هى السجدة التى رفعت عنا بها العقوبة حين امتثلنا ما أمرنا به اهـ .

وفى الآية تعريض بأنهم إذا كانت حالهم فى مبدإ أمرهم بمخالفتهم لكتابه ما عرفت ـ فلا عجب إذا آل أمرهم إلى ترك العمل به بعد طول الأمد وقساوة القلوب والأنس بالمعاصى والذنوب .

(خذوا ما آتيناكم بقوة) أى وقلنا لهم فى هذه الحال : خذوا ما أعطيناكم من أحكام الشريعة بعزم واحتمال المشاق والتكاليف .

(واذكروا ما فيه لعلكم تتقون) أى واذكروا ما فيه من الأوامر والنواهى فإن ذلك يعدّكم للتقوى ويجعلها مرجوة لكم ، فإن قوة العزيمة فى إقامة الدين تزكى

النفوس وتهذب الأخلاق ، كما أن التهاون فيها يدسّيها ويغريها على اتباع الشهوات « قَدْ أَفْلَحَ مَنْ زَكَّاهَا . وَقَدْ خَابَ مَنْ دَسَّاهَا ».

وَإِذْ أَخَذَ رَبُّكَ مِنْ بَنِي آدَمَ مِنْ ظُهُورِهِمْ ذُرِّيَّتَهُمْ وَأَشْهَدَهُمْ عَلَى أَنْفُسِهِمْ أَلَسْتُ بِرَبِّكُمْ قَالُوا بَلَى شَهِدْنَا أَنْ تَقُولُوا يَوْمَ الْقِيَامَةِ إِنَّا كُنَّا عَنْ هٰذَا غَافِلِينَ (١٧٢) أَوْ تَقُولُوا إِنَّمَا أَشْرَكَ آبَاؤُنَا مِنْ قَبْلُ وَكُنَّا ذُرِّيَّةً مِنْ بَعْدِهِمْ أَفَتُهْلِكُنَا بِمَا فَعَلَ الْمُبْطِلُونَ (١٧٣) وَكَذٰلِكَ نُفَصِّلُ الْآيَاتِ وَلَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ (١٧٤) .

شرح المفردات

الظهور : واحدها ظهر ، وهو مافيه العمود الفقرى لهيكل الإنسان الذى هوقوام بنيته فيصح أن يعبر به عن جملة الجسد ، والذرية : سلالة الإنسان من الذكور والإناث ، والشهادة تارة تكون قولية كما قال : « قَالُوا شَهِدْنَا عَلَى أَنْفُسِنَا » الآية وتارة تكون حالية كما قال : « مَا كَانَ لِلْمُشْرِكِينَ أَنْ يَعْمُرُوا مَسَاجِدَ اللهِ شَاهِدِينَ عَلَى أَنْفُسِهِمْ بِالْكُفْرِ » أى حالهم شاهد عليهم بذلك ، لا أنهم قائلون ذلك .

المعنى الجملى

بعد أن ذكر سبحانه هدايته للبشر بإرسال الرسل و إنزال الكتب فى قصة بنى إسرائيل ـ قفى على ذلك بذكر هدايته لهم بما أودع فى فطرتهم وركب فى عقولهم من الاستعداد للإيمان به وتوحيده وشكره منذ النشأة الأولى ـ فهو سبحانه بعد أن أظهر تمادى هؤلاء اليهود فى الغى بعد أخذ الميثاق الخاص الذى دل عليه قوله : (وإذ نتقنا الجبل فوقهم كأنه ظلة) وقوله : « وَإِذْ أَخَذْنَا مِيثَاقَكُمْ وَرَفَعْنَا

فَوْقَكُمُ الطُّورَ » ذكر هنا أنهم نقضوا أيضا الميثاق العام الذى أخذه على بنى آدم جميعا وهم فى صلب آدم وأشركوا بالله وقالوا : عزير ابن الله .

الإيضاح

(وإذ أخذ ربك من بنى آدم من ظهورهم ذريتهم وأشهدهم على أنفسهم ألست بربكم ؟ قالوا بلى شهدنا) أى واذكر أيها الرسول للناس كافة ما أخذه الله من ميثاق الفطرة على البشر عامة إذ استخرج من بنى آدم ذريتهم بطنا إثر بطن، وخلقهم على فطرة الإسلام بما أودع فى قلوبهم من غريزة الإيمان اليقينى بأن كل فعل لابد له من فاعل وأن فوق كل العوالم القائمة على سنة الأسباب والمسببات سلطانا أعلى على جميع الكائنات هو المستحق للعبادة وحده ، وأشهد كل واحد من هؤلاء الذرية الحادثة جيلا بعد جيل على نفسه بما أودعه فى غريزته واستعداده قائلا لهم قول إرادة وتكوين لا قول وحى وتبليغ : ألست بربكم ؟ فقالوا بلسان الحال لا بلسان المقال : بلى أنت ربنا المستحق وحدك للعبادة ، فالكلام من قبيل التمثيل وله نظائر فى القرآن الكريم وأساليب العرب كقوله تعالى بعد ذكر خلق السماء : « فَقَالَ لَهَا وَلِلْأَرْضِ ائْتِيَا طَوْعاً أَوْ كَرْهاً قَالَتَا أَتَيْنَا طَائِعِينَ » وقوله : « إِنَّمَا أَمْرُنَا لِشَيْءٍ إِذَا أَرَدْنَاهُ أَنْ نَقُولَ لَهُ كُنْ فَيَكُونُ » وقول بعض العرب : قال الجدارُ للوتد لم تشقنى ؟ قال سل من يدقنى ، فإن الذى ورائى ، ماخلاَّنى ورائى : أى رأيى .

وقال ابن كثير فى تفسير الآية : يخبر الله تعالى أنه استخرج ذرية بنى آدم من أصلابهم شاهدين على أنفسهم أن الله ربهم ومليكهم وأنه لا إله الا هو ، كما أنه تعالى فطرهم على ذلك وجبلهم عليه ، قال تعالى : « فَأَقِمْ وَجْهَكَ لِلدِّينِ حَنِيفاً فِطْرَةَ اللهِ الَّتِي فَطَرَ النَّاسَ عَلَيْهَا لَا تَبْدِيلَ لِخَلْقِ اللهِ » وفى الصحيحين عن أبى هريرة رضى الله عنه قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم « كل مولود يولد على الفطرة »

وفى رواية : « على هذه الملة فأبواه يهوّدانه وينصرانه ويمجسانه كما تلد البهيمة بهيمة جمعاء هل تحسون فيها من جدعاء » ؟ وفى صحيح مسلم عن عياض بن حمار قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم « يقول الله إنى خلقت عبادى حنفاء فجاءتهم الشياطين فاجتالتهم عن دينهم وحرمت عليهم ما أحللت لهم » اهـ .

وقال ابن القيم فى كتاب الروح فى سياق البحث فى خلق الأرواح قبل الأجساد ما خلاصته : إن الله سبحانه استخرج صور البشر وأمثالهم ، فميز شقيهم وسعيدهم ومعافاهم من مبتلاهم والآثار متظاهرة به مرفوعة ، وإن الله أقام عليهم الحجة حينئذ وأشهدهم بربوبيته واستشهد عليهم ملائكته كما تدل على ذلك الآية .

قال أبو إسحق : جائز أن يكون الله سبحانه جعل لأمثال الذر التى أخرجها فهماً تعقل به كما قال : « قَالَتْ نَمْلَةٌ يَأَيُّهَا النَّمْلُ ادْخُلُوا مَسَاكِنَكُمْ » وقد سخر مع داود الجبال تسبح معه والطير . وقال ابن الأنبارى : مذهب أهل الحديث وكبراء العلم فى هذه الآية أن الله أخرج ذرية آدم من صلبه وأصلاب أولاده وهم فى صورة الذر فأخذ عليهم الميثاق أنه خالقهم وأنهم مصنوعون له ، فاعترفوا بذلك وفعلوا ، وذلك بعد أن ركب فيهم عقولا عرفوا بها ما عرض عليهم كما جعل للجبل عقلا حين خوطب ، وكما فعل بالبعير لما سجد ، وبالنخلة حتى سمعت وانقادت حين دعيت اهـ .

وقال الحسن بن يحيى الجرجانى : إنه سبحانه قد أثبت الحجة على كل منفوس ممن يبلغ وممن لم يبلغ بالميثاق الذى أخذه عليهم ، وزاد على من بلغ منهم الحجة بالآيات والدلائل التى نصبها فى نفسه وفى العالم وبالرسل المنفذة إليهم مبشرين ومنذرين ، وبالمواعظ بالمثلات المنقولة إليهم أخبارها ، غير أنه عز وجل لا يطالب أحدا منهم بالطاعة إلا بقدر ما لزمه من الحجة وركب فيهم من القدرة وآتاهم من الأدلة ، وبين سبحانه ما هو عامل فى البالغين الذين أدركوا الأمر والنهى ، وحجب عنا علم ما قدره فى غير البالغين ، إلا أنا نعلم أنه عدل لا يجور فى حكمه ، وحكيم

لا تفاوت فى صنعه ، وقادر لا يسأل عما يفعل ، له الخلق والأمر ، تبارك الله رب العالمين اهـ .

ثم بين سبحانه سبب هذا الإشهاد وعلته فقال :

(أن تقولوا يوم القيامة إنا كنا عن هذا غافلين) أى إنا فعلنا هذا منعا لاعتذاركم يوم القيامة ، بأن تقولوا إذا أشركتم إنا كنا عن هذا التوحيد غافلين ، إذ لم ينبهنا إليه منبه ، ومآل هـذا أنه لا يقبل منهم الاعتذار بالجهل لأنهم نبهوا بنصب الأدلة وجعلوا مستعدين لتحقيق الحق و إبعاد الشرك عن قلوبهم .

(أو تقولوا إنما أشرك آباؤنا من قبل وكنا ذرية من بعدهم أفتهلكنا بما فعل المبطلون) أى أو تقولوا فى ذلك اليوم : إن آباءنا اخترعوا الإشراك وسنوه من قبل زماننا وكنا جاهلين ببطلان شركهم ، فلم يسعنا إلا الاقتداء بهم ولم نهتد إلى التوحيد ، أفتؤاخذنا فتهلكنا اليوم بالعذاب بما فعله المبطلون من آبائنا المضلين ، فتجعل عذابنا كعذابهم ، مع عذرنا بتحسين الظن بهم ؟ .

والخلاصة — إن الله لا يقبل منهم الاعتذار بتقليد الآباء والأجداد إذ التقليد عند قيام الدلائل والقدرة على الاستدلال بها مما لا يركن إليه ولا ينبغى لعاقل أن يلجأ إليه ، كما أن الاعتذار بالجهل بعد ما أقام عليهم من البينات الفطرية والعقلية مما لا يقبل .

(وكذلك نفصل الآيات ولعلهم يرجعون) أى ومثل ذلك التفصيل المستتبع للمنافع الجليلة ـ نفصل لبنى آدم الآيات والدلائل ليستعملوا عقولهم فى التبصر فيها والتدبر فى أمرها ، لعلهم يرجعون بها عن جهلهم وتقليد آبائهم وأجدادهم .

وفى الآية إيماء إلى أن من لم تبلغه بعثة رسول لا يعذر يوم القيامة فى الشرك بالله تعالى ولا بفعل الفواحش والموبقات التى تنفر منها الفطر السليمة وتدرك ضررها العقول الحصيفة ، بل يعذرون بمخالفة هداية الرسل فيما شأنه ألا يعرف إلا منهم وهو

تفاصيل العبادات وعالم الغيب وما سيكون فى اليوم الآخر من أحوال العاصين وشئون النبيين والصديقين من عقاب وثواب وكنه ذلك على الحقيقة .

وَاتْلُ عَلَيْهِمْ نَبَأَ الَّذِى آتَيْنَاهُ آيَاتِنَا فَانْسَلَخَ مِنْهَا فَأَتْبَعَهُ الشَّيْطَانُ فَكَانَ مِنَ الْغَاوِينَ (١٧٥) وَلَوْ شِئْنَا لَرَفَعْنَاهُ بِهَا وَلَكِنَّهُ أَخْلَدَ إِلَى الْأَرْضِ وَاتَّبَعَ هَوَاهُ فَمَثَلُهُ كَمَثَلِ الْكَلْبِ إِنْ تَحْمِلْ عَلَيْهِ يَلْهَثْ أَوْ تَتْرُكْهُ يَلْهَثْ ذَلِكَ مَثَلُ الْقَوْمِ الَّذِينَ كَذَّبُوا بِآيَاتِنَا فَاقْصُصِ الْقَصَصَ لَعَلَّهُمْ يَتَفَكَّرُونَ (١٧٦) سَاءَ مَثَلاً الْقَوْمُ الَّذِينَ كَذَّبُوا بِآيَاتِنَا وَأَنْفُسَهُمْ كَانُوا يَظْلِمُونَ (١٧٧) .

شرح المفردات

التلاوة : القراءة ، والنبأ : الخبر الذى له شأن ، وانسلاخه منها : كفره بها ونبذه لها من وراء ظهره ، ويقال لكل من فارق شيئا بحيث لا تحدثه نفسه بالرجوع إليه : انسلخ منه، وأتبعه : أدركه ولحقه ، قال الجوهرى يقال أتبعت القوم إذا سبقوك فلحقتهم ، ومن الغاوين : أى الراسخين فى الغواية بعد أن كان مهتديا ، أخلد إلى الأرض : أى ركن إلى الدنيا ومال إليها واللهث (بالفتح) واللهاث (بالضم) التنفس الشديد مع إخراج اللسان ويكون لغير الكلب من شدة التعب والإعياء أو من العطش وللكلب فى كل حال سواء أصابه ذلك أم لا ، وتحمل عليه : أى تشد عليه وتطرده ، وساء الشىء : يسوء فهو سىء إذا قبح، وساءه يسوءه مساءة ، والمثل: الصفة :

المعنى الجملى

بعد أن ذكر تقدست أسماؤه أخذ العهد والميثاق على بنى آدم جميعا وأشهدهم على أنفسهم بأن الله ربهم لايكون لهم العذر يوم القيامة فى الإشراك بالله جهلا

أو تقليدا - قفى على ذلك بضرب المثل للمكذبين بآياته المنزلة على رسوله بعد أن أيدها بالأدلة العقلية والكونية ، وهو مثل من آتاه الله آياته فكان عالما بها قادرا على بيانها والجدل بها لكنه لم يؤت العمل مع العلم بل كان عمله مخالفا لعلمه ، فسُلبها لأن العلم الذى لا يعمل به لا يلبث أن يزول فأشبه الحية تنسلخ من جلدها وتخرج منه وتتركه على الأرض .

الإيضاح

(واتل عليهم نبأ الذى آتيناه آياتنا فانسلخ منها) أى واتل على اليهود ذلك النبأ العجيب ، نبأ ذلك الذى آتيناه حجج التوحيد وأفهمناه أدلته حتى صار عالما بها فانسلخ منها وتركها وراءه ظهريا ولم يلتفت إليها ليهتدى بها ، وفى التعبير بالإنسلاخ إيماء إلى أنه كان متمكنا منها ظاهرا لا باطنا .

(فأتبعه الشيطان فكان من الغاوين) أى وبعد أن انسلخ منها باختياره لحقه الشيطان فأدركه وتمكن من الوسوسة له إذ لم يبق لديه من نور البصيرة ولا أمارات الهداية ما يحول بينه وبين قبول وسوسته وسلوك فهمه ، فصار من الضالين المفسدين .

والخلاصة — إنه أوتى الهدى فانسلخ منه إلى الضلال ومال إلى الدنيا فتلاعب به الشيطان وكانت عاقبته البوار والخذلان وخاب فى الآخرة والأولى .

وفى الآية عبرة وموعظة للمؤمنين وتحذير لهم من اتباع أهوائهم حتى لا ينزلقوا فى مثل تلك الهوة التى انزلق إليها صاحب المثل بحبه للدنيا وركونه إلى شهواتها ولذاتها.

(ولو شئنا لرفعناه بها) أى ولو أردنا أن نرفعه بتلك الآيات والعمل بها إلى درجات الكمال والعرفان لفعلنا بأن نخلق له الهداية خلقا ونلزمه العمل بها طوعا أو كرها إذ لا يعجزنا ذلك ولكنه مخالف لسنتنا .

(ولكنه أخلد إلى الأرض واتبع هواه) أى ولكنه ركن إلى الدنيا ومال إليها وجعل كل خطة من حياته التمتع من لذائذها الجسدية ، ولم يوجه إلى الحياة الروحية عزما ، وركب رأسه فلم يراع الاهتداء بشىء مما آتيناه من آياتنا .

وقد قضت سنة الله فى الإنسان أن يجعله مختارا فى عمله المستعد له على حسب فطرته ليكون جزاؤه كفاء ما قدمت يداه من خير أو شر ، وأن يمتحنه بما خلق فى هذه الأرض من زينة ومتعة كما قال : « إِنَّا جَعَلْنَا مَا عَلَى الْأَرْضِ زِينَةً لَهَا لِنَبْلُوَهُمْ أَيُّهُمْ أَحْسَنُ عَمَلاً » ثم يولى كل امرئ منهم وجهة هو موليها فيختار منها ناحية على حسب استعداده وميله الفطرى كما قال : « مَنْ كَانَ يُرِيدُ الْعَاجِلَةَ عَجَّلْنَا لَهُ فِيهَا مَا نَشَاءُ لِمَنْ نُرِيدُ ثُمَّ جَعَلْنَا لَهُ جَهَنَّمَ يَصْلاَهَا مَذْمُومًا مَدْحُورًا . وَمَنْ أَرَادَ الْآخِرَةَ وَسَعَى لَهَا سَعْيَهَا وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَأُولَئِكَ كَانَ سَعْيُهُمْ مَشْكُوراً . كُلاًّ نُمِدُّ هٰؤُلاَءِ وَهٰؤُلاَءِ مِنْ عَطَاءِ رَبِّكَ وَمَا كَانَ عَطَاءُ رَبِّكَ مَحْظُوراً » كما مضت سنته أيضا بأن جعل ميل الإنسان مع شهواته فى جميع أعماله دون رعاية للفائدة يضله عن السبيل الموصلة إلى السعادة الأخروية وينحرف به إلى سبل الغواية المردية فى التهلكة كما قال تعالى مخاطبا داود عليه السلام : « وَلاَ تَتَّبِعِ الْهَوَى فَيُضِلَّكَ عَنْ سَبِيلِ اللهِ » وقال مخاطبا خاتم أنبيائه : « أَفَرَأَيْتَ مَنِ اتَّخَذَ إِلٰهَهُ هَوَاهُ أَفَأَنْتَ تَكُونُ عَلَيْهِ وَكِيلاً » .

وخلاصة ذلك — إن من شأن من يؤتى الآيات أن تسمو نفسه وتصعد فى سلم الكمال لما فيها من الهداية إلى سبيل الخير الحاضة على عمل النافع وما فيه فائدة روحية له ، على شريطة أن يتلقاها بعزيمة ونية صادقة كما جاء فى الحديث : « إنما الأعمال بالنيات وإنما لكل امرئ ما نوى » .

أما من تلقاها بغير قصد أو بنية كسب المال والجاه وفى نفسه ما يصرفه عنها فلن يستفيد منها شيئا وسرعان ما ينسلخ منها .

(فمثله كمثل الكلب إن تحمل عليه يلهث أو تتركه يلهث) أى إن هذا الرجل كالكلب فى صفته هذه وهى أقبح حالاته وأخسها ، فهو لإخلاده وميله إلى الدنيا واتباعه هواه يكون كذلك فى أسوإ حال ، فهو فى هم دائب وشغل شاغل فى عرَض الدنيا وزخرفها ، يُعنى بخسيس أمورها وجليلها كشأن عبّاد الأهواء وطلاب الأموال ترى المرء منهم كاللاهث من الإعياء والتعب وإن كان ما يعنى به حقيرا لا يتعب ولا يعيى ، وتراه كلما أصاب سعة وبسطة فى الدنيا زاد طمعا فيها كما قال الأول :

فما قضى أحد منها لُبانته		ولا انتهى أرَب إلا إلى أرَب

(ذلك مثل القوم الذين كذبوا بآياتنا) أى ذلك المثل البالغ الحد فى الغرابة مثل هؤلاء القوم الذين جحدوا بآياتنا واستكبروا عنها جهلا بها وتقليدا للآباء والأجداد ، فهم قد ظنوا أن إيمانهم بها يسلبهم العزة ويحط من أقدارهم ويحول بينهم وبين ما يتمتعون به من اللذات ، فكان ذلك حجابا حائلا بينهم وبين النظر فيها نظر تبصر واستدلال ، وإن كانوا نظروا إليها من تلك الناحية التى تروق لهم وهى : حرمانهم من التمتع بالحظوظ والشهوات ، إلى ما فيها من الاعتراف بضلال السلف من الآباء والأجداد فما أشبه حالهم بحال من أوتى الآيات فانسلخ منها وذاك ليس بعيب فيها بل العيب عليه باتباعه هواه الذى حرمه من الانتفاع بها .

قد تنكر العين ضوء الشمس من رمد		وينكر الفمّ طعم الماء من سَقَم

(فاقصص القصص لعلهم يتفكرون) أى فاقصص أيها الرسول الكريم قصص ذلك الرجل الذى تشبه حاله حال أولئك المكذبين بما جئت به من الآيات البينات رجاء أن يتفكروا فيه فيحملهم سوء حالهم وقبح مثلهم على إطالة التأمل والتفكر فى المَخْلص مما هم فيه ، والنظر فى الآيات بعين البصيرة لا بعين الهوى والعداوة .

وفى الآية إيماء إلى تعظيم ضرب شأن تلك الأمثال فى الإقناع وكونها أقوى أثرا

من سوق الحجج والأدلة دون أن تكون هى من بينها ـ كما أن فيها رمزا إلى تعظيم شأن التفكر وأنه مبدأ العلم والسبيل للوصول إلى الحق ، ومن ثم حث الله عليه فى مواضع كثيرة من كتابه كقوله : «إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَاتٍ لِقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ» وقوله : «كَذَٰلِكَ نُفَصِّلُ الْآيَاتِ لِقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ» .

(ساء مثلا القوم الذين كذبوا بآياتنا وأنفسهم كانوا يظلمون) أى قبحت صفة أولئك القوم فى الصفات ، وساء مثلهم فى الأمثال بإعراضهم عن التفكر فى الآيات والنظر إليها نظر عداوة و بغضاء ، وهم بعملهم هذا إنما يظلمون أنفسهم وحدها بحرمانها من الاهتداء بها وجعلها السبيل الموصل إلى السعادة فى الدنيا والآخرة .

ولم يعين الكتاب الكريم اسم من ضرب به المثل ولاجنسه ولا وطنه ولاجاء فى السنة الصحيحة شيء من ذلك ، فلا حاجة لنا فى العظة إلى بيانه .

ولرواة التفسير بالمأثور روايات كثيرة فى شأنه .

أخرج ابن جرير وابن أبى حاتم عن ابن عباس قال : هو رجل يدعى بلعم من أهل اليمن آتاه الله آياته فتركها ، وأخرج عبد بن حميد والنسائى وابن جرير وابن المنذر عن عبد الله بن عمرو أنه هو أمية بن أبى الصلت الثقفى ، وفى لفظ نزلت فى صاحبكم أمية بن أبى الصلت ، وأخرج ابن عساكر عن ابن شهاب قال : قال أمية بن أبى الصلت :

ألا رسول لنا منا يخبّرنا ما بعد غايتنا من رأس مجرانا

قال : ثم خرج إلى البحرين وتنبأ رسول الله صلى الله عليه وسلم فأقام أمية بالبحرين ثمانى سنين ، ثم قدم فلقى رسول الله صلى الله عليه وسلم فى جماعة من أصحابه فدعاه النبى صلى الله عليه وسلم وقرأ عليه (بسم الله الرحمن الرحيم . يس . والقرآن الحكيم) حتى فرغ منها فوثب أمية يجر رجليه فتبعته قريش تقول : ما تقول يا أمية ؟ قال : أشهد إنه على الحق ، قالوا نهل تتبعه ؟ قال : حتى أنظر فى أمره ، فخرج أمية إلى الشام وقدم بعد وقعة بدر يريد أن يسلم ، فلما أخبر بقتلى بدر ترك الإسلام ورجع

إلى الطائف فمات بها ، قال ففيه أنزل الله : (واتل عليهم نبأ الذى آتيناه آياتنا فانسلخ منها) .

وأخرج ابن أبى حاتم وابن مردويه عن الشعبى فى هذه الآية : (واتل عليهم نبأ الذى آتيناه آياتنا فانسلخ منها) قال : قال ابن عباس هو رجل من بنى إسرائيل يقال له بلعم بن باعوراء ، وكانت الأنصار تقول هو ابن الراهب الذى بنى له مسجد الشقاق ، وكانت ثقيف تقول هو أمية بن أبى الصلت .

وذكر البستانى فى دائرة المعارف العربية ملخص قصة بلعام ثم قال : وبعض مفسرى الكتاب المقدس المدققين ذهب إلى أن قصة بلعام المدْرجة فى سفر العدد من الإصحاح ٢٢ — ٢٤ دخيلة ، وعلى الجملة فهذه الروايات الإسرائيليـة لايعتد بها كما لم يعتد بها ابن جرير .

مَنْ يَهْدِ اللهُ فَهُوَ الْمُهْتَدِى وَمَنْ يُضْلِلْ فَأُولٰئِكَ هُمُ الْخَاسِرُونَ (١٧٨) وَلَقَدْ ذَرَأْنَا لِجَهَنَّمَ كَثِيراً مِنَ الْجِنِّ وَالْإِنْسِ ، لَهُمْ قُلُوبٌ لَا يَفْقَهُونَ بِهَا ، وَلَهُمْ أَعْيُنٌ لَا يُبْصِرُونَ بِهَا ، وَلَهُمْ آذَانٌ لَا يَسْمَعُونَ بِهَا ، أُولٰئِكَ كَالْأَنْعَامِ بَلْ هُمْ أَضَلُّ ، أُولٰئِكَ هُمُ الْغَافِلُونَ (١٧٩) .

شرح المفردات

الذرء : لغة الخلق ، يقال ذرأ الله الخلق أى أوجد أشخاصهم ، والخلق : التقدير أى إيجاد الأشياء بتقدير ونظام لاجزافا ، والجن : الأحياء العاقلة المكلفة الخفية غير المدركة بالحواس ، والقلب : يطلق أحيانا على المضغة الصنوبرية الشكل فى الجانب الأيسر من جسد الإنسان — وأحيانا على العقل والوجدان الروحى الذى يسمونه أحيانا : (بالضمير) وهو محل الحكم فى أنواع المدركات والشعور الوجدانى لما يلائم

أو يؤلم وهو كثير بهذا المعنى فى الكتاب الكريم: « سَأُلْقِي فِي قُلُوبِ الَّذِينَ كَفَرُوا الرُّعْبَ » . « قُلُوبٌ يَوْمَئِذٍ وَاجِفَةٌ » . « أَفَلَمْ يَسِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَتَكُونَ لَهُمْ قُلُوبٌ يَعْقِلُونَ بِهَا أَوْ آذَانٌ يَسْمَعُونَ بِهَا فَإِنَّهَا لَا تَعْمَى الْأَبْصَارُ وَلَكِنْ تَعْمَى الْقُلُوبُ الَّتِي فِي الصُّدُورِ » .

وسر استعمال القلب فى هذا المعنى ما يراه الإنسان من انقباض أو انشراح حين الخوف والاشمئزاز أو حين السرور والابتهاج ، والفقه: العلم بالشىء والفهم له ، وفسره الراغب بالتوصل بعلم شاهد إلى علم غائب ، وقد استعمله القرآن فى مواضع كثيرة بمعنى دقة الفهم والتعمق فى العلم ليترتب عليه أثره وهو الانتفاع به ومن ثم نفاه عن الكفار والمنافقين لأنهم لم يدركوا كنهه المراد مما نفى فقهه عنهم ففاتتهم المنفعة مع العلم المتمكن من النفس .

المعنى الجملى

بعد أن أمر النبى صلى الله عليه وسلم بأن يقص قصص المنسلخ عن آيات الله على أولئك الضالين الذين حالهم كحاله ليتفكروا فيه ويتركوا ماهم عليه من الإخلاد إلى الضلالة ويعودوا إلى حظيرة الحق — قفى على ذلك ببيان أن أسباب الهدى والضلال ينتهيان للمستعد لأحدهما إلى إحدى الغايتين بتقدير الله والسير على سنته فى استعمال مواهبه وهداياته الفطرية من العقل والحواس فى أحد السبيلين كما قال : « وَهَدَيْنَاهُ النَّجْدَيْنِ » . « فَإِمَّا شَاكِرًا وَإِمَّا كَفُورًا » .

الإيضاح

(من يهد الله فهو المهتدى) أى من يوفقه الله لسلوك سبل الهداية باستعماله عقله وحواسه فيما خلقا له بمقتضى الفطرة وإرشاد الدين فهو المهتدى الذى شكر نعم الله عليه وأدى حقه عليه ففاز بسعادة الدنيا وسعادة الآخرة .

(ومن يضلل فأولئك هم الخاسرون) أى ومن يخذله ويحرمه التوفيق فيتبع شيطانه وهواه ويترك استعمال عقله وحواسه فى فقه آيات الله وشكر ما أنعم به عليه ، فهو الكفور الضال الذى خسر سعادة الدنيا وسعادة الآخرة ، إذ هو قد خسر تلك المواهب التى كان بها إنسانا مستعدا للسعادتين الدنيوية والأخروية .

ولا شك أن الهداية الإلهية نوع واحد وهو الإيمان الذى ثمرته العمل الصالح ، أما أنواع الضلال فلا حصر لها ، يرشد إلى ذلك قوله تعالى فى سورة الأنعام : (وأن هذا صراطى مستقيما فاتبعوه ولا تتبعوا السبل فتفرق بكم عن سبيله) .

ثم فصل سبحانه ما أجمله فى الآية السالفة مع بيان سببه فقال :

(ولقد ذرأنا لجهنم كثيرا من الجن والإنس) أى نقسم إنا قد خلقنا فى العالم كثيرا من الجن والإنس لسكنى جهنم والمقام فيها ، وخلقنا للجنة مثل ذلك بمقتضى استعداد الفريقين كما قال : « فَمِنْهُمْ شَقِيٌّ وَسَعِيدٌ » وقال : « فَرِيقٌ فِي الْجَنَّةِ وَفَرِيقٌ فِي السَّعِيرِ » .

ثم بين سبب كونهم معدّين لجهنم وصفاتهم المؤهلة لذلك فقال :

(لهم قلوب لايفقهون بها) أى إنهم لايفقهون بقلوبهم ما تزكى به أنفسهم من توحيد الله المبعد لها عن الخرافات والأوهام وعن الذلة والصغار ، فإن من يعبد الله وحده تسمو نفسه بمعرفته فلا تذل بدعاء غيره ولا الخوف منه ولا الرجاء فيه والاتكال عليه ، بل يطلب من الله ما يحتاج إليه ، فإن كان مما أقدر الله عليه خلقه بإعلامهم بأسبابه وتمكينهم منها طلبه بسببه مع مراعاة سننه فى خلقه ، وإن لم يكن كذلك توجه إلى الله لهدايته إلى العلم بما لم يعلم من سببه وإقداره على ما يقدر عليه من وسائله أو تسخير من شاء من خلقه لمساعدته عليه كالأطباء لمداواة الأمراض وأقوياء الأبدان لرفع الأثقال والعلماء الراسخين للفتوى فى المسائل العلمية وحل إشكال ما غمض من حقيقتها ولا يتوجه فى طلبه إلى غير ما يعرف البشر من الأسباب المطردة

كالرقى والعزائم والتبخيرات وكرامات الصالحين من الأحياء والأموات والدعاء إليهم بما يعد من العبادات فالله يقول : « فَلَا تَدْعُوا مَعَ اللَّهِ أَحَدًا » ويقول : « بَلْ إِيَّاهُ تَدْعُونَ فَيَكْشِفُ مَا تَدْعُونَ إِلَيْهِ إِنْ شَاءَ وَتَنْسَوْنَ مَا تُشْرِكُونَ » .

كما لا يفقهون بقلوبهم الحياة الروحية واللذات المعنوية الموصلة إلى السعادة الأبدية: « يَعْلَمُونَ ظَاهِراً مِنَ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَهُمْ عَنِ الآخِرَةِ هُمْ غَافِلُونَ » .

ولا يفقهون أن ترك الشرور والمنكرات والحرص على فعل الخيرات هو مناط السعادة فى الدنيا والآخرة ، ولاسبيل إلى ذلك إلا بالتربية البدنية الصحيحة .

ولا يفقهون سنن الله فى الاجتماع وتأثير العقائد الدينية فى جمع الكلمة وقوة الجماعة ولا سيما فى عهد النبوات وزمن المعجزات ، ولا يفقهون معنى الآيات الإلهية فى الأنفس والآفاق ولا آياته التى يؤيد بها رسله من علمية وكونية وما أودعه منها كتابه.

(ولهم أعين لا يبصرون بها ولهم آذان لا يسمعون بها) أى وكذلك لهم أبصار وأسماع لا يوجهونها إلى التأمل والتفكر فيما يرون من آيات الله فى خلقه ، وفيما يسمعون من آياته المنزلة على رسله ومن أخبار التاريخ الدالة على سننه تعالى فى خلقه ، فيهتدوا بكل منها إلى ما فيه سعادتهم فى دنياهم وآخرتهم .

فالآذان إنما خلقت للإنسان ليستفيد من كل ما يسمع ، والأبصار خلقت لينتفع بكل ما يبصر ، وإنما يكون ذلك بتوجيه الإرادة إلى استعمال كل منهما فيما خلق له كما قال تعالى : « أَوَلَمْ يَهْدِ لَهُمْ كَمْ أَهْلَكْنَا مِنْ قَبْلِهِمْ مِنَ الْقُرُونِ يَمْشُونَ فِي مَسَاكِنِهِمْ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ أَفَلَا يَسْمَعُونَ . أَوَلَمْ يَرَوْا أَنَّا نَسُوقُ الْمَاءَ إِلَى الْأَرْضِ الْجُرُزِ فَنُخْرِجُ بِهِ زَرْعًا تَأْكُلُ مِنْهُ أَنْعَامُهُمْ وَأَنْفُسُهُمْ أَفَلَا يُبْصِرُونَ » .

ولكن المسلمين وا أسفا أصبحوا أشد الناس إهمالا لاستعمال أسماعهم وأبصارهم

وأفئدتهم فى النظر فى آيات الله فى الأنفس والآفاق ، وصاروا أجهل الشعوب بالعلوم التى تعرف بها آياته فى مشاعر الإنسان وانفعالاته النفسية وقواه العقلية ، وآياته فى الحيوان والنبات والجماد والهواء والماء والبخار وسنن النور والكهرباء والعلوم الفلكية .

ومن أصاب منهم حظا من معرفتها فإنما يعرفها للانتفاع بها فى الحياة الدنيا من غير مراعاة أنها آيات دالة على أن لها ربًّا خالقا مدبرا عليما قديرا رحيما يجب أن يعبد وحده وأن يُخشى ويُحب فوق كل أحد ، وأن تكون معرفته منتهى كل غاية من هذه الحياة .

(أولئك كالأنعام بل هم أضلّ أولئك هم الغافلون) أى أولئك الذين اتصفوا بما ذكر من الصفات : كالأنعام من إبل وبقر وغنم ، فهم لاحظ لهم من عقولهم إلا استعمالها فيما يتعلق بمعيشتهم فى هذه الحياة ، بل هم أضل سبيلا منها ، إذ هذه لا تجنى على أنفسها بتجاوز سنن الفطرة وحدود الحاجة الطبيعية فى أكلها وشربها وجميع حاجاتها ، لكن عبيد الشهوات يسرفون فى كل ذلك إسرافا عظيما قد تتولد منه الأمراض الكثيرة كما قد يجاهدون هذه الشهوات جهادا يفرطون فيه بحقوق البدن فلا يعطونه ما يكفيه من الغذاء أو يقصرون فى الحقوق الزوجية فيجنون على أشخاصهم أو على النوع بالتفريط كما يجنى عليهما عبيد الشهوات بالإفراط ، وهداية الإسلام تحظر هذا وذاك وتوجب الأكل من الطيبات بشرط عدم الإسراف ، ولو سلك الناس مسلك الاهتداء بالقرآن فى فهم أسرار الخلق ومعرفة منافعه لاستفادوا السعادة فى معاشهم والاستعداد لمعادهم، وأولئك هم الغافلون عما فيه صلاحهم فى الحياتين.

وهم فى الغفلة على درجات ، فمنهم الغافلون عن آيات الله فى الأنفس والآفاق التى تهدى العبد إلى معرفة ربه ، والغافلون عن استعمال مشاعرهم وعقولهم فى أفضل ما خلقت لأجله ، والغافلون عن ضروريات حياتهم الشخصية والقومية والدينية .

والخلاصة — إن أهل النار هم الأغبياء الجاهلون الغافلون الذين لايستعملون عقولهم فى فقه حقائق الأمور وأبصارهم وأسماعهم فى استنباط المعارف واستفادة العلوم، ولا فى معرفة آيات الله الكونية وآياته التنزيلية، وهما سبب كمال الإيمان والباعث النفسىّ على كمال الإسلام .

وَلِلَّهِ الْأَسْمَاءُ الْحُسْنَى فَادْعُوهُ بِهَا، وَذَرُوا الَّذِينَ يُلْحِدُونَ فِي أَسْمَائِهِ سَيُجْزَوْنَ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ(١٨٠) .

شرح المفردات

الأسماء: واحدها اسم، وهو اللفظ الدّال على الذات أو عليها مع صفة من صفاتها، والحسنى: مؤنث الأحسن، فادعوه بها: أى سموه ونادوه بها للثناء عليه أو للسؤال وطلب الحاجات، وذروا: اتركوا، والإلحاد: الميل عن الوسط حسا أو معنى، والأول هو الأصل فيه، ومنه لحد القبر: وهو ما يحفر فى جانب القبر مائلا عن وسطه، وألحد السهم الهدف: أى مال فى أحد جانبيه ولم يصب وسطه، ومن الثانى ألحد فلان: مال عن الحق، سيجزون: أى سيلقون جزاء عملهم .

المعنى الجملى

بعد أن بين الله فى الآية السالفة أن المخلوقين لجهنم لم يستعملوا عقولهم ومشاعرهم فى الاعتبار بالآيات والتفقه فى تزكية أنفسهم بالعلم النافع، فأورثهم ذلك الإهمال الغفلة التامة عن صلاح أنفسهم بذكر الله وشكره والثناء عليه بما هو أهله من صفات الكمال – قفى على ذلك بذكر الدواء لتلك الغفلة والوسائل التى تخرج إلى ضدها وهى ذكر الله ودعاؤه فى السرّ والعلن بكرة وعشيا .

الإيضاح

(ولله الأسماء الحسنى فادعوه بها) أى ولله دون غيره جميع الأسماء الدالة على أحسن المعانى وأكمل الصفات فاذكروه ونادوه إما لمجرد الثناء نحو : « اللَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ الْحَيُّ الْقَيُّومُ » ونحو : « هُوَ اللَّهُ الَّذِي لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ عَالِمُ الْغَيْبِ وَالشَّهَادَةِ هُوَ الرَّحْمَنُ الرَّحِيمُ » وإما لدى السؤال وطلب الحاجات .

وللذكر فوائد : منها تغذية الإيمان ومراقبة الله تعالى والخشوع له والرغبة فيما عنده واحتقار آلام الدنيا وقلة المبالاة بما يفوت المؤمن من نعيمها ، ومن ثم جاء فى الحديث « من نزل به غمّ أو كرب أو أمر مهمّ فليقل : لا إله إلا الله العظيم الحليم ، لا إله إلا الله رب العرش العظيم ، لا إله إلا الله رب السموات والأرض ورب العرش الكريم » رواه البخارى ومسلم والترمذى والنسائى .

وروى الحاكم فى المستدرك عن أنس رضى الله عنه قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم لفاطمة : « ما يمنعك أن تسمعى ما أوصيك به ؟ أن تقولى إذا أصبحت وإذا أمسيت : ياحى ياقيوم برحمتك أستغيث ، أصلح لى شأنى كله ولا تكلنى إلى نفسى طرفة عين » .

وأسماء الله كثيرة ، وكلها حسنى لدلالة كل منها على منتهى كمال معناه وتفضيلها على ما يطلق منها على المخلوقين : كالرحيم والحكيم والحفيظ والعليم .

وروى الشيخان من حديث أبى هريرة قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم « إن لله تسعة وتسعين اسما مائة إلا واحدا من أحصاها دخل الجنة » وفى رواية له : « إن لله تسعة وتسعين اسما من حفظها دخل الجنة ، وإن الله وتر يحب الوتر » . وقد سرد الأسماء التسعة والتسعين الترمذى والحاكم من طريق الوليد بن مسلم قال :

هو الله الذى لا إله إلا هو الملك القدوس السلام المؤمن المهيمن العزيز الجبار المتكبر الخالق البارئ المصور الغفار القهار الوهاب الرزاق الفتاح العليم القابض الباسط

الخافض الرافع المعز المذل السميع البصير الحكم العدل اللطيف الخبير الحليم العظيم الغفور الشكور العلى الكبير الحفيظ المقيت الحسيب الجليل الكريم الرقيب المجيب الواسع الحكيم الودود المجيد الباعث الشهيد الحق الوكيل القوى المتين الولى الحميد المحصى المبدئ المعيد المحيي المميت الحى القيوم الواجد الماجد الواحد الصمد القادر المقتدر المقدم المؤخر الأول الآخر الظاهر الباطن الوالى المتعال البر التواب المنتقم العفوّ الرءوف مالك الملك ذو الجلال والإكرام المقسط الجامع الغنى المغنى المانع الضار النافع النور الهادى البديع الباقى الوارث الرشيد الصبور .

وقد اختلف المحدثون فى سرد هذه الأسماء هل هو مرفوع أو مُدْرج فى الحديث من بعض الرواة ؟ والثانى هو الراجح ، ولم يخرّجه الشيخان لتفرد الوليد به واحتمال الإدراج كما قاله الحافظ ابن حجر فى الفتح .

(وذروا الذين يلحدون فى أسمائه) أى ادعوه أيها المؤمنون واتركوا جميع الذين يلحدون فى أسمائه بالميل بألفاظها أو معانيها عن نهج الحق الوسط إلى متفرق السبل من تحريف أو تأويل أو شرك أو تكذيب أو زيادة أو نقصان أو ما ينافى وصفها بالحسنى كأن يوصف بما لا يصح وصفه به أو تتأول أوصافه على ما لا يليق به .

ثم بين العلة فى تركهم فى خوضهم يلعبون فقال :

(سيجزون ما كانوا يعملون) أى لأنهم سيلقون جزاء عملهم وتحل بهم العقوبة فى الدنيا قبل الآخرة ، فاجتنبوا إلحادهم كيلا يصيبكم مثل ما يصيبهم .

والإلحاد ضربان : إلحاد إلى الشرك بالله وهو ينافى الإيمان ويبطله ، وإلحاد إلى الشرك بالأسباب كأن ينظر إليها مع الغفلة عن كونها من خلق الله وتسخيره أو يعتقد أنها مؤثرة بذاتها لا بفعله تعالى ، وهذا يوهن عرا الإيمان ولا يبطله .

والخلاصة — إن الإلحاد فى أسمائه الحسنى أقسام :

(١) تسميته تعالى بما لم يسمّ به نفسه فى كتابه أو ما صح من حديث رسوله

صلى الله عليه وسلم ، فقد اتفق أهل الحق على أن أسماءه وصفاته تعالى توقيفية : أى تحتاج إلى إذن من الشارع لصحة إطلاقها عليه تعالى ، وكل ما ورد فى الكتاب والأحاديث الصحيحة دعاء ووصفا له و إخبارا عنه يصح إثباته له ويمنع كل مادلت على منعه ، قال فى الكشاف كقول أهل البدو : يا أبا المكارم، يا أبيض الوجه، ياسخى .

(٢) ترك تسميته بما سمى به نفسه أو وصفه بما وصفها به أو ترك إسناد ما أسنده تعالى إلى نفسه من الأفعال بناء على أن ذلك لايليق به تعالى أو أنه يوهم نقصا فى حقه ، كأن هؤلاء الملحدين أعلم منه ومن رسوله صلى الله عليه وسلم بما يليق به وما لا يليق .

(٣) تغيير أسمائه لوضعها لغيره مما عبد من دونه كاللات والعزى .

(٤) تحريف أسمائه وصفاته تعالى عما وضعت له بضرب من التأويل ، فقد ذهب جماعة من المسلمين إلى جعل الرب القدوس الذى ليس كمثله شىء — كرجل من خلقه لأنه تعالى وصف نفسه بصفات يدل مجموعها على ذلك : كالسمع والبصر والكلام والوجه واليد والرجل والضحك والرضا والغضب ، وذهب آخرون إلى تأويل جميع صفاته تعالى حتى جعلوها كالعدم .

(٥) إشراك غيره فيما هو خاص به من أسمائه باللفظ كاسم الجلالة (الله) والرحمن ورب العالمين ، ومافى معناه كرب السماء والأرض أو رب الكعبة أو رب البيت (الكعبة) كما قال : « فَلْيَعْبُدُوا رَبَّ هَذَا الْبَيْتِ » .

(٦) إشراك غيره فى كمال أسمائه كمن يزعم أو يعتقد أن لغيره رحمة كرحمته ورأفة كرأفته وغير ذلك من معانى أسمائه كالمجيب مثلا كما قال تعالى: « وَإِذَا سَأَلَكَ عِبَادِى عَنِّى فَإِنِّى قَرِيبٌ أُجِيبُ دَعْوَةَ الدَّاعِ إِذَا دَعَانِ » .

و بعض الذين يدعون غير الله تعالى من الموتى يعتقدون أنهم أسرع وأقرب فى إجابتهم من الله تعالى فيجمعون بذلك بين شركين : شرك دعاء غير الله مع اعتقاد

إجابته للدعاء ، وشرك الكفر به بتفضيل غيره عليه سبحانه فى سرعة الإجابة مع أن الله يقول : « أَمْ مَنْ يُجِيبُ الْمُضْطَرَّ إِذَا دَعَاهُ وَيَكْشِفُ السُّوءَ وَيَجْعَلُكُمْ خُلَفَاءَ الْأَرْضِ أَإِلَٰهٌ مَعَ اللهِ » أى لا يجيب المضطر إلا هو فهو المستحق وحده للعبادة .

وَمِمَّنْ خَلَقْنَا أُمَّةٌ يَهْدُونَ بِالْحَقِّ وَبِهِ يَعْدِلُونَ (١٨١) وَالَّذِينَ كَذَّبُوا بِآيَاتِنَا سَنَسْتَدْرِجُهُمْ مِنْ حَيْثُ لَا يَعْلَمُونَ (١٨٢) وَأُمْلِي لَهُمْ إِنَّ كَيْدِي مَتِينٌ (١٨٣) أَوَلَمْ يَتَفَكَّرُوا مَا بِصَاحِبِهِمْ مِنْ جِنَّةٍ إِنْ هُوَ إِلَّا نَذِيرٌ مُبِينٌ (١٨٤) أَوَلَمْ يَنْظُرُوا فِي مَلَكُوتِ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَمَا خَلَقَ اللهُ مِنْ شَيْءٍ وَأَنْ عَسَى أَنْ يَكُونَ قَدِ اقْتَرَبَ أَجَلُهُمْ فَبِأَيِّ حَدِيثٍ بَعْدَهُ يُؤْمِنُونَ (١٨٥) مَنْ يُضْلِلِ اللهُ فَلَا هَادِيَ لَهُ وَيَذَرُهُمْ فِي طُغْيَانِهِمْ يَعْمَهُونَ (١٨٦) .

شرح المفردات

الاستدراج مأخوذ : إما من درج الكتاب والثوب وأدرجه : إذا طواه ، وإما من الدرجة وهى المرقاة ، فعلى الأول سنستدرجهم : أى سنطويهم طىّ الكتاب ونغفل أمرهم كما قال : « وَلَا تُطِعْ مَنْ أَغْفَلْنَا قَلْبَهُ عَنْ ذِكْرِنَا » وعلى الثانى سنأخذهم درجة بعد درجة بإدنائهم من العذاب شيئا فشيئا كالمراقى والمنازل فى ارتقائها ونزولها ، والإملاء : الإمداد فى الزمن والإمهال والتأخير من الملوة والملاوة، وهى الطائفة الطويلة من الزمن ، والملوان : الليل والنهار ، والكيد كالمكر : هو التدبير الذى يقصد به غير ظاهره بحيث ينخدع المكيد بمظهره فلا يفطن له حتى ينتهى إلى ما يسوءه ، وأكثره احتيال مذموم ، ومنه ما هو محمود يقصد به المصلحة : ككيد

يوسف لأخذ أخيه الشقيق من إخوته لأبيه برضاهم ومقتضى شريعتهم ، والمتين : القوى الشديد ، والجنة (بالكسر) نوع من الجنون ، والإنذار : التعليم والإرشاد المقترن بالتخويف من مخالفته ، والملكوت : الملك العظيم ، وملكوت السموات والأرض : مجموع العالم ، والحديث : كلام الله وهو القرآن ، والطغيان : تجاوز الحد فى الباطل والشر من الكفر والفجور والظلم ، والعمه : التردد فى الحيرة .

المعنى الجملى

بعد أن ذكر سبحانه أنه ذرأ لجهنم كثيرا من الثقلين : الجن والإنس وأبان أهمّ أسباب ذلك ، وهى أن هؤلاء أفسدوا فطرتهم بإهمال مواهبهم من العقل والحواس ، ثم أرشدنا إلى ما يصلح الفطرة من دعائه بأسمائه الحسنى ، قفى على ذلك ببيان وصف أمة الإجابة ، وثنى بذكر المكذبين من أمة الدعوة ، وثلث بتفنيد ما عرض لهم من الشبهة ، ثم أرشد إلى التفكر الموصل إلى الفقه فى الأمور ومعرفة الحقائق ، وإلى النظر الهادى إلى الحجة ، والبرهان الموصل إلى معرفة صدق الرسول ، ثم ختمها ببيان عدم الطمع فى هداية من قضت سنة الله بضلاله وتركه يعمه فى طغيانه .

الإيضاح

(وممن خلقنا أمة يهدون بالحق وبه يعدلون) أى وبعض ممن خلقنا جماعة كبيرة مؤلفة من شعوب وقبائل كثيرة ، يهدون بالحق ويدلون الناس على الاستقامة ، وبالحق يحكمون فى الحكومات التى تجرى بينهم ولا يجورون ، فسبيلهم واحدة لأن الحق واحد لا يتعدد ، وهؤلاء هم أمة محمد عليه الصلاة والسلام .

أخرج ابن جرير وابن المنذر وأبو الشيخ عن ابن جريج فى قوله تعالى : « وممن خلقنا أمة يهدون بالحق » قال : ذُكر لنا أن النبى صلى الله عليه وسلم قال : هذه أمتى ، بالحق يحكمون ويقضون ، ويأخذون ويعطون .

وأخرج عبد بن حميد وابن المنذر عن قتادة فيها قال : بلغنا أن النبى صلى الله عليه وسلم كان يقول إذا قرأها : وهذه لكم وقد أعطى القوم بين أيديكم مثلها (ومن قوم موسى أمة يهدون بالحق وبه يعدلون) .

وأخرج أبو الشيخ عن على بن أبى طالب قال : لتفترقَنّ هذه الأمة على ثلاث وسبعين فرقة كلها فى النار إلا فرقة ، يقول الله (وممن خلقنا أمة يهدون بالحق وبه يعدلون) فهذه هى التى تنجو من هذه الأمة اهـ .

(والذين كذبوا بآياتنا سنستدرجهم من حيث لايعلمون) أى والذين كذبوا بآيات الله سندعهم يسترسلون فى غيهم وضلالهم ولا يدرون شيئا من عاقبة أمرهم ، لجهلهم سنن الله فى المنازعة بين الحق والباطل وأن الحق يدفع الباطل ، وما ينفع الناس يتغلب على ما يضرهم كما قال تعالى : « بَلْ نَقْذِفُ بِالْحَقِّ عَلَى الْبَاطِلِ فَيَدْمَغُهُ فَإِذَا هُوَ زَاهِقٌ » وقال : « فَأَمَّا الزَّبَدُ فَيَذْهَبُ جُفَاءً وَأَمَّا مَا يَنْفَعُ النَّاسَ فَيَمْكُثُ فِي الْأَرْضِ » .

وقد صدق الله وعده فقد كان كفار قريش وصناديدها يبالغون فى عداوة النبى صلى الله عليه وسلم ، اغترارا بكثرتهم وثروتهم لايعتدون به ولا بغيره ممن آمن به أوّلا وأكثرهم من الضعفاء الفقراء ، فما زالوا يتدرجون فى عداوتهم له وقتالهم إياه حتى أظهره الله تعالى عليهم فى غزوة بدر فلم يعتبروا ، ثم زادهم غرورا تغلبهم عليه آخر معركة أُحُد حتى قال أبو سفيان : يوم بيوم بدر ــ إلى أن كان الفتح الأعظم : فتح مكة فأظهر رسوله صلى الله عليه وسلم ومن اتبعه عليهم من حيث لايعلمون سنته تعالى .

وأثر عن عمر رضى الله عنه أنه قال لما حملت إليه كنوز كسرى : اللهم إنى أعوذ بك أن أكون مستدرَجا فأنى سمعتك تقول (سنستدرجهم من حيث لايعلمون).

(وأملى لهم إن كيدى متين) أى وأمهل هؤلاء المكذبين المستدرَجين فى العمر وأمدّ لهم فى أسباب المعيشة والتدرّب على الحرب بمقتضى سننى فى نظام الاجتماع البشرى

كيدا لهم ومكرا بهم لا حبّا فيهم ونصرًا لهم كما قال تعالى : « فَذَرْهُمْ فِي غَمْرَتِهِمْ حَتَّى حِينٍ ، أَيَحْسَبُونَ أَنَّمَا نُمِدُّهُمْ بِهِ مِنْ مَالٍ وَبَنِينَ ، نُسَارِعُ لَهُمْ فِي الْخَيْرَاتِ بَلْ لَا يَشْعُرُونَ » وروى الشيخان من حديث أبى موسى : « إن الله ليملى للظالم حتى إذا أخذه لم يُفلته » .

وخلاصة ذلك — إن سنة الله قد مضت فى الأمم والأفراد بأن يكون عقابهم بمقتضى الأسباب التى قام بها نظام الخلق ، فالظالم إذا لم ينزل به العقاب عقب ظلمه ازداد بغيا وظلما ولا يحسب للعواقب حسابا فيسترسل فى ظلمه إلى أن تحيق به عاقبة ظلمه فى الدنيا بأخذ الحكام له أو بوقوعه فى المصايب والمهالك ، وله فى الآخرة عذاب النار وبئس القرار .

(أولم يتفكروا ما بصاحبهم من جنة ؟) أى أكذبوا الرسول ولم يتفكروا فى حاله من بدء نشأته وفى حقيقة دعوته ، ودلائل رسالته ، وآيات وحدانية الله وقدرته على إعادة خلقه كما بدأهم .

إنهم إن تفكروا فى ذلك مليّا أوشكوا أن يعرفوا الحق ، وما الحق إلا أن صاحبهم ليس به جنة ، وقد حكى الكتاب الكريم عنهم أنهم رموه بالجنون كقوله فى كفار مكة : « أَفَلَمْ يَدَّبَّرُوا الْقَوْلَ أَمْ جَاءَهُمْ مَا لَمْ يَأْتِ آبَاءَهُمُ الْأَوَّلِينَ ، أَمْ لَمْ يَعْرِفُوا رَسُولَهُمْ فَهُمْ لَهُ مُنْكِرُونَ ، أَمْ يَقُولُونَ بِهِ جِنَّةٌ بَلْ جَاءَهُمْ بِالْحَقِّ وَأَكْثَرُهُمْ لِلْحَقِّ كَارِهُونَ » وقوله : « وَقَالُوا يَا أَيُّهَا الَّذِي نُزِّلَ عَلَيْهِ الذِّكْرُ إِنَّكَ لَمَجْنُونٌ ، لَوْمَا تَأْتِينَا بِالْمَلَائِكَةِ إِنْ كُنْتَ مِنَ الصَّادِقِينَ » وقوله : « وَيَقُولُونَ أَئِنَّا لَتَارِكُوا آلِهَتِنَا لِشَاعِرٍ مَجْنُونٍ » وروى ابن جرير وابن المنذر عن قتاده قال : ذُكر لنا أن النبى صلى الله عليه وسلم قام على الصفا فدعا قريشا فخذا فخذا : يابنى فلان يابنى فلان يحذرهم بأس الله ووقائع الله إلى الصباح حتى قال قائلهم : إن صاحبكم هذا لمجنون: بات يهوّت (يصيح) حتى أصبح . فأنزل الله : « أَوَلَمْ يَتَفَكَّرُوا مَا بِصَاحِبِهِمْ

مِن جِنَّةٍ » وقد جرت عادة الكفار أن يرموا رسلهم بالجنون ، لأنهم ادعوا أن الله خصهم برسالته ووحيه على كونهم بشرا كغيرهم لايمتازون من سائر الناس بزعمهم ، ولأنهم ادعوا مالم يعهد له نظير عندهم ، فقد حكى الله عن قوم نوح أنهم اتهموه بالجنون فقالوا : « إِنْ هُوَ إِلاَّ رَجُلٌ بِهِ جِنَّةٌ فَتَرَبَّصُوا بِهِ حَتَّى حِينٍ » وقال فى شأنهم : « كَذَّبَتْ قَبْلَهُمْ قَوْمُ نُوحٍ فَكَذَّبُوا عَبْدَنَا وَقَالُوا مَجْنُونٌ وَازْدُجِرَ » وقال حكاية عن فرعون فى موسى عليه السلام : « قَالَ إِنَّ رَسُولَكُمُ الَّذِي أُرْسِلَ إِلَيْكُمْ لَمَجْنُونٌ » وقد بين سبحانه ذلك على وجه عام فقال : « كَذَلِكَ مَا أَتَى الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ مِنْ رَسُولٍ إِلاَّ قَالُوا سَاحِرٌ أَوْ مَجْنُونٌ » .

(إن هو إلا نذير مبين) أى إنه ليس بمجنون بل هو منذر ناصح ومبلغ عن الله ، فهو ينذركم ما يحل بكم من عذاب الدنيا والآخرة إذا لم تستجيبوا له ، وقد دعاكم إلى مافيه صلاحكم فى الدنيا بجمع الكلمة وصلاح حال الفرد والمجتمع والسيادة على من سواكم ، وصلاحكم فى الآخرة بلقاء ربكم وأنتم فى جنات النعيم .

والتعبير عنه صلى الله عليه وسلم (بصاحبهم) لتذكيرهم بأنهم يعرفونه من أول نشأته إلى أن تجاوز الأربعين من عمره ، فما عليهم إلا أن يتفكروا فى سيرته ليعلموا أنه ليس من دأبه الكذب ولا هو مما عهد عنه كما شهد بذلك بعض زعمائهم فقال : إن محمدا لم يكذب قط على أحد من الناس ، أفيكذب على الله ؟ ومن ثم قال تعالى فى أولئك الزعماء : « فَإِنَّهُمْ لاَ يُكَذِّبُونَكَ وَلَكِنَّ الظَّالِمِينَ بِآيَاتِ اللهِ يَجْحَدُونَ » .

ولو تأمل مشركو مكة فى نشأته صلى الله عليه وسلم وما جربوا من أمانته وصدقه إلى أن اكتهل ثم تفكروا فيما قام يدعوهم إليه من توحيد الله وعبادته وحده ، وما دعاهم إليه من إصلاح فى حالهم الدينية والمدنية والاجتماعية لعلموا أن هذا كله لايصدر من مجنون ، بل الذى يقتضيه العقل ويسرع إليه الفكر أن هذا ليس من رأى ذلك النبى الأمى الناشئ بين الأميين، وأن ماأقامه من الحجج والبراهين العقلية والكونية

على ما يدعى لا يصدر ممن لم يناظر ولم يفاخر ولم يجادل أحدا فيما مضى ، إن هو إلا وحى من الله ألقاه فى رُوعه ونزل من لدنه على روح القدس ، والله يختص بفضله ورحمته من يشاء وهو ذو الفضل العظيم .

(أولم ينظروا فى ملكوت السموات والأرض وما خلق الله من شىء وأن عسى أن يكون قد اقترب أجلهم) أى أكذبوا الرسول الذى علموا صدقه وأمانته وقالوا إنه مجنون ، وهو الذى شُهر لديهم بالروية والعقل ، ولم ينظروا نظرة تأمل واستدلال فى هذا الملكوت العظيم من السموات والأرضين ، فيروا ذلك النظام البديع فيهما وفى كل ما خلق الله ، وإن دق وصغر ، إنهم لو تأملوا فى كل ذلك لرأوا آثار قدرته وعلمه وفضله ورحمته وأنه لم يخلق شيئا من ذلك عبثا ، ولا ترك الناس سدى .

إن كل ذرة فيهما لدليل لائح على الصانع المجيد ، وسبيل واضح إلى التوحيد .

وفى كل شىء له آية تدل على أنه الواحد

إنهم لو نظروا فى شىء من ملكوت السموات والأرض لاهتدوا بدلائله إلى تصديق الرسول صلى الله عليه وسلم ، كذلك لو نظروا فى توقع قرب أجلهم وقدومهم على ربهم بسوء عملهم لاحتاطوا لأنفسهم ورأوا أن من الحكمة أن يقبلوا إنذاره صلى الله عليه وسلم لهم ، فما جاءهم به لا ينكرون أنه خير لهم فى الدنيا ، وهو خير لهم فى الآخرة إذا صدق ما يقرره من أمر البعث والجزاء ، وهو صدق وحق لاشك فيه .

(فبأى حديث بعده يؤمنون ؟) أى فبأى حديث بعد القرآن يؤمنون إذا لم يؤمنوا به ، وهو أكمل كتب الله بيانا وأقواها برهانا ، فمن لم يؤمن به فلا مطمع فى إيمانه بغيره .

(من يضلل الله فلا هادى له) أى إن الله قد جعل هذا الكتاب أعظم أسباب الهداية للمتقين لا للجاحدين المعاندين ، وجعل الرسول المبلغ له أقوى الرسل برهانا وأكملهم عقلا وأجملهم أخلاقا ، فمن فقد الاستعداد للإيمان بهذا الكتاب وهذا الرسول فهو الذى أضله الله : أى هو الذى قضت سنته فى خلق الإنسان وارتباط

أعماله بأسباب تترتب عليها مسبباتها ، بأن يكون ضالاً راسخا فى الضلال ، وإذا كان ضلاله بمقتضى تلك السنن فمن يهديه من بعد الله ؟ ولا قدرة لأحد من خلقه على تغيير تلك السنن وتبديلها .

(ويذرهم فى طغيانهم يعمهون) أى وهو جلت قدرته يترك هؤلاء الضالين فى طغيانهم يترددون حيرة ولا يهتدون سبيلا للخروج مما هم فيه ، بما كسبت أيديهم من الطغيان وتجاوز الحد فى الظلم والفجور .

والخلاصة — إنه ليس معنى إضلال الله لهم أنه أجبرهم على الضلال وأعجزهم بقدرته عن الهدى فكان ضلالهم جبرا لا اختيارا ، بل المراد أنهم لما مرنت قلوبهم على الكفر والضلال وأسرفوا فيهما حتى وصلوا إلى حد العمه فى الطغيان ، فقدوا بهذه الأعمال الاختيارية ما يضادها من الهدى والإيمان فأصبحت نفوسهم لا تستنير بالهدى وقلوبهم لا ترعوى لدى الذكرى : « كَلَّا بَلْ رَانَ عَلَى قُلُوبِهِمْ مَا كَانُوا يَكْسِبُونَ » .

يَسْئَلُونَكَ عَنِ السَّاعَةِ أَيَّانَ مُرْسَاهَا ؟ قُلْ إِنَّمَا عِلْمُهَا عِنْدَ رَبِّى لَا يُجَلِّيهَا لِوَقْتِهَا إِلَّا هُوَ ثَقُلَتْ فِى السَّمٰوَاتِ وَالْأَرْضِ لَا تَأْتِيكُمْ إِلَّا بَغْتَةً يَسْئَلُونَكَ كَأَنَّكَ حَفِىٌّ عَنْهَا قُلْ إِنَّمَا عِلْمُهَا عِنْدَ اللّٰهِ وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ (١٨٧) .

شرح المفردات

الساعة لغة : جزء قليل غير معين من الزمن ، وعند الفلكيين : جزء من أربع وعشرين جزءا متساوية يضبط بآلة تسمى (الساعة) وقد كان ذلك معروفا عند العرب وجاء فى الحديث « يوم الجمعة اثنتا عشرة ساعة » وقد تطلق بمعنى الوقت الحاضر

وبمعنى الوقت الذى تقوم فيه القيامة ، وأكثر استعمال (ساعة) بدون أل فى الكتاب الكريم بمعنى الساعة الزمانية ، وبأل بمعنى الساعة الشرعية ، وهى ساعة خراب العالم وموت أهل الأرض جميعا ، وجاء المعنيان فى قوله تعالى : « وَيَوْمَ تَقُومُ السَّاعَةُ يُقْسِمُ الْمُجْرِمُونَ . مَا لَبِثُوا غَيْرَ سَاعَةٍ » والغالب التعبير بيوم القيامة عن يوم البعث والحشر الذى يكون فيه الحساب والجزاء ، والتعبير بالساعة عن الوقت الذى يموت فيه الأحياء فى هذا العالم ويضطرب نظامه ، فالساعة مبدأ ، والقيامة غاية ، وأيان : بمعنى متى ، فهى للسؤال عن الزمان ، ومرساها : أى إرساؤها وحصولها واستقرارها ، ويقال رسا الشيء يرسو : إذا ثبت وأرساه غيره ، ومنه إرساء السفينة وإيقافها بالمرساة التى تلقى فى البحر فتمنعها من الجريان كما قال تعالى : « بِاسْمِ اللهِ مَجْرِيهَا وَمُرْسَاهَا » وجلى فلان الأمر تجلية : أظهره أتم الإظهار ، ولوقتها : أى فى وقتها كما يقال كتبت هذا لغرة رمضان : أى فى غرته ، وبغتة : فجأة من غير توقع ولا انتظار ، وحفىّ من قولهم : أحفى فى السؤال ألحف ، وهو حفى عن الأمر : بليغ فى السؤال عنه، واستحفيته عن كذا : استخبرته على وجه المبالغة ، وتحفى بك فلان : إذا تلطف بك وبالغ فى إكرامك .

المعنى الجملى

بعد أن أرشد تعالت أسماؤه من كانوا فى عصر التنزيل وعصر نزول السورة إلى النظر والتفكر فى اقتراب أجلهم بقوله : « وَأَنْ عَسَى أَنْ يَكُونَ قَدِ اقْتَرَبَ أَجَلُهُمْ » قفى على ذلك بالإرشاد إلى النظر والتفكر فى أمر الساعة التى ينتهى بها أجل جميع الناس .

والخلاصة — إن هذا كلام فى الساعة العامة بعد الكلام فى الساعة الخاصة بكل فرد وهى انتهاء أجله .

الإيضاح

(يسألونك عن الساعة أيان مرساها) أى يسألونك أيها الرسول عن الساعة ـ يقولون متى إرساؤها واستقرارها ، والسائلون هم قريش لأن السورة مكية ولم يكن فى مكة أحد من اليهود، وسؤالهم عن هذا الوقت استبعاد منهم لوقوعه وتكذيب بوجوده كما جاء حكاية عنهم : « وَيَقُولُونَ مَتَى هَذَا الْوَعْدُ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ » وقال تعالى : « يَسْتَعْجِلُ بِهَا الَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِهَا وَالَّذِينَ آمَنُوا مُشْفِقُونَ مِنْهَا وَيَعْلَمُونَ أَنَّهَا الْحَقُّ، أَلَا إِنَّ الَّذِينَ يُمَارُونَ فِي السَّاعَةِ لَفِي ضَلَالٍ بَعِيدٍ » .

وفى التعبير عن زمن وقوعها بالإرساء الدال على استقرار ما شأنه الحركة والاضطراب ـ إيماء إلى أن قيام الساعة هو انتهاء أمر هـذا العالم وانقضاء عمر هذه الأرض التى تدور بما فيها من العوالم المتحركة المضطربة .

(قل إنما علمها عند ربى) أى قل لهم إن علم الساعة عند ربى وحده لاعندى ولا عند غيرى من الخلق ، وقد جاء بمعنى الآية قوله : « إِلَيْهِ يُرَدُّ عِلْمُ السَّاعَةِ وَمَا تَخْرُجُ مِنْ ثَمَرَاتٍ مِنْ أَكْمَامِهَا » وقوله : « يَسْأَلُونَكَ عَنِ السَّاعَةِ أَيَّانَ مُرْسَاهَا . فِيمَ أَنْتَ مِنْ ذِكْرَاهَا . إِلَى رَبِّكَ مُنْتَهَاهَا » .

وفى قوله عند ربى إشارة إلى أن ماهو من شأن الرب لايكون للعبد، فالله قدأعد نبيه ليكون منذرا ومبشرا ، والإنذار إنما يكون بالساعة وأهوالها ، لا للإخبار عن الغيوب بأعيانها وأوقاتها ، إذ تحديد ذلك ينافى هـذه الفائدة بل فيه مفاسد ، إذ لو وقّت الرسول ميعاد الساعة بتاريخ معين لاستهزأ به المكذبون ولألحوا فى تكذيبه وازدادوا ارتيابا ، حتى إذا ماوقع الأجل وقع المؤمنون فى رعب عظيم ينغص عليهم حياتهم ويشنج أعصابهم فلا يستطيعون عملا ولا يسيغون طعاما ولا شرابا وسخر الكافرون من المؤمنين ، وقد حدث أن أخبر بعض رجال الكنيسة فى أوربة

أن القيامة ستكون فى سنة كذا فهلعت القلوب واختلت الأعمال وأهمل أمر العيال ولم تهدأ النفوس إلا بعد أن ظهر كذب النبأ .

والخلاصة — إن هناك حكمة بالغة فى إبهام أمر الساعة العامة للعالَم ، والساعة الخاصة بالأفراد والأمم والأجيال ، بجعلها من الغيب الذى استأثر الله تعالى به .

(لا يجليها لوقتها إلا هو) أى لا يكشف حجاب الخفاء عنها ولا يظهرها فى وقتها المحدود عند الله تعالى إلا هو ، إذ لا وساطة بينه و بين عباده فى إظهارها ولا الإعلام بميقاتها ، و إنما وساطة الرسل فى الإنذار بها .

(ثقلت فى السموات والأرض) أى ثقل وقتها وعظم أمرها فى السموات والأرض على أهلهما من الملائكة والإنس والجن ، لأن الله أنبأهم بأهوالها ولم يشعرهم بميقاتها ، فهم دائما يتوقعون أمرا عظيما لا يدرون متى يفجؤهم وقوعه .

وقال السدى : خفيت فى السموات والأرض فلا يعلم قيامها ملَك مقرب ولا نبى مرسل ، وقال ابن عباس ليس شىء من الخلق إلا يصيبه من ضرر يوم القيامة . وروى عن ابن جريج أن ثقلها يكون يوم مجيئها (إذا الشمس كورت، و إذا الكواكب انتثرت) إلى نحو ذلك مما وصفه الله تعالى من أمر قيامها .

(لا تأتيكم إلا بغتة) أى لا تأتيكم إلا فجأة وعلى حين غفلة بلا إشعار ولا إنذار وقد جاء فى الصحيحين عن أبى هريرة « ولتقومنّ الساعة وقد نشر الرجلان ثوبهما بينهما يتبايعانه ولا يطويانه ، ولتقومن الساعة وهو يليط (يطلى حجارته بجصّ ونحوه ليمسك الماء) حوضه فلا يسقى فيه ، ولتقومن الساعة وقد رفع أحدكم أُكلته إلى فيه فلا يطْعَمُها » والمراد من كل هذا أنها تبغت الناس وهم منهمكون فى أمور معايشهم ، فيجب على المؤمنين أن يخافوا ذلك اليوم ، وأن يحملهم ذلك على مراقبة الله تعالى فى أعمالهم بأن يلتزموا فيها الحق ويتحروا الخير ويتقوا الشر والمعاصى ولا يجعلوا حظهم من أمر الساعة ، الجدل فيها وكثرة القيل والقال فى شأنها وفى تعيين ميقاتها .

(يسألونك كأنك حفىّ عنها) أى يسألونك كأنك حفى مبالغ فى سؤال ربك عنها.
وقد يكون المعنى : يسألونك عنها كأنك حفى بهم ، وبينك وبينهم مودة وكأنك صديق لهم ، ويؤيد هذا ما روى عن ابن عباس قال : لما سأل الناس النبى صلى الله عليه وسلم عن الساعة ـ سألوه سؤال قوم كأن محمدا حفى بهم ، فأوحى الله إليه ـ إنما علمها عنده استأثر به فلا يُطلع عليه ملكا مقربا ولا رسولا . وما روى عن قتادة قال : قالت قريش لمحمد صلى الله عليه وسلم : إن بيننا وبينك قرابة ، فأشر إلينا متى الساعة ؟ فقال الله عز وجل : « يَسْأَلُونَكَ كَأَنَّكَ حَفِيٌّ عَنْهَا » .

(قل إنما علمها عند الله) هذا تكرار للجواب إثر تكرير السؤال مبالغة فى التأكيد ، وإيئاس لهم من العلم بوقت مجيئها وتخطئة لمن يسألون عنه .

وعبر هنا بلفظ الجلالة (الله) إشارة إلى أنه استأثر بعلم هذا لذاته ، كما أشعر ما قبله بأنه من شئون ربوبيته ، وكلاهما مستحيل على خلقه .

(ولكن أكثر الناس لايعلمون) أى لايعلمون اختصاص علمها به تعالى ولا حكمة ذلك ولا أدب السؤال ولا نحو ذلك مما ينبغى أن يعلم فى هذا الباب ، وإنما يعلم ذلك القليلون وهم المؤمنون بما جاء فى كتاب الله من أخبارها وبما سمع من رسوله صلى الله عليه وسلم كمن حضروا تمثل جبريل عليه السلام بصورة رجل وسؤاله النبى صلى الله عليه وسلم عن الإيمان والإسلام والإحسان ، ثم عن الساعة ، وإجابة النبى صلى الله عليه وسلم له عن سؤاله الأخير بقوله : « ما المسئول عنها بأعلم من السائل » أى إنا سواء فى جهل هذا الأمر فلا يعلم أحد منا متى تقوم الساعة .

قال الألوسى : وإنما أخفى سبحانه أمر الساعة لاقتضاء الحكمة التشريعية ذلك فإنه أدعى إلى الطاعة وأزجر عن المعصية ، كما أن إخفاء الأجل الخاص للإنسان كذلك ، وظاهر الآيات أنه عليه السلام لم يعلم وقتها ، نعم علم عليه الصلاة والسلام قربها على الإجمال وأخبر صلى الله عليه وسلم به فقد أخرج الترمذى وصححه أنس

مرفوعا « بعثت أنا والساعة كهاتين ، وأشار بالسبابة والوسطى » وفى الصحيحين عن ابن عمر مرفوعا أيضا « إنما أجلكم فيمن مضى قبلكم من الأمم من صلاة العصر إلى غروب الشمس » اهـ .

عمر الدنيا

ألف السيوطى رسالة سماها : (الكشف، عن مجاوزة هذه الأمة الألف) أخرج فيها عدة أحاديث فى أن عمر الدنيا سبعة آلاف سنة ، وأن مدة هذه الأمة تزيد على ألف ولا تبلغ الزيادة خمسمائة سنة ، وسمى بعضهم الألف الثانية بالألف المخضرمة لأن نصفها دنيا ونصفها الآخر أخرى .

ولا شك أن ما جاء فى هذا الباب كله مأخوذ من الإسرائيليات التى كان يبثها زنادقة اليهود والفرس فى المسلمين حتى رووه مرفوعا ، وقد اغترّ بها من لا ينظر فى نقد الروايات إلا من جهة أسانيدها ، وقد هدمها الزمان وهدم كثيرا مثلها من الأوهام والخرافات التى أريد بها الكيد للإسلام .

والخلاصة — إن القول بتعيين مدة الدنيا من أولها إلى آخرها بسبعة آلاف لم يثبت فى نص يعتمد عليه ، وإن كانت قد رويت عنه آثار عن السلف أكثرها مأخوذ عن أهل الكتاب وفى أسانيدها مقال :

وعلماء طبقات الأرض (الجيلوجيا) فى هذا العصر يجزمون بأن عمر الدنيا الماضى يعدّ بألوف ألوف السنين بناء على ما عرف بالحفر فى طبقات الأرض ، وبناء على ما وجد من آثار للبشر منذ مئات الألوف من السنين ، وذلك ينقض ما جاء فى سفر التكوين من التوراة ، ولا ينقض من القرآن شيئا : « وَلَوْ كَانَ مِنْ عِنْدِ غَيْرِ اللهِ لَوَجَدُوا فِيهِ اخْتِلَافًا كَثِيرًا » ولا من الأحاديث القطعية التى لاشبهة فيها للدسائس الإسرائيلية ولا المكايد الفارسية المجوسية .

قال ابن حزم المتوفى سنة ٤٥٦ : أما نحن فلا نقطع على علم عدد معروف عندنا ،

ومن ادعى فى ذلك سبعة آلاف سنة أو أكثر أو أقل فقد قال مالم يأت قط عن رسول الله صلى الله عليه وسلم فيه لفظة تصح بل صح عنه خلافه ، بل نقطع على أن للدنيا أمدا لايعلمه إلا الله تعالى . قال الله سبحانه : « مَا أَشْهَدْتُهُمْ خَلْقَ السَّمٰوَاتِ وَالْأَرْضِ وَلَا خَلْقَ أَنْفُسِهِمْ » وقال رسول الله صلى الله عليه وسلم : « ما أنتم فى الأمم قبلكم إلا كالشعرة البيضاء فى الثور الأسود ، أو كالشعرة السوداء فى الثور الأبيض» وهذه نسبة من تدبرها وعرف مقدار عدد أهل الإسلام ونسبة ما بأيديهم من معمور الأرض وأنه الأكبر ، علم أن للدنيا أمدا لايعلمه إلا الله اه .

وعلى الجملة فبطلا الإسرائيليات و ينبوع الخرافات فى تحديد عمر الدنيا: هما كعب الأحبار ووهب بن منبه ، وقد جعلاه ستة آلاف وهو فى التوراة سبعة آلاف غشا للمسلمين .

أشراط الساعة وأماراتها

الأشراط : واحدها شَرَط كأسباب وسبب وهى العلامات والأمارات الدالة على قربها ، وقد ثبت فى الكتاب والسنة أن للساعة أشراطا كما قال تعالى : « فَهَلْ يَنْظُرُونَ إِلَّا السَّاعَةَ أَنْ تَأْتِيَهُمْ بَغْتَةً فَقَدْ جَاءَ أَشْرَاطُهَا ، فَأَنَّى لَهُمْ إِذَا جَاءَتْهُمْ ذِكْرَاهُمْ» ومن أعظم أشراطها بعثة خاتم النبيين بآخر هداية الوحى الإلهى للناس أجمعين ، فبعثته قد كمل بها الدين ، و بكماله تكمل الحياة البشرية الروحية ، و يتلوها كمال الحياة المادية ، وما بعد الكمال إلا الزوال .

وقد وردت أحاديث فى أشراط الساعة يدل بعضها على أن الشهوات المادية تتنازع مع الهداية الروحية فيكون لها الغلب زمنا ثم تنتصر الهداية الروحية ثم يغلب الضلال والشر والفجور والكفر حتى تقوم الساعة على شرار الخلق .

وقد قسموا أشراطها ثلاثة أقسام :

(١) ما وقع بالفعل منـذ قرون خلت كقتال اليهود وفتح بيت المقدس والقسطنطينية .

(٢) ما وقع بعضه وهو لايزال فى ازدياد كالفتن والفسوق وكثرة الزنا وكثرة الدجالين وكثرة النساء وتشبههن بالرجال والكفر والشرك حتى فى بلاد العرب .

(٣) ما سيقع بين يدى الساعة من العلامات الصغرى والكبرى :

المهدى المنتظر

أشهر الروايات أن اسمه محمد بن عبد الله ، والشيعة يقولون إنه محمد بن الحسن العسكرى ويلقبونه بالحجة والقائم والمنتظر ، ويقولون إنه دخل السرداب فى دار أبيه فى مدينة (سرّ من رأى) التى تسمى الآن (سامرا) سنة ٢٦٥ وله من العمر تسع سنين وأنه لا يزال فى السرداب حيا ، وزعمت الكيْسانية أنه محمد بن الحنفية وأنه حىّ مقيم بجبل رَضْوى (جبل بالمدينة) بين أسدين يحفظانه وعنده عينان نضاختان تفيضان عسلا ولبنا ومعه أربعون من أصحابه .

والمشهور فى نسبه أنه علوى فاطمى من ولد الحسن ، وهناك رواية مصرحة بأنه من ولد العباس فقد روى الرافعى عن ابن عباس أن النبى صلى الله عليه وسلم قال للعباس : ألا أبشرك يا عم ؟ إن من ذريتك الأصفياء ، ومن عترتك الخلفاء ، ومنك المهدى فى آخر الزمان ، به ينشر الله الهدى ويطفىء نيران الضلالة إن الله فتح بنا هذا الأمر وبذريتك يختم ، ومن حديث ابن عساكر عنه مرفوعا « اللهم انصر العباس وولد العباس (ثلاثا) ياعم أما علمت أن المهدى من ولدك موفقا مرضيا » وفى معناها أحاديث أخرى لأبى هريرة وأم سلمة وعلىّ .

وأكثر العلماء ينكرون هذه الأحاديث ويقولون إنها موضوعة لانصيب لها من الصحة ، ومن ثم لم يعتد بها الشيخان ، ومن هؤلاء ابن خلدون فقد ذكر الأحاديث التى وردت فى المهدى وضعّفها وضعف أسانيدها وانتهت به خاتمة المطاف إلى أنه

لم يصح فيه شيء يوثق به — إلى أن قال : إن لله سننا فى الأمم والدول والعمران ، مطردة فى كل زمان ومكان ، كما ثبت فى مصحف القرآن وصحف الأكوان ، ومنها أن الدول لاتقوم إلا بعصبية ، وأن الأعاجم قد سلبوا العصبية من قريش والعترة النبوية ، فإن صحت أخبار هذا المهدى فلا يظهر إلا بعد تجديد عصبية هاشمية علوية ولو سمعوا وعقلوا لسعوا وعملوا ولكان استعدادهم لظهور المهدى بالاهتداء بسنن الله رحمة لهم تجاه ما كانوا فى أخباره من الفتن والنقم فيهم ، وربما أغناهم عن بعض ما يروجون من زعامته إن لم يغنهم عنه كله .

هذا والمسلمون لايزالون يتكلون على ظهور المهدى ويزعم دهماؤهم أنه سينقض لهم سنن الله أو يبدلها تبديلا وهم يتلون قوله تعالى : « فَهَلْ يَنْظُرُونَ إِلَّا سُنَّةَ الْأَوَّلِينَ فَلَنْ تَجِدَ لِسُنَّةِ اللهِ تَبْدِيلاً وَلَنْ تَجِدَ لِسُنَّةِ اللهِ تَحْوِيلاً » فإذا كان من أشراط الساعة آيات وكان فى زمانها خوارق عادات فهل يضرهم أن تأتيهم وهم على هدى من ربهم وإقامة لشرعهم فى عزة وسلطان فى أرضهم ... وكان لكعب الأحبار جولة وسعة فى تلفيق تلك الأخبار اه .

وقد كانت هذه المسألة أكبر مثارات الفساد والفتن فى الشعوب الإسلامية إذ تصدى كثير من محبى الملك والسلطان ومن أدعياء الولاية لدعوى المهدوية فى الشرق والغرب وتأييد دعواهم بالقتال والحرب وبالبدع والإفساد فى الأرض حتى خرج ألوف الألوف من هداة الدين ومرقوا من الإسلام .

وقد كان من حصافة الرأى أن يكون خروج المهدى باعثا لهم على الاستعداد لظهوره بتأليف عصبة قوية بزعامته تجدد الإسلام وتنشر العدل فى الأنام لكنهم لم يفعلوا بل تركوا ما يجب من حفظ سلطان الملة بجمع كلمة الأمة وبإعداد ما استطاعوا من حول وقوة واتكلوا على قرب ظهور المهدى وأنه هو الذى سيرد إليهم ملكهم بالكرامات وخوارق العادات لا بالمدافع والدبابات والطيارات والقاذفات والأساطيل

والغواصات ، وقد فاتهم أن الحرب كانت بين النبي صلى الله عليه وسلم وبين المشركين سجالاً وكان المؤمنون ينفرون منه خفافا وثقالا ، فهل يكون المهدى أهدى منه أعمالا وأحسن منه حالا ومآلا .

قُلْ لاَ أَمْلِكُ لِنَفْسِي نَفْعاً وَلاَ ضَرّاً إِلاَّ مَا شَاءَ اللهُ وَلَوْ كُنْتُ أَعْلَمُ الْغَيْبَ لاَسْتَكْثَرْتُ مِنَ الْخَيْرِ وَمَا مَسَّنِيَ السُّوءُ إِنْ أَنَا إِلاَّ نَذِيرٌ وَبَشِيرٌ لِقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ (١٨٨) .

شرح المفردات

الغيب قسمان : حقيقي لا يعلمه إلا الله تعالى ، وإضافى يعلمه بعض الخلق دون بعض ، والخير ما يرغب الناس فيه من المنافع المادية والمعنوية : كالمال والعلم ، والسوء ما يرغبون عنه مما يسوءهم ويضرهم ، والإنذار : تبليغ مقترن بتخويف من العقاب على الكفر والمعاصى ، والتبشير : تبليغ مقترن بترغيب فى الثواب مع الإيمان والطاعة .

المعنى الجملى

بعد أن أمر الله تعالى خاتم رسله أن يجيب السائلين عن الساعة بأنّ علمها عند الله تعالى وحده، قفّى على ذلك بأمره أن يبين للناس أن كل الأمور بيده وحده وأن علم الغيب كله عنده .

وهذه الآية أسّ من أسس الدين وقواعد عقائده إذ بينت حقيقة الرسالة وفصلت بينها وبين الربوبية وهدمت قواعد الشرك واجتثت جذور الوثنية .

الإيضاح

(قل لا أملك لنفسى نفعا ولا ضرا إلا ما شاء الله) أى قل يأيها الرسول للناس فيما تبلغه لهم من أمر دينهم : إنى لا أملك لنفسى ولا لغيرى جلب نفع ولا دفع ضر

مستقلا بقدرتي على ذلك ، وإنما أملكهما بقدرة الله ، فإذا أقدرني على جلب النفع جلبته بفعل أسبابه ، وإذا أقدرني على منع الضر منعته بتسخير الأسباب كذلك .

وقد كان المسلمون ولاسيما حديثو العهد بالإسلام يظنون أن منصب الرسالة يقتضى علم الساعة وغيرها من علم الغيب، وأن الرسول يقدر على ما لايصل إليه كسب البشر من جلب النفع ومنع الضر عن نفسه وعمن يحب أو عمن يشاء أو منع النفع وإحداث الضر بمن يكره أو بمن يشاء ، فأمره الله أن يبين للناس أن منصب الرسالة لايقتضى ذلك، وأن وظيفة الرسول إنما هى التعليم والإرشاد لاالخلق والإيجاد ، وأنه لايعلم من الغيب إلامايتعلق بذلك مما علمه الله بوحيه، وأنه فيما عدا ذلك بشر كسائر الناس : « قُلْ إِنَّمَا أَنَا بَشَرٌ مِثْلُكُمْ يُوحَى إِلَيَّ » .

(ولو كنت أعلم الغيب لاستكثرت من الخير وما مسنى السوء) أى لا أملك لنفسى نفعا ولا ضرا ولا أعلم الغيب ، ولو كنت أعلم الغيب لاستكثرت من الخير كالمال ونحوه ، ولما مسنى السوء الذى يمكن الاحتياط لدفعه بعلم الغيب .

قال ابن كثير : أمره الله تعالى أن يفوض الأمر إليه وأن يخبر عن نفسه أنه لايعلم الغيب فى المستقبل ولا اطّلاع له على شىء من ذلك إلا ما أطلعه الله عليه كما قال : « عَالِمُ الْغَيْبِ فَلاَ يُظْهِرُ عَلَى غَيْبِهِ أَحَدًا » وقوله : « وَلَوْ كُنْتُ أَعْلَمُ الْغَيْبَ لاَسْتَكْثَرْتُ مِنَ الْخَيْرِ » وروى الضحاك عن ابن عباس (ولو كنت أعلم الغيب لاستكثرت من الخير) أى من المال ، وفى رواية « لعلمت إذا اشتريت شيئا ما أربح فيه، فلا أبيع شيئا إلا ربحت فيه ولا يصيبنى الفقر » . وقال ابن جرير : أى لو كنت أعلم الغيب لأعددت للسنة المجدبة من المخصبة ولوقت الغلاء من الرخص . وقال عبد الله بن زيد بن أسلم (وما مسنى السوء) قال لاجتنبت ما يكون من الشر قبل أن يكون واتقيته اه .

ثم علل نفي امتيازه من البشر بملك النفع والضر من غير طرق الأسباب وسنن الله فى الخلق ونفى امتيازه عنهم بعلم الغيب فقال :

(إن أنا إلا نذير و بشير لقوم يؤمنون) أى إنه لا امتياز له عن جميع البشر إلا بالتبليغ عن الله عز وجل بالإنذار والتبشير ، وكل منهما يوجه إلى جميع أمة الدعوة والآيات فى ذلك كثيرة نحو : « لِتُبَشِّرَ بِهِ الْمُتَّقِينَ وَتُنْذِرَ بِهِ قَوْماً لُدًّا » وقوله : « إِنَّمَا تُنْذِرُ الَّذِينَ يَخْشَوْنَ رَبَّهُمْ بِالْغَيْبِ وَأَقَامُوا الصَّلَاةَ » .

والخلاصة — إن الرسل عليهم الصلاة والسلام عباد مكرمون لا يشاركون الله فى صفاته ولا فى أفعاله ولا سلطان لهم على التأثير فى علمه ولا فى تدبيره ، و إنما يمتازون باختصاص الله تعالى إياهم بوحيه واصطفائهم لتبليغ رسالته لعباده وجعلهم قدوة صالحة للناس فى العمل بما جاءوا به عن الله من الصلاح والتقوى والأخلاق الفاضلة .

هُوَ الَّذِي خَلَقَكُمْ مِنْ نَفْسٍ وَاحِدَةٍ وَجَعَلَ مِنْهَا زَوْجَهَا لِيَسْكُنَ إِلَيْهَا فَلَمَّا تَغَشَّاهَا حَمَلَتْ حَمْلاً خَفِيفاً فَمَرَّتْ بِهِ فَلَمَّا أَثْقَلَتْ دَعَوَا اللَّهَ رَبَّهُمَا لَئِنْ آتَيْتَنَا صَالِحًا لَنَكُونَنَّ مِنَ الشَّاكِرِينَ (١٨٩) فَلَمَّا آتَاهُمَا صَالِحًا جَعَلَا لَهُ شُرَكَاءَ فِيمَا آتَاهُمَا، فَتَعَالَى اللَّهُ عَمَّا يُشْرِكُونَ (١٩٠) أَيُشْرِكُونَ مَا لَا يَخْلُقُ شَيْئًا وَهُمْ يُخْلَقُونَ (١٩١) وَلَا يَسْتَطِيعُونَ لَهُمْ نَصْرًا وَلَا أَنْفُسَهُمْ يَنْصُرُونَ (١٩٢) وَإِنْ تَدْعُوهُمْ إِلَى الْهُدَى لَا يَتَّبِعُوكُمْ سَوَاءٌ عَلَيْكُمْ أَدَعَوْتُمُوهُمْ أَمْ أَنْتُمْ صَامِتُونَ (١٩٣) .

شرح المفردات

من نفس واحدة : أى من جنس واحد ، ليسكن اليها : أى ليأنس بها و يطمئن إليها ، وتغشاها : أتاها كغشيها و يراد بالتغشى أداء وظيفة الزوجية ، ومقتضى الفطرة

وآداب الدين أن يكون ذلك فى السر ، حملت : أى علقت منه والحمل (بالفتح) ما كان فى بطن أو على شجرة (وبالكسر) ما كان على ظهر ونحوه ، فمرت به : أى استمرت به إلى وقت ميلاده من غير إخراج ولا إزلاق ، واستمرت فى أعمالها وقضاء حاجتها من غير مشقة ولا استثقال ، وأثقلت : أى حان وقت ثقل حملها وقرب وضعها ، صالحا : أى نسلا سليما من فساد الخلقة كنقص بعض الأعضاء ، فتعالى الله : أى ارتفع مجده وتعالى جده وتنزه عن شرك هؤلاء الجهلاء .

المعنى الجملى

بعد أن افتتح الله السورة بالدعوة إلى التوحيد واتباع ما أنزل الله وتلاه بالتذكير بنشأة الإنسان الأولى فى الخلق والتكوين والعداوة بينه و بين الشيطان .

اختتم السورة بهـذه المعانى ، فذكّر بالنشأة الأولى ونهى عن الشرك واتباع وسوسة الشيطان وأمر بالتوحيد واتباع ما جاء به القرآن .

الإيضاح

(هو الذى خلقكم من نفس واحدة وجعل منها زوجها ليسكن إليها) أى هو الذى خلقكم من جنس واحد وجعل زوجه من جنسه فكانا زوجين ذكرا وأنثى كما قال فى آية أخرى : « يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِنَّا خَلَقْنَاكُمْ مِنْ ذَكَرٍ وَأُنْثَى » .

وهكذا خلق من كل الأنواع ومن كل أجناس الأحياء زوجين اثنين كما قال عز من قائل : « وَمِنْ كُلِّ شَىْءٍ خَلَقْنَا زَوْجَيْنِ لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ » .

والمشاهد أن كل خلية من الخلايا التى ينمو بها الجسم الحى تنطوى على نواتين ذكر وأنثى إذا اقترنتا ولدتا خلية أخرى وهلم جرا .

وفى التوراة : إن حواء خلقت من ضلع من أضلاع آدم ، وعليه حمل بعض العلماء الحديث : « استوصوا بالنساء فإن المرأة خلقت من ضلع و إن أعوج شىء فى الضلع

أعلاه فإن ذهبت تقيمه كسرته ، وإن تركته لم يزل أعوج فاستوصوا بالنساء خيرا »
رواه الشيخان عن أبى هريرة مرفوعا .

ولكن المحققين ذهبوا فى تفسيره إلى أن المراد أنها ذات اعوجاج وشذوذ تخالف به الرجل ، ويؤيده ما رواه ابن حبان عن أبى هريرة « إن المرأة خلقت من ضلع أعوج » فهو على حد قوله تعالى : « خُلِقَ الْإِنْسَانُ مِنْ عَجَلٍ » .

وفى التعبير عن ميل الزوج الجنسى إلى زوجه هنا وفى الروم بالسكون إشارة إلى أن المرء متى بلغ سن الحياة الزوجية يجد فى نفسه اضطرابا لايسكن إلا إذا اقترن بزوج من جنسه واتحدا ذلك الاتحاد الذى لا تكمل حياتهما الجنسية المنتجة إلا به .

(فلما تغشاها حملت حملا خفيفا فمرت به) أى فلما تغشى الذكر الأنثى علقت منه وكان الحمل أول عهده خفيفا لا تكاد تشعر به ، وقد تستدل على وجوده بارتفاع الحيض فحسب ، ومن ثم استمرت فى أعمالها وقضاء حاجتها من غير مشقة ولا استثقال.

(فلما أثقلت دعوا الله ربهما : لئن آتيتنا صالحا لنكونن من الشاكرين) أى فلما حان قرب وضعها وكبر الولد فى بطنها ، توجها : أى آدم وحواء إلى الله ربهما بدعواته أن يعطيهما ولدا صالحا : أى تام الخلق يصلح للقيام بالأعمال النافعة التى يعملها البشر ، وأقسما على ما وطنا عليه أنفسهما من الشكر له إزاء هذه النعمة قولاً وعملاً واعتقادا .

(فلما آتاهما صالحا جعلا له شركاء فيما آتاهما) أى فلما أعطاهما ما طلبا وجاء الولد بشرا سويا لانقص فيه ولا فساد فى تركيب جسمه جعلا له شركاء فيما أعطاه : أى أظهرا ما كان راسخا فى أنفسهما منه .

وقد نسب هذا الجعل إلى آدم وحواء والمراد أولادهما ، قال الحسن البصرى : هم اليهود والنصارى رزقهم الله أولادا فهوّدوا ونصّروا .

وقال الحافظ ابن كثير : أما نحن فعلى مذهب الحسن البصرى فى هذا وأنه

ليس المراد من السياق آدم وحواء ، و إنما المراد من ذلك المشركون من ذريته ، ولهذا قال : « فتعالى الله عما يشركون » ثم قال فذكره آدم وحواء أولا كالتوطئة لما بعدها من الوالدين ، وهو كالاستطراد من ذكر الشخص إلى الجنس اه .

وقال صاحب الانتصاف : إن المراد جنس الذكر والأنثى لايقصد فيه إلى معين وكأن المعنى والله أعلم : خلقكم جنسا واحدا وجعل أزواجكم منكم أيضا لتسكنوا إليهن فلما تغشى الجنس الذى هو الذكر الجنس الذى هو الأنثى جرى من هذين الجنسين كيت وكيت ، و إنما نسب هذه المقالة إلى الجنس و إن كان فيهم الموحدون ، لأن المشركين منهم كقوله : « وَيَقُولُ الْإِنْسَانُ أَئِذَا مَا مِتُّ لَسَوْفَ أُخْرَجُ حَيًّا » وقوله : « قُتِلَ الْإِنْسَانُ مَا أَكْفَرَهُ » وقوله : « إِنَّ الْإِنْسَانَ لَفِي خُسْرٍ » اه .

وقال صاحب الكشاف : إن المراد بالزوجين الجنس لا فردان معينان، والغرض بيان حال البشر فيما طرأ عليهم من نزعات الشرك الخفى والجلى فى هذا الشأن وأمثاله والجنس يصدق ببعض أفراده اه .

وبهذا تعلم أن ما روى عن بعض الصحابة والتابعين من أن الآية فى آدم وحواء وما روى فى حديث سمُرة بن جُنْدُب مرفوعا قال « لما ولدت حواء طاف بها إبليس وكان لايعيش لها ولد فقال سميه عبد الحارث فانه يعيش ، فسمته عبد الحارث فعاش فكان ذلك من وحى الشيطان » ونحوه آثار كثيرة فى هذا المعنى مفصلة ومطولة ـ فهو خرافة من دس الإسرائيليين نقلت عن مثل كعب الأحبار ووهب بن منبه فلا يوثق بها ، لأن فيها طعنا صريحا فى آدم وحواء عليهما السلام ورمياً لهما بالشرك ، ومن ثم رفضها كثير من المفسرين ، وقال الحافظ ابن كثير : وهذه الآثار يظهر عليها والله أعلم أنها من آثار أهل الكتاب وقد صح الحديث عن رسول الله صلى الله عليه وسلم أنه قال : « إذا حدثكم أهل الكتاب فلا تصدقوهم ولا تكذبوهم » .

وأخبار أهل الكتاب ثلاثة أقسام :

(١) فمنها ماعلمنا صحته بما دل عليه الدليل من كتاب الله وسنة رسوله .

(٢) ومنها ماعلمنا كذبه بما دل الدليل على خلافه من الكتاب والسنة أيضا .
(٣) ومنها ماهو مسكوت عنه فهو المأذون فى روايته بقوله عليه السلام «حدثوا عن بنى إسرائيل ولا حرج » وهو لايصدق ولا يكذب لقوله : « فلا تصدقوهم ولا تكذبوهم » .

ثم بين سبحانه فساد رأيهم وسخافة عقولهم لهذا الشرك فقال :

(أيشركون ما لايخلق شيئا وهم يخلقون) أى أيشركون به سبحانه وهو الخالق لهم ولأولادهم ولكل مخلوق ما لايخلق شيئا و إن كان حقيرا كما قال : « إِنَّ الَّذِينَ تَدْعُونَ مِنْ دُونِ اللهِ لَنْ يَخْلُقُوا ذُبَابًا وَلَوِ اجْتَمَعُوا لَهُ » بل هم مخلوقون أيضا ولا يليق بذى العقل السليم أن يجعل المخلوق العاجز شريكا للخالق القادر .

والآية وما بعدها حكاية لشرك عباد الأصنام عامة ، وينتظم فيهم مشركو مكة وأمثالهم ممن نزل القرآن فى عهدهم ، وتوبيخ لهم بتفصيل أحوال أولئك الشركاء التى تنافى ما اعتقدوه .

(ولا يستطيعون لهم نصرا ولا أنفسهم ينصرون) أى ولا يستطيعون لعابديهم معونة إذا حزبهم أمر مهم وخطب ملم كما لايستطيعون لأنفسهم نصرا على من يعتدى عليهم بإهانة لهم أو أخذ شىء مما عندهم من طيب أو حلى كما قال تعالى : « وَإِنْ يَسْلُبْهُمُ الذُّبَابُ شَيْئًا لَايَسْتَنْقِذُوهُ مِنْهُ ، ضَعُفَ الطَّالِبُ وَالْمَطْلُوبُ » .

والخلاصة — إنهم يحتاجون إليكم فى تكريمهم وفى النضال عنهم وأنتم لاتحتاجون إليهم .

(وإن تدعوهم إلى الهدى لايتبعوكم) أى وإن تدعوهم إلى أن يهدوكم إلى ما تحصلون به رغباتكم أو تنجون به من المكاره التى تحيق بكم ، لا يتبعوكم فلا يستجيبوا لكم ولا ينفعوكم .

ثم أكد عدم نفعهم فقال :

(سواء عليكم أدعوتموهم أم أنتم صامتون) أى مستو لديكم دعاؤكم إياهم وبقاؤكم على صمتكم ، فإنه لايتغير حالكم فى كلتا الحالين ، إذ هم لايفهمون دعاءكم ولا يسمعون أصواتكم ولا يعقلون ما يقال لهم .

والخلاصة — إنه لاينبغى أن يعبد من كانت هذه صفته ، وإنما الرب المعبود هو النافع من يعبده ، الضار من يعصيه ، الناصر وليه ، الخاذل عدوه ، الهادى إلى الرشاد من أطاعه ، السامع دعاء من دعاه .

ولا شك أن هذه الحجة قائمة على من يقصدون قبور الأولياء والصلحاء ويعظمونها ويطلبون منها قضاء الحاجات ، لأن هذه الأوصاف التى سيقت فى معرض التوبيخ والانكار تنطبق على حالهم أشد الانطباق ، فهم لاينفعون ولا يضرون (وسواء عليكم أدعوتموهم أم أنتم صامتون) وقد روى البخارى عن ابن عباس فى أصنام قوم نوح التى انتقلت إلى العرب ، أنها لم تنصب إلا للتذكير بأناس من الأولياء والصالحين وقد كانت اللات صخرة لرجل يلتّ عليها السويق ويطعم الناس .

والخلاصة — إن الأصنام والتماثيل والقبور التى تعظم تعظيما دينيا ، عمل لم يأذن به الله ، وكلها سواء فى كونها وضعت للتذكير بأناس عرفوا بالصلاح وكانوا هم المقصودين بالدعاء تخيلا من عابديها بأن لها تأثيرا فى إرادة الله أو التصرف الغيبى فى ملك الله ، وذلك من أفحش الشرك وأقبحه ، ولا فرق بين إشراك الصنم والوثن وإشراك الولى أو النبى أو الملك .

إِنَّ الَّذِينَ تَدْعُونَ مِنْ دُونِ اللهِ عِبَادٌ أَمْثَالُكُمْ فَادْعُوهُمْ فَلْيَسْتَجِيبُوا لَكُمْ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ (١٩٤) أَلَهُمْ أَرْجُلٌ يَمْشُونَ بِهَا أَمْ لَهُمْ أَيْدٍ يَبْطِشُونَ بِهَا أَمْ لَهُمْ أَعْيُنٌ يُبْصِرُونَ بِهَا أَمْ لَهُمْ آذَانٌ يَسْمَعُونَ بِهَا قُلِ ادْعُوا شُرَكَاءَكُمْ ثُمَّ كِيدُونِ فَلَا تُنْظِرُونِ (١٩٥) إِنَّ وَلِيِّيَ اللهُ الَّذِى نَزَّلَ

الْكِتَابَ وَهُوَ يَتَوَلَّى الصَّالِحِينَ (١٩٦) وَالَّذِينَ تَدْعُونَ مِنْ دُونِهِ لَا يَسْتَطِيعُونَ نَصْرَكُمْ وَلَا أَنْفُسَهُمْ يَنْصُرُونَ (١٩٧) وَإِنْ تَدْعُوهُمْ إِلَى الْهُدَى لَا يَسْمَعُوا وَتَرَاهُمْ يَنْظُرُونَ إِلَيْكَ وَهُمْ لَا يُبْصِرُونَ (١٩٨) .

المعنى الجملى

هذه الآيات الكريمة من تتمة ماقبلها مؤكدة له ومقررة لما تتضمنه وهو إثبات التوحيد ونفى الشرك ، وهو رأس الإسلام وركنه المتين ، فلا غرو أن يتكرر الكلام فيه فى القرآن ، نفيا وإثباتا ليتأكد فى النفوس ويثبت فى القلوب وبه تخلع جذور الوثنية ويحل محلها نور الوحدانية .

الإيضاح

(إن الذين تدعون من دون الله عباد أمثالكم) الدعاء هو النداء لدفع الضر وجلب النفع الذى يوجه إلى من يعتقد الداعى أن له سلطانا يمكنه أن يجيبه إلى ماطلبه إما بذاته وإما بحمله الرب الخالق على ذلك : أى إن الذين تدعونهم من دون الله هم عباد أمثالكم فى كونهم مخلوقين لله خاضعين لإرادته وقدرته ، وإذا كانوا أمثالكم كان من المستحيل عقلا أن تطلبوا منهم ما لاتستطيعون نيله بأنفسكم ولا بمساعدة أمثالكم ، وإنما يدعى الرب الخالق لما وراء الأسباب المشتركة بين الخلق ، والذى تخضع لإرادته الأسباب وهو لايخضع لها ، ولا لإرادة أحد يحمله على ما لايشاؤه منها.

(فادعوهم فليستجيبوا لكم إن كنتم صادقين) أى إن كنتم صادقين فى زعمكم أنهم قادرون على ما تعجزون عنه بقواكم البشرية من نفع أو ضر فادعوهم فليستجيبوا لكم إما بأنفسهم وإما بحملهم الرب تبارك وتعالى على إعطائكم ما تطلبون .

ثم ارتقى سبحانه فى الرد عليهم وأثبت أنهم ليسوا أمثالهم بل أحط منهم منزلة ودونهم رتبة ، ووبخهم وأنبهم على عبادة هذه الأحجار والأصنام فقال :

(ألهم أرجل يمشون بها أم لهم أيد يبطشون بها أم لهم أعين يبصرون بها ؟) أى إن هؤلاء فقدوا وسائل الكسب التى يناط بها النفع والضر فى هذه الحياة ، فليس لهم أرجل يسعون بها إلى دفع ضر أو جلب نفع ، وليس لهم أيد يبطشون بها فيما ترجون منهم من خير أو تخافون من شر ، وليس لهم أعين يبصرون بها حالكم ولا آذان يسمعون بها أقوالكم ويعرفون بها مطالبكم ، فهم ليسوا مثلكم بل دونكم فى الصفات والقوى التى أودعها الله فى الخلق ، فكيف ترفعونهم عن مماثلتكم وهم دونكم بالاختبار والمشاهدة .

وإنكم تستكبرون عن قبول الهدى والرشاد من الرسول ويقول بعضكم لبعض : « مَا هَذَا إِلاَّ بَشَرٌ مِثْلُكُمْ يَأْكُلُ مِمَّا تَأْكُلُونَ مِنْهُ وَيَشْرَبُ مِمَّا تَشْرَبُونَ . وَلَئِنْ أَطَعْتُمْ بَشَرًا مِثْلَكُمْ إِنَّكُمْ إِذًا لَخَاسِرُونَ » .

فما بالكم تأبون قبول الحق والخير من مثلكم وقد فضله الله عليكم بالعلم والهدى ثم ترفعون ما دونه ودونكم إلى مقام الألوهية مع انحطاطه عن درجة المثلية .

(قل ادعوا شركاءكم ثم كيدون فلا تنظرون) أى قل أيها الرسول لهؤلاء الذين يحتقرون نعم الله عليهم : نادوا شركاءكم الذين اتخذتموهم أولياء ، ثم تعاونوا على كيدى جميعا وأوقعوا الضرّ بى سريعا ، فلا تنظرون أى لا تؤخرونى ساعة من نهار.

والحكمة فى مطالبتهم بهذا ، أن العقائد الموروثة يتضاءل دونها كل برهان ولا يجدى معها دليل ، ومن ثم طالبهم بأمر عملى ينزع هذا الوهم من أعماق القلوب ، وهو أن ينادوا هؤلاء الشركاء ويستنجدوا بهم لصد دعوة الداعين إلى الكفر بها وإثبات العجز لها وإنكار مالها من سلطان غيبى وتدبير كامن، فإن كان لها حقا سلطان فى أنفسها أو من عند الله فهذا إبّان ظهوره ، وإلا فمتى يظهر ليساعد أبطال عبادتها وينصر عابديها ومعظّمى شأنها ، ومن الجلى أن القوم كانوا ينكرون البعث فكل ما يرجونه منها من خير أو يخافونه منها من شر فهو فى هذه الحياة .

ثم بين حقارة هذه المعبودات وعابديها على ما كان به من ضعف وقلة ناصر وهو بمكة حين نزول هذه السورة فقال :

(إن وليّي الله الذى نزل الكتاب وهو يتولى الصالحين) أى إن متولى أمرى وناصرى هو الله الذى نزل علىّ الكتاب المؤيد لوحدانيته ووجوب عبادته ودعائه عند الشدائد والملمات ، والناعى على المشركين عبادة غيره من وثن أو صنم ، وهو يتولى نصر الصالحين من عباده ، وهم من صلحت أنفسهم بصحيح العقائد وسلمت من الأوهام والخرافات ، والأعمال التى تصلح بها شئون الأفراد والجماعات ، فينصرهم على ذوى الخرافات والأوهام وفاسدى العقائد والأحكام والأحلام تصديقا لقوله : « فَأَمَّا الزَّبَدُ فَيَذْهَبُ جُفَاءً ، وَأَمَّا مَا يَنْفَعُ النَّاسَ فَيَمْكُثُ فِي الْأَرْضِ كَذَٰلِكَ يَضْرِبُ اللَّهُ الْأَمْثَالَ » .

ثم أكد ما سلف بقوله :

(والذين تدعون من دونه لا يستطيعون نصركم ولا أنفسهم ينصرون) أى وإن من تدعونهم لنصركم وجلب النفع لكم ودفع الضر عنكم عاجزون فلاهم بالمستطيعين نصركم ولا نصر أنفسهم على من يحقر شأنهم أو يسلبهم شيئا مما وضع عليهم من طيب أو حلى ، فقد كسر إبراهيم صلوات الله عليه الأصنام فجعلهم جذاذا فما استطاعوا أن يدفعوه عن أنفسهم ولا أن ينتقموا منه لها .

وقد روى عن معاذ بن عمرو بن الجموح ومعاذ بن جبل رضى الله عنهما ـ وكانا شابين من الأنصار قد أسلما لما قدم النبى صلى الله عليه وسلم المدينة ـ أنهما كانا يعدوان فى الليل على أصنام المشركين يكسرانها ويتلفانها ويتخذانها حطبا للأرامل ليعتبر قومهما بذلك ويرتئوا لأنفسهم رأيا آخر .

وكان لعمرو بن الجموح (وكان سيد قومه) صنم يعبده فكانا يجيئان فى الليل فينكسانه على رأسه ويلطخانه بالعذرة فيجىء عمرو فيرى ما صنع به فيغسله ويطيبه ويضع عنده سيفا ويقول له انتصر ، ثم يعودان لمثل ذلك ويعود إلى صنيعه

أيضا ، حتى أخذاه مرة فقرناه مع كلب ميت ودلياه فى حبل فى بئر هناك ، فلما جاء ورأى ذلك علم أن ما كان عليه من الدين باطل وأنشد :

تالله لو كنت إلها مستدن لم تك والكلب جميعا فى قرن

ثم أسلم وحسن إسلامه ، وقتل يوم أحد شهيدا رضى الله عنه .

و بعد أن نفى عنهم القدرة على النصرة قفى على ذلك بنفى قدرتهم على الإرشاد إلى الهدى والرشاد فقال :

(وإن تدعوهم إلى الهدى لايسمعوا) أى وإن تدعوهم إلى أن يهدوكم إلى ماتحصلون به مقاصدكم وتنتصرون به : من أسباب خفية أو ظاهرة ـ لايسمعوا دعاءكم فضلا عن مدّ يد المعونة والمساعدة .

والآية كقوله : «إِنْ تَدْعُوهُمْ لاَيَسْمَعُوا دُعَاءَكُمْ ، وَلَوْ سَمِعُوا مَااسْتَجَابُوا لَكُمْ» .

(وتراهم ينظرون إليك وهم لايبصرون) أى وتراهم أيها المخاطب ينظرون إليك بما وضع لهم من أعين صناعية وحدق زجاجية أو جوهرية موجهة إلى من يدخل عليها كأنها تنظر إليه وهم لايبصرون بها ؛ لأن حاسة الإبصار لاتحصل بالصناعة ، وإنما هى من خواص الحياة التى استأثر الله بها .

وهم إذ فقدوا السمع لا يسمعون نداء ولا دعاء ممن يعبدونهم ولا من غيرهم وإذ فقدوا البصر لا يبصرون حاله وحال خصمه ، فكيف يرجى منهم نصر وشد أزر أو أى معونة أخرى ، أو كيف يخشى منهم إيصال ضر وأذى لمن يحتقرهم ؟ .

خُذِ الْعَفْوَ وَأْمُرْ بِالْعُرْفِ وَأَعْرِضْ عَنِ الْجَاهِلِينَ (١٩٩) .

المعنى الجملى

بعد أن ذكر سبحانه أن الله هو الذى يتولى أمره وينصره ، وأن الأصنام وعابديها لا يقدرون على إيذائه وإيصال الضر إليه بيّن فى هذه الآية النهج القويم والصراط المستقيم فى معاملة الناس .

وهذه الآية تشمل أصول الفضائل فهى من أسس التشريع التى تلى فى المرتبة أصول العقيدة المبنية على التوحيد الذى تقرر فيما سلف بأبلغ وجه وأتم برهان وحجة.

الإيضاح

(خذ العفو وأمر بالعرف وأعرض عن الجاهلين) أمر الله نبيه فى هـذه الآية بثلاثة أشياء هى أسس عامة للشريعة فى الآداب النفسية والأحكام العملية .

(١) العفو : وهو السهل الذى لا كلفة فيه : أى خذ ما عفا لك من أفعال الناس وأخلاقهم وما أتى منهم وتسهل من غير كلفة ، ولا تطلب منهم ما يشق عليهم حتى ينفروا ، وهذا كما جاء فى الحديث « يسروا ولا تعسروا) وقال الشاعر :

خذى العفو منى تستديمى مودتى ولاتنطقى فى سَوْرتى حين أغضب

وقيل إن المعنى خذ العفو وما تسهل من صدقاتهم .

والخلاصة — إن من آداب الدين وقواعده اليسر وتجنب الحرج وما يشق على الناس ، وقد صح أن النبى صلى الله عليه وسلم ما خير بين أمرين إلا اختار أيسرهما.

(٢) الأمر بالمعروف : وهو ماتعرفه النفس من الخير وتأنس به وتطمئن إليه ، ولا شك أن هـذا مبنى على اعتبار عادات الأمة الحسنة وما تتواطأ عليه من الأمور النافعة فى مصالحها .

و إجمال القول فيه — إنه اسم جامع لكل ماعرف من طاعة الله والتقرب إليه والإحسان إلى الناس .

وقد ذكر المعروف فى السور المدنية فى الأحكام الشرعية العملية كوصف الأمة الإسلامية وحكومتها كقوله : « الَّذِينَ إِنْ مَكَّنَّاهُمْ فِي الْأَرْضِ أَقَامُوا الصَّلَاةَ وَآتَوُا الزَّكَاةَ وَأَمَرُوا بِالْمَعْرُوفِ وَنَهَوْا عَنِ الْمُنْكَرِ » وقوله : « وَلْتَكُنْ مِنْكُمْ أُمَّةٌ يَدْعُونَ إِلَى الْخَيْرِ وَيَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنْكَرِ، وَأُولَئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ » .

وعند ذكر الحقوق الزوجية كقوله : « وَلَهُنَّ مِثْلُ الَّذِى عَلَيْهِنَّ بِالْمَعْرُوفِ وَلِلرِّجَالِ عَلَيْهِنَّ دَرَجَةٌ » وفى أحكام الطلاق كقوله : « فَإِمْسَاكٌ بِمَعْرُوفٍ أَوْ تَسْرِيحٌ بِإِحْسَانٍ » وقوله : « فَأَمْسِكُوهُنَّ بِمَعْرُوفٍ أَوْ سَرِّحُوهُنَّ بِمَعْرُوفٍ » ومن ذلك ترى أن هذا اللفظ (المعروف) لم يذكر إلا فى الأحكام الهامة ، وأن المراد به ماهو معهود بين الناس فى المعاملات والعادات ، ولاشك أنه يختلف باختلاف الشعوب والبلاد والأوقات ، ومن ثم قال بعض الأئمة : المعروف ما يستحسن فى العقل فعله ولا تنكره العقول الصحيحة، ويكفى المسلمين المحافظة على النصوص الثابتة ، إذ لا يمكن المؤمن أن يستنكر ما جاء عن الله ورسوله ، وليكن للجماعة الإسلامية بعده رأى فيما يعرفون وينكرون ويستحسنون ويستهجنون ، ويكون عمدتهم فى ذلك جمهور العقلاء وأهل الفضل والأدب فى كل عصر .

(٣) الإعراض عن الجاهلين ، وهم السفهاء بترك معاشرتهم وعدم مماراتهم ، ولاعلاج للوقاية من أذاهم إلا الإعراض عنهم، وقد روى عن جعفر الصادق رضى الله عنه أنه قال : ليس فى القرآن آية أجمع لمكارم الأخلاق منها ، وروى الطبرى وغيره عن جابر أنه لما نزلت هذه الآية سأل النبى صلى الله عليه وسلم جبريل عنها فقال : لا أعلم حتى أسأل ثم رجع فقال : إن ربك يأمرك أن تصل من قطعك ، وتعطى من حرمك ، وتعفو عمن ظلمك ، وأخذ بعض الشعراء هذا المعنى فقال :

خـــذ العفو وأمر بعرف كما أمرت وأعرض عن الجاهلين

ولِنْ فى الكلام لكل الأنام فمستحسن من ذوى الجاه لين

وقال بعض العلماء : هذه الآية قد تضمنت قواعد الشريعة ، فلم يبق فيها حسنة إلا وعتها ، ولا فضيلة إلا شرحتها فقوله : « خذ العفو » إيماء إلى جانب اللين ونفى الحرج فى الأخذ والإعطاء وأمور التكليف ، وقوله : « وأمر بالعرف » تناول جميع المأمورات والمنهيات ، وأنهما ما عرف فى الشريعة حكمه ، واتفقت القلوب على علمه

وقوله : « وأعرض عن الجاهلين » تناول جانب الصفح بالصبر الذى يتأتى للعبد به كل مراد فى نفسه وغيره اه :

وَإِمَّا يَنْزَغَنَّكَ مِنَ الشَّيْطَانِ نَزْغٌ فَاسْتَعِذْ بِاللَّهِ ، إِنَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ (٢٠٠) إِنَّ الَّذِينَ اتَّقَوْا إِذَا مَسَّهُمْ طَائِفٌ مِنَ الشَّيْطَانِ تَذَكَّرُوا فَإِذَا هُمْ مُبْصِرُونَ (٢٠١) وَإِخْوَانُهُمْ يَمُدُّونَهُمْ فِي الْغَيِّ ثُمَّ لَا يُقْصِرُونَ (٢٠٣) .

شرح المفردات

النزغ كالنخس والنغز والوكز : إصابة الجسد برأس شىء محدد كالإبرة والمهماز والرمح ، والمراد به هنا نزغ الشيطان بإثارته داعيـة الشر والفساد فى النفس بداعية غضب أو شهوة بحيث تلجىء صاحبها إلى العمل بتأثيرها كما تنخس الدابة بالمهماز لتسرع ، والاستعاذة بالله الالتجاء إليه ليقيك من شر هذا النزغ ، والطوف والطواف بالشىء : الاستدارة به أوحوله ، وطيف الخيال: ما يرى فى النوم من مثال الشخص ، والمس : يراد به هنا ما ينال الإنسان من شر وأذى ، فقد ذكر فى التنزيل مس الضر والضراء والبأساء والسوء والعذاب . والمد والإمداد : الزيادة فى الشىء من جنسه ، واستعمل فى القرآن فى الخلق والتكوين كقوله : « وَهُوَ الَّذِى مَدَّ الْأَرْضَ » وقوله : « أَلَمْ تَرَ إِلَى رَبِّكَ كَيْفَ مَدَّ الظِّلَّ » وفى مدّ الناس فيما يذم ويضر كقوله: « قُلْ مَنْ كَانَ فِي الضَّلَالَةِ فَلْيَمْدُدْ لَهُ الرَّحْمَنُ مَدًّا » . والإقصار : التقصير ، ويقال أقصر عن الأمر : تركه وكف عنه وهو قادر عليه .

المعنى الجملى

بعد أن ذكر سبحانه فى الآيات السابقة أمثل الطرق فى معاملة الناس بعضهم بعضا مما لو عملوا بهديه لم يجد الفساد إلى نفوسهم سبيلا — قفى على ذلك بالوصية التى

تتضمنها هذه الآيات الثلاث، وهى اتقاء إفساد الشياطين : أى شياطين الجن المستترة ـ فالآية السالفة أمرت بالإعراض عن الجاهلين وهم السفهاء اتقاء لشرهم ـ وهذه الآيات أمرت بالاستعاذة بالله من الشياطين اتقاء لشرهم .

الإيضاح

(وإما ينزغنك من الشيطان نزغ فاستعذ بالله إنه سميع عليم) أى وإن يثر فيك الشيطان داعية الشر والفساد بسبب غضب أو شهوة ، فيجعلك تتأثر وتتحرك للعمل بها كما تتأثر الدابة إذا نخست بالمهماز فتسرع ـ فالجأ إلى الله وتوجه إليه بقلبك ليعيذك من شر هذا النزغ ، حتى لا يحملك على ما يزعجك من الشر ، وعبّر عن ذلك بلسانك فقل : أعوذ بالله من الشيطان الرجيم ، فإنه سميع لما تقول ، عليم بما يحدثك به نفسك ويجيش به صدرك ، فهو يصرف عنك تأثير نزغه بتزيين الشر ، وقد دلت التجربة على أن الالتجاء إلى الله تعالى وذكره بالقلب واللسان يصرف عن النفس وسوسة الشيطان كما قال تعالى : « فَإِذَا قَرَأْتَ الْقُرْآنَ فَاسْتَعِذْ بِاللَّهِ مِنَ الشَّيْطَانِ الرَّجِيمِ ، إِنَّهُ لَيْسَ لَهُ سُلْطَانٌ عَلَى الَّذِينَ آمَنُوا وَعَلَى رَبِّهِمْ يَتَوَكَّلُونَ » والخطاب فى الآية وما ماثلها من الآيات موجه إلى كل مكلف يبلغه ، وأولهم الرسول صلى الله عليه وسلم، وقيل إنه موجه إلى الرسول والمراد أمته ، وقد روى مسلم عن عائشة وابن مسعود أن النبي صلى الله عليه وسلم قال : «ما منكم من أحد إلا وقد وكل به قرينه من الجن ـ قالوا وإياك يا رسول الله ؟ قال : وإياى إلا أن الله أعانني عليه فأسلم منه».

ثم بين سبحانه وجه سلامة من يستعيذ من الشيطان من الوقوع فيها فقال :

(إن الذين اتقوا إذا مسهم طائف من الشيطان تذكروا فإذا هم مبصرون) أى إن خيار المؤمنين وهم الذين يؤمنون بالغيب ويقيمون الصلاة ومما رزقناهم ينفقون ـ إذا ألمّ بهم طائف من الشيطان ليحملهم بوسوسته على المعصية أو إيقاع البغضاء بينهم تذكروا أن هذا من إغواء الشيطان عدوهم الذى أمر الله بالاستعاذة منه والالتجاء إليه فى الحفظ

من غوايته فإذا هم أولو بصيرة يربئون بأنفسهم أن تطيعه ، فهو إنما تأخذ وسوسته الغافلين عن ربهم الذين لا يراقبونه فى شئونهم وأعمالهم ، ولا شىء أقوى على طرد وساوس الشيطان من ذكر الله ومراقبته فى السر والعلن من قِبَل أنه يقوى فى النفس حب الحق وداعى الخير ، و يضعف فيها الميل إلى الشرور والآثام ، فما مثل المؤمن المتقى الذى لا يتمكن الشيطان من إغوائه و إن تمكن من مسه ، إلا مثل الصحيح الجسم القوى المزاج النظيف البدن والثوب والمكان لا تجد النسم (الميكروبات) طريقا لإفساد مزاجه و إصابته بالأمراض ، فإن مسه شىء منها بدخوله فى جسمه فتكت بها نسم الصحة فحالت دون فتكها به ، وهذا ما يسميه الأطباء (المناعة) .

فقوىّ الروح بالإيمان والتقوى غير قابل لتأثير الشيطان فى نفسه ، لكن الشيطان دائما يتحين الفرص وعروض بعض الأهواء النفسية من شهوة أو غضب أو داعية حسد أو انتقام ، حتى إذا وجد الفرصة سانحة افترصها ولابس النفس وقوّى فيها داعى الشر كالحشرات القذرة التى تعرض للنظيف إذا أهملها بالغفلة عنها فعلت فعلها ، و إذا تداركها نجا من شرها وضرها ، وماسرّ هذا إلا المناعة النفسية أو الروحية .

و إن الإنسان ليشعر بتنازع دواعى الخير والشر فى نفسه ، وأن لداعية الخير والحق ملكا يقويها ، ولداعية الشر والباطل شيطانا يقويها، وقد بين النبى صلى الله عليه وسلم ذلك بقوله « إن للشيطان لَمَّة بابن آدم وللملك لَمَّة ، فأما لمة الشيطان فإيعاد بالشر وتكذيب بالحق ، وأما لمة الملك فإيعاد بالخير وتصديق بالحق ، فمن وجد ذلك فليعلم أنه من الله فليحمد الله على ذلك ، ومن وجد الأخرى فليتعوذ من الشيطان ثم قرأ : « الشَّيْطَانُ يَعِدُكُمُ الْفَقْرَ وَيَأْمُرُكُمْ بِالْفَحْشَاءِ » .

(وإخوانهم يمدونهم فى الغىِّ ثم لا يقصرون) أى إن إخوان الشياطين وهم الجاهلون الذين لا يتقون الله ــ يتمكن الشياطين من إغوائهم فيمدونهم فى غيهم وإفسادهم ، لأنهم لا يذكرون الله إذا شعروا بالنزوع إلى الشر ولا يستعيذون به من

نزغ الشيطان ومسه ، إما لأنهم لايؤمنون بالله و إما لأنهم لايؤمنون بأن للإنسان شيطانا من الجن يوسوس إليه ويغريه بالشر — ثم لايقصرون ولا يكفون عن إغوائهم و إفسادهم ، فلذلك يصرون على الشر والفساد لفقد الوازع النفسى والواعظ القلبى .

والخلاصة — إن المؤمنين إذا مسهم طائف من الشيطان لحملهم على المعاصى تذكروا فأبصروا وحذروا وسلموا و إن ذلوا تابوا وأنابوا ، و إن إخوان الشياطين تتمكن الشياطين من إغوائهم فيمدونهم فى غيهم ، ولا يكفون عن ذلك ، ومن ثم تراهم يستمرون فى شرورهم وآثامهم لفقد الوازع النفسى .

وَإِذَا لَمْ تَأْتِهِمْ بِآيَةٍ قَالُوا لَوْلَا اجْتَبَيْتَهَا قُلْ إِنَّمَا أَتَّبِعُ مَا يُوحَى إِلَيَّ مِنْ رَبِّي هَٰذَا بَصَائِرُ مِنْ رَبِّكُمْ وَهُدًى وَرَحْمَةٌ لِقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ (٢٠٣)

المعنى الجملى

بعد أن ذكر سبحانه فى الآية السالفة أن شياطين الجن والإنس لايقصرون فى الإغواء والإضلال — قفى على ذلك بذكر نوع خاص من هذا الإغواء وهو طلبهم آيات معينة ومعجزات مخصوصة تعنتا كما قال تعالى حكاية عنهم : « وَقَالُوا لَنْ نُؤْمِنَ لَكَ حَتَّى تَفْجُرَ لَنَا مِنَ الْأَرْضِ يَنْبُوعًا » أى إذا لم تأتهم بما طلبوا قالوا هلا افتعلتها وأتيت بها من عند نفسك ، لأنهم كانوا يقولون : « إِنْ هَذَا إِلَّا إِفْكٌ مُفْتَرًى » .

الإيضاح

(وإذا لم تأتهم بآية قالوا لولا اجتبيتها) قال الفراء تقول العرب : اجتبيت الكلام واختلقته وارتجلته إذا افتعلتَه من قِبَل نفسك : أى و إذا لم يأتهم الرسول بآية قرآنية بأن تراخى نزول الوحى زمنا ما — قالوا لولا افتعلت نظمها وتأليفها واخترعتها

من تلقاء نفسك ، وقد يكون المعنى : وإذا لم تأتهم بآية مما اقترحوا عليك قالوا : هلا حباك الله بها بأن مكنك منها فاجتبيتها وأبرزتها لنا ، إن كنت صادقا فى أن الله يقبل دعاءك ويجيب التماسك .

(قل إنما أتبع ما يوحى إلىّ من ربى) أى إنه ليس لى أن أقترح على ربى أمرا من الأمور وإنما أنتظر الوحى فكل شىء أكرمنى به قلته وإلا وجب علىّ السكوت وترك الاقتراح ، وفى معنى الآية قوله تعالى : « وَإِذَا تُتْلَى عَلَيْهِمْ آيَاتُنَا بَيِّنَاتٍ قَالَ الَّذِينَ لَا يَرْجُونَ لِقَاءَنَا ائْتِ بِقُرْءَانٍ غَيْرِ هَذَا أَوْ بَدِّلْهُ قُلْ مَا يَكُونُ لِي أَنْ أُبَدِّلَهُ مِنْ تِلْقَاءِ نَفْسِي إِنْ أَتَّبِعُ إِلَّا مَا يُوحَى إِلَيَّ » .

وقد يكون المعنى ما أنا بقادر على إيجاد الآيات الكونية ولا بمفتات على الله فى طلبها وإنما أنا متبع لما يوحى إلى فضلا من ربى علىّ إذ جعلنى مبلغا عنه .

وقد وصف الله تعالى القرآن بثلاثة أوصاف :

(١) (هذا بصائر من ربكم) بصائر أى حجج بينة وبراهين نيرة للعقول فى الدلالة على التوحيد والنبوة والمعاد : أى إن هذا القرآن الذى أوحاه الله إلىّ بصائر وحجج من ربكم ، من يتأملها حق التأمل يكن بصير العقل بما تدل عليه من الحق ، فهى أدل عليه مما تطلبون من الآيات الكونية .

ونحو الآية قوله : « قَدْ جَاءَكُمْ بَصَائِرُ مِنْ رَبِّكُمْ فَمَنْ أَبْصَرَ فَلِنَفْسِهِ وَمَنْ عَمِيَ فَعَلَيْهَا » .

(٢) (وهدى) أى وهو هدى إلى الحق وإلى طريق مستقيم .

(٣) (ورحمة لقوم يؤمنون) أى ورحمة فى الدنيا والآخرة للذين يؤمنون به كما قال تعالى : « وَهَٰذَا كِتَابٌ أَنْزَلْنَاهُ مُبَارَكٌ فَاتَّبِعُوهُ وَاتَّقُوا لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ » .

وهذه الأوصاف له بالنسبة إلى معتنقيه، ذاك أن منهم من بلغ فى معارف التوحيد والنبوة والمعاد مرتبة أصبح بها كالمشاهد لها وهم السابقون الأولون من المهاجرين

والأنصار والقرآن لهؤلاء بصائر، ومنهم من دون ذلك والقرآن لهم هدى ، وهو فى حق المؤمنين عامة رحمة لاجرم قال لقوم يؤمنون .

وَإِذَا قُرِئَ الْقُرْآنُ فَاسْتَمِعُوا لَهُ وَأَنْصِتُوا لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ (٢٠٤) وَاذْكُرْ رَبَّكَ فِي نَفْسِكَ تَضَرُّعًا وَخِيفَةً وَدُونَ الْجَهْرِ مِنَ الْقَوْلِ بِالْغُدُوِّ وَالْآصَالِ وَلَا تَكُنْ مِنَ الْغَافِلِينَ (٢٠٥) إِنَّ الَّذِينَ عِنْدَ رَبِّكَ لَا يَسْتَكْبِرُونَ عَنْ عِبَادَتِهِ وَيُسَبِّحُونَهُ وَلَهُ يَسْجُدُونَ (٢٠٦) .

شرح المفردات

الاستماع : أخص من السمع ، لأنه إنما يكون بقصد ونية أو توجيه الحاسة إلى الكلام لإدراكه ، أما السمع : فيحصل ولو بغير قصد ، والإنصات : السكوت لأجل الاستماع حتى لا يكون شاغل عن الإحاطة بكل ما يقرأ ، والتضرع : إظهار الضراعة ، وهى الذلة والضعف والخضوع ، والخيفة: حالة الخوف والخشية ، ودون الجهر أى ذكرا دون الجهر برفع الصوت وفوق التخافت والسر : بأن يذكر ذكرا وسطا ، والغدو : جمع غدوة ، وهى ما بين صلاة الغداة وطلوع الشمس ، والآصال : جمع أصيل، وهو العشى من وقت العصر إلى غروب الشمس ، ويسبحونه : ينزهونه عما لا يليق به؛ ويسجدون : أى يصلون .

المعنى الجملى

بعد أن ذكر سبحانه مزايا القرآن الكريم وأنه آيات بينات للمؤمنين وهدى ورحمة لهم — قفى على ذلك بذكر الدلائل على الطريق الموصلة لنيل الرحمة به والفوز بالمنافع الجليلة التى ينطوى عليها وهى الإنصات له إذا قرئ .

الإيضاح

(وإذا قرئ القرآن فاستمعوا له وأنصتوا لعلكم ترحمون) أى وإذا قرئ القرآن عليكم أيها المؤمنون فأصغوا له أسماعكم لتتفهموا آياته وتعتبروا بمواعظه ، وأنصتوا له لتعقلوه وتتدبروه ولا تلغوا فيه فلا تعقلوه ، ليرحمكم ربكم باتعاظكم بمواعظه واعتباركم بعبره واستعمالكم ما بينه لكم ربكم من فرائضه فى آيه ؛ فمن استمع وأنصت كان جديرا أن يفهم و يتدبر، ومن كان كذلك كان حريا أن يُرحم .

والآية تدل على وجوب الاستماع والإنصات للقرآن إذا قرئ سواء أكان ذلك فى الصلاة أو فى خارجها وهو المروى عن الحسن البصرى، لكن الجمهور خصوه بقراءة الرسول صلى الله عليه وسلم فى عهده و بقراءة الصلاة والخطبة من بعده ، ذلك أن إيجاب الاستماع والإنصات فى غير الصلاة والخطبة فيه حرج عظيم ، إذ يقتضى أن يترك له المشتغل بالعلم علمه والمشتغل بالحكم حكمه وكل ذى عمل عمله .

أما قراءة النبى صلى الله عليه وسلم فكان بعضها تبليغا للتنزيل و بعضها وعظا و إرشادا ، فلا يسع أحدا من المسلمين يسمعه يقرأ أن يعرض عن الاستماع أو يتكلم بما يشغله أو يشغل غيره عنه ، وهكذا شأن المصلى مع إمامه وخطيبه ، إذ هذا هو المقصود من الصلاة والواجب فيها .

وما يفعله جماهير الناس فى المحافل التى يقرأ فيها القرآن كالمآتم وغيرها من ترك الاستماع والاشتغال بالأحاديث المختلفة ــ فمكروه كراهة شديدة ولا سيما لمن كانوا على مقربة من التالى ، ولا يجوز لقارئ أن يقرأ على قوم لا يستمعون له ، وإن كان أكثرهم يستمع وينصت فشذ بعضهم بمناجاة صاحبه بالجنب بلا تهويش على القارئ ولا على المستمعين كانت المخالفة سهلة لا تقتضى ترك القراءة ولا تنافى الاستماع .

والواجب على كل مؤمن بالقرآن أن يحرص على استماعه عند قراءته كما يحرص على تلاوته وأن يتأدب فى مجلس التلاوة .

وجملة الأمر فى ذلك ألا يصدر من السامع ما يعد فى اعتقاده أو فى عرف الناس أنه مناف للأدب : ولا بأس بقراءة القرآن حال القيام والقعود والاضطجاع والمشى والركوب ، ولا تكره مع حدث أصغر ولا مع نجاسة ثوب أو بدن ، وإن كان يستحب الوضوء حين القراءة حال الحدث ولا سيما للقارئ فى المصحف .

وتستحب القراءة بالترتيل والنغم الدالة على التأثير والخشوع من غير تكلف ولا تصنع ، فقد روى أبو هريرة مرفوعا « ما أذن (استمع) الله لشىء ما أذن لنبى حسن الصوت يتغنى بالقرآن» رواه الشيخان .

(واذكر ربك فى نفسك تضرعا وخيفة ودون الجهر من القول بالغدو والآصال) أى واذكر ربك الذى خلقك ورباك بنعمه فى نفسك بأن تستحضر معنى أسمائه وصفاته وآلائه وفضله عليك وحاجتك إليه ، متضرعا له خائفا منه راجيا نعمه ، واذكره بلسانك مع ذكره فى نفسك ذكرا دون الجهر برفع الصوت من القول وفوق التخافت والسر بل ذكرا قصدا وسطا كما قال تعالى : « وَلاَ تَجْهَرْ بِصَلاَتِكَ وَلاَ تُخَافِتْ بِهَا وَابْتَغِ بَيْنَ ذَلِكَ سَبِيلاً » .

وذكر اللسان وحده دون ذكر القلب وملاحظة معانى القول لا يجدى نفعا، فكم رأينا من ذوى الأوراد والأدعية الذين يذكرون الله كثيرا بالمئين والآلاف ولا يفيدهم ذلك معرفة بالله ولا مراقبة له ، لأن ذلك أصبح عادة لهم تصحبها عادات أخرى منكرة ومن ثم كان الواجب الجمع بين ذكر القلب وذكر اللسان .

وأجمل الأوقات لهذا الذكر وقتان أول النهار وآخره لأنهما طرفا النهار، ومن افتتح نهاره بذكر الله واختتمه به كان جديرا بأن يراقب الله ولا ينساه فيما بينهما ، ويكون هذا الذكر فى صلاتى الفجر والعصر اللتين تحضرهما ملائكة الليل وملائكة النهار ويشهدان عند الله بما وجدا عليه العبد كما ورد فى صحيح الآثار .

(ولا تكن من الغافلين) عن ذكر الله بل أشعر قلبك الخضوع له والخوف من

قدرته عليك إذا أنت غفلت عن ذلك ، ومن غفل عن ذكره تعالى مرض قلبه وضعف إيمانه واستحوذ عليه الشيطان فأنساه نفسه .

ثم ختم سبحانه هذه الآيات بما يؤيد به الأمر والنهى السابقين فقال :

(إن الذين عند ربك لايستكبرون عن عبادته ويسبحونه وله يسجدون) أى إن ملائكة الرحمن المقربين عنده لايستكبرون عن عبادته كما يستكبر عنها هؤلاء المشركون ، وينزهونه عن كل مالايليق بعظمته وكبريائه وجلاله ومن اتخاذ الند والشريك كما يفعل الذين اتخذوا من دون الله شفعاء وأندادا يحبونهم كحبه وله وحده يصلون ويسجدون فلا يشركون معه أحدا ، فالواجب على كل مؤمن أن يجعل خواص الملائكة والمقربين إليه تعالى من حملة عرشه والحافّين به أسوة حسنة له فى صلاته وسجوده وسائر عبادته .

وقد شرع الله لنا السجود عند تلاوة هذه الآية أو سماعها إرغاما لمن أبى ذلك من المشركين واقتداء بالملائكة المقربين ، ومثلها آيات أخرى ستأتى فى مواضعها ، وقد كان صلى الله عليه وسلم يقول فى سجوده لذلك : « اللهم لك سجد سوادى ، وبك آمن فؤادى ، اللهم ارزقنى علما ينفعنى ، وعملا يرفعنى » .

وفى الآية إرشاد إلى أن الأفضل إخفاء الذكر وقد روى أحمد قوله صلى الله عليه وسلم : « خير الذكر الخفى » فأين هذا مما يفعله جهلة زماننا الذين يجأرون فى ذكرهم بأصوات منكرة يستقبحها الدين والعقل والعرف، ولا علاج لمثل هذا إلا حملة نكراء من رجال الدين عليهم حتى يتفهموا ماطلبه الدين وما رمى إليه من التضرع إليه تعالى خفية ودون الجهر بالقول ، وصلى الله على سيدنا محمد النبى الأمى وعلى آله وصحبه وسلم.

خلاصة لما اشتملت عليه السورة من الأغراض والمقاصد

يمكن إجمال القول فى الأغراض التى اشتملت عليها هذه السورة الكريمة فيما يلى:

(١) التوحيد : وهو يتضمن دعاء الله وحده وإخلاص الدين له وتخصيصه

بالعبادة فإنه شارع الدين فيجب اتباع ما أنزله ولا يجوز اتباع الأولياء من دونه في العقائد والعبادات ولا التحليل والتحريم الديني كما قال : « اتَّبِعُوا مَا أُنْزِلَ إِلَيْكُمْ مِنْ رَبِّكُمْ وَلَا تَتَّبِعُوا مِنْ دُونِهِ أَوْلِيَاءَ » .

وأن القول عليه بغير علم بتشريع أو غيره لا يجوز لأحد كما قال: « أَتَقُولُونَ عَلَى اللَّهِ مَا لَا تَعْلَمُونَ ؟ » .

وأن جميع ما يشرعه لعباده حسن وما سواه قبيح : « قُلْ إِنَّ اللَّهَ لَا يَأْمُرُ بِالْفَحْشَاءِ » ونحن مأمورون بذكره تضرعا وخفية سرا وجهرا .

(٢) الوحي والكتب، ويتضمن ذلك إنزال القرآن على النبي صلى الله عليه وسلم للإنذار به والأمر باستماعه والإنصات له رجاء الرحمة بسماعه والاهتداء به وأمر المؤمنين باتباع المنزل عليهم من ربهم .

(٣) الرسالة والرسل، ويشمل ذلك بعثة الرسل إلى جميع بني آدم كما قال : « يَا بَنِي آدَمَ إِمَّا يَأْتِيَنَّكُمْ رُسُلٌ مِنْكُمْ يَقُصُّونَ عَلَيْكُمْ آيَاتِي » وسؤالهم يوم القيامة عن التبليغ وسؤال الأمم عن الإجابة ـ ومجيء الرسل بالبينات من الله تعالى تأييدا منه لهم ـ وعقاب الأمم على تكذيب الرسل كما ذكر في قصص نوح وهود وصالح وشعيب .

(٤) عالم الآخرة : ويتضمن ذلك البعث والإعادة في الآخرة كما قال: « كَمَا بَدَأَكُمْ تَعُودُونَ » ووزن الأعمال يوم القيامة وترتيب الجزاء على ثقل الموازين وخفتها ، وأن الجزاء بالعمل ، وإقامة أهل الجنة الحجة على أهل النار، والحجاب بين أهل الجنة وأهل النار، ونداء أصحاب النار أصحاب الجنة ، واعتراف أهل النار في الآخرة بصدق الرسل، وصفة أهل النار ، وقيام الساعة وكونها تأتي بغتة .

(٥) أصول التشريع : ويتضمن هذا وجوب اتباع الدين على أنه قربة يثاب فاعلها عليها ويعاقب تاركها في الآخرة ، وتحريم التقليد فيه، والأخذ بآراء البشر وتعظيم شأن النظر العقلي، والتفكر لتحصيل العلم بما يجب الإيمان به، ومعرفة آيات الله وسننه

فى خلقه والأمر بالعدل فى الأحكام والأعمال كما قال : «قُلْ أَمَرَ رَبِّى بِالْقِسْطِ» وحصر أنواع المحرمات الدينية العامة فى قوله : « قُلْ إِنَّمَا حَرَّمَ رَبِّىَ الْفَوَاحِشَ مَاظَهَرَ مِنْهَا وَمَا بَطَنَ » الخ ، و بيان أصول الفضائل الأدبية والتشريعية فى قوله : « خُذِ الْعَفْوَ وَأْمُرْ بِالْعُرْفِ وَأَعْرِضْ عَنِ الْجَاهِلِينَ » .

(٦) آيات الله وسننه فى الكون ــ و يتضمن ذلك خلق السموات والأرض فى ستة أيام واستواءه على العرش ونظام الليل والنهار وتسخير الشمس والقمر والنجوم بأمره ــ وخلق الرياح والمطر و إحياء الأرض به و إخراجه الثمرات من الأرض ــ خلق الناس من نفس واحدة وخلق زوجها منها ليسكن إليها و إعداد الزوجين للتناسل ــ وتفضيل الإنسان على من فى الأرض جميعا ــ خلق بنى آدم مستعدين لمعرفة الله و إشهاد الرب إياهم على أنفسهم أنه ربهم وشهادتهم بذلك بمقتضى فطرتهم بما منحوه من العقل وحجته تعالى عليهم بذلك ــ خلقهم مستعدين للشرك وما يتبعه من الخرافات ــ ضرب الأمثال لاختلاف الاستعداد لكل من الخير والشر وعلامة كل منهما فيهم يكون بما يرى من ثماره ــ وفى ذلك تعليم لنا بطلب معرفة الشىء بأثره ومعرفة الأثر بمصدره ــ عداوة إبليس والشياطين من نسله لبنى آدم و إغوائهم بالفساد مع ذكر حكمة ذلك ، بيان أن الشياطين أولياء المجرمين الذين لا يؤمنون ــ منّة الله على البشر بتسهيل أسباب المعاش لهم ــ آيات الله تعالى ونعمه على بنى إسرائيل إلى نحو أولئك مما فيه سعادة البشر فى دينهم ودنياهم .

(٧) سننه تعالى فى الاجتماع والعمران البشرى ــ و يتضمن ذلك إهلاك الله الأمم بظلمها لنفسها ولغيرها وأن للأمم آجالا لا تتقدم ولا تتأخر عنها بما اقتضته السنن الإلهية العامة ــ ابتلاء الله الأمم بالبأساء والضراء تارة و بالرخاء والنعماء أخرى ــ وأن الإيمان بما دعا إليه والتقوى فى العمل بشرعه فعلا وتركا سبب لكثرة بركات السماء والأرض وخيراتها على الأمة كما قال تعالى : « وَلَوْ أَنَّ أَهْلَ الْقُرَى آمَنُوا وَاتَّقَوْا

لَفَتَحْنَا عَلَيْهِمْ بَرَكَاتٍ مِنَ السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ » وأن لله فى إرث الأرض واستخلاف الأمم والسيادة على الشعوب سننا لاتتبدل كما قال : « قَالَ مُوسَى لِقَوْمِهِ اسْتَعِينُوا بِاللهِ وَاصْبِرُوا، إِنَّ الْأَرْضَ لِلهِ يُورِثُهَا مَنْ يَشَاءُ مِنْ عِبَادِهِ وَالْعَاقِبَةُ لِلْمُتَّقِينَ » أى إن الأرض ليست رهن تصرف الملوك والدول بقدرتهم الذاتية فتدوم لهم و إنما هى لله ، ولله سنن فى سلبها من قوم وجعلها إرثا لقوم آخرين ـ وقد جعل العاقبة للمتقين الذين يتقون أسباب الضعف والتخاذل والفساد فى الأرض و يتصفون بضدها و بسائر ماتقوى به الأمم من الأخلاق والأعمال كالصبر على المكاره والاستعانة بالله الذى بيده ملكوت كل شىء .

وإنا نرى أن بعض الشعوب الإسلامية المستضعفة فى هذا العصر باستعمار الدول الأوربية لها يائسة من استقلالها وعزتها لما ترى من رجحان ذوى السيادة عليها فى القوى المادية جهلا منهم بسنة الله التى بينها للناس فإن رجحان فرعون وقومه على بنى إسرائيل كان فوق رجحان قوى السائدين وقهرهم إياهم .

وقد كان ينبغى للمسلمين أن يتقوه تعالى باتقاء كل ماقصه عليهم من ذنوب الأمم التى هلك بها من كان قبلهم حتى دالت دولتهم وزال ملكهم ولله الأمر من قبل ومن بعد .

ســـورة الأنفال

آياتها خمس وسبعون، نزلت بعد البقرة، وهى مدنية إلا من آية ٣٠ لغاية ٣٦ فمكية.
ومناسبتها لسورة الأعراف أنها فى بيان أحوال النبى صلى الله عليه وسلم مع قومه. وسورة الأعراف مبينة لأحوال الرسل مع أقوامهم .

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ

يَسْأَلُونَكَ عَنِ الْأَنفَالِ قُلِ الْأَنفَالُ لِلَّهِ وَالرَّسُولِ فَاتَّقُوا اللَّهَ وَأَصْلِحُوا ذَاتَ بَيْنِكُمْ وَأَطِيعُوا اللَّهَ وَرَسُولَهُ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ (١) إِنَّمَا الْمُؤْمِنُونَ الَّذِينَ إِذَا ذُكِرَ اللَّهُ وَجِلَتْ قُلُوبُهُمْ ، وَإِذَا تُلِيَتْ عَلَيْهِمْ آيَاتُهُ زَادَتْهُمْ إِيمَانًا وَعَلَىٰ رَبِّهِمْ يَتَوَكَّلُونَ (٢) الَّذِينَ يُقِيمُونَ الصَّلَاةَ وَمِمَّا رَزَقْنَاهُمْ يُنفِقُونَ (٣) أُولَٰئِكَ هُمُ الْمُؤْمِنُونَ حَقًّا لَّهُمْ دَرَجَاتٌ عِندَ رَبِّهِمْ وَمَغْفِرَةٌ وَرِزْقٌ كَرِيمٌ (٤) .

شرح المفردات

الأنفال : واحدها نفل (بالتحريك) من النفل (بالسكون) وهو الزيادة على الواجب، ومنه صلاة النفل؛ والمراد به هنا الغنيمة ـ وقيل الغنيمة كل ماحصل مستغنما بتعب أو بغير تعب وقبل الظفر أو بعده ، والنفل يحصل للإنسان قبل القسمة من الغنيمة ، والبين : يطلق على الاتصال والافتراق وعلى كل ما بين طرفين كما قال : « لَقَدْ تَقَطَّعَ بَيْنَكُمْ » وذات البين : الصلة التى تربط بين شيئين ، والوجل : الفزع والخوف ، والدرجات : منازل الرفعة ومراقى الكرامة .

المعنى الجملى

نزلت هذه الآيات فى غنائم غزوة بدر إذ تنازع فيها من حازها من الشبان وسائر المقاتلة فقد روى أبو داود والنسائى عن ابن عباس أن النبى صلى الله عليه وسلم قال : «من قتل قتيلا فله كذا وكذا، ومن أسر أسيرا فله كذا وكذا،فأما المشيخة فثبتوا تحت الرايات،وأما الشبان فسارعوا إلى القتل والغنائم فقالت المشيخة للشبان : إنا كنا لكم ردءا ولو كان منكم شىء للجأتم إلينا فاختصموا إلى النبى صلى الله عليه وسلم فنزلت : (يسألونك عن الأنفال؟ قل الأنفال لله والرسول) » وروى أحمد وأبو داود والترمذى والنسائى عن سعد بن أبى وقاص أنه قتل سعيد بن العاص وأخذ سيفه واستوهبه النبى صلى الله عليه وسلم فمنعه إياه ، وأن الآية نزلت فى ذلك فأعطاه إياه لأن الأمر كله إليه صلى الله عليه وسلم .

الإيضاح

(يسألونك عن الأنفال) أى يسألونك أيها الرسول عن الأنفال لمن هى ؟ أللشبان أم للشيوخ ؟ أو للمهاجرين هى ، أم للأنصار ؟ أم لهم جميعا ؟ .

(قل الأنفال لله والرسول) أى قل لهم الأنفال لله يحكم فيها بحكمه وللرسول يقسمها على حسب حكم الله تعالى وقد قسمها صلى الله عليه وسلم بالسواء .

وقد بين الله بهذا أن أمرها مفوض إلى الله ورسوله،ثم بين مصارفها وكيفية قسمتها فى آية الخمس : « وَاعْلَمُوا أَنَّمَا غَنِمْتُمْ مِنْ شَيْءٍ فَأَنَّ لِلَّهِ خُمُسَهُ » الخ،وللإمام أن ينفل من شاء من الجيش ما شاء قبل التخميس وقد روى عن سعد بن أبى وقاص أنه قال: قتل أخى عمير يوم بدر فقتلت به سعيد بن العاص وأخذت سيفه فأعجبنى فجئت به إلى النبى صلى الله عليه وسلم فقلت إن الله شفى صدرى من المشركين فهب لى هذا السيف فقال لى عليه السلام : ليس هذا لى ولا لك ، اطرحه فى القبض فطرحته

وبى ما لا يعلمه إلا الله من قتل أخى وأخذ سلبى فما جاوزت إلا قليلا حتى نزلت سورة الأنفال فقال لى رسول الله صلى الله عليه وسلم: « يا سعد سألتنى السيف وليس لى وقد صار لى فخذه » .

(فاتقوا الله) فاجتنبوا ما كنتم فيه من المشاجرة والتنازع والاختلاف الموجب لسخط الله لما فيه من المضار ولاسيما فى حال الحرب .

(وأصلحوا ذات بينكم) أى أصلحوا ما بينكم من الأحوال حتى تكون أحوال ألفة ومحبة واتفاق ، وهذا الإصلاح واجب شرعا وعليه تتوقف قوة الأمة وعزتها وبه تحفظ وحدتها ، روى عن عبادة بن الصامت قال : نزلت هذه الآية فينا معشر أصحاب بدر حين اختلفنا فى النفل وساءت فيه أخلاقنا فنزعه الله من أيدينا فجعله لرسوله فقسمه بين المسلمين على السواء وكان فى ذلك تقوى الله وطاعة رسوله وإصلاح ذات البين .

(وأطيعوا الله ورسوله) أى فى كل ما يأمر به وينهى عنه ويقضى ويحكم فالله تعالى مالك أمركم والرسول مبلغ عنه ومبين لوحيه بالقول والفعل والحكم .

وعلى هذه الطاعة تتوقف النجاة فى الآخرة والفوز بثوابها ، والرسول صلى الله عليه وسلم يطاع فى اجتهاده فى أمر الدنيا المتعلق بالمصالح العامة ولاسيما فى الشئون الحربية ، لأنه القائد العام فمخالفته تخل بالنظام وتؤدى إلى الفوضى التى لا تقوم للأمة معها قائمة ، ولأئمة المسلمين من حق الطاعة فى تنفيذ الشرع وإدارة شئون الأمة وقيادة الجند ما كان له صلى الله عليه وسلم بشرط عدم معصية الله تعالى ومشاورة أولى الأمر .

(إن كنتم مؤمنين) أى إن كنتم كاملى الإيمان فامتثلوا هذه الأوامر الثلاثة إذ كماله يقتضى ذلك لأن الله أوجبه ، فالمؤمن بالله حقا يكون له من نفسه وازع يسوقه إلى الطاعة واتقاء المعاصى إلا أن يعرض له ما يغلبه عليها أحيانا من ثورة شهوة أو سورة غضب ثم لا يلبث أن يفىء إلى أمر الله ويتوب إليه مما عرض له .

ثم وصف الله تعالى المؤمنين بخمس صفات تدل على وجوب التقوى و إصلاح ذات البين وطاعة الله ورسوله فقال :

(إنما المؤمنون) أى إنما المؤمنون حقا المخلصون فى إيمانهم هم الذين اجتمعت فيهم خصال خمس :

(١) (الذين إذا ذكر الله وجلت قلوبهم) أى الذين إذا ذكروا الله بقلوبهم فزعوا لعظمته وسلطانه أو لوعده ووعيده ومحاسبته لخلقه ،والآية بمعنى قوله : « وَبَشِّرِ الْمُخْبِتِينَ ، الَّذِينَ إِذَا ذُكِرَ اللهُ وَجِلَتْ قُلُوبُهُمْ وَالصَّابِرِينَ عَلَى مَا أَصَابَهُمْ وَالْمُقِيمِي الصَّلَاةِ وَمِمَّا رَزَقْنَاهُمْ يُنْفِقُونَ » .

(٢) (و إذا تليت عليهم آياته زادتهم إيمانا) أى و إذا تليت عليهم آياته المنزلة على خاتم أنبيائه صلى الله عليه وسلم زادتهم يقينا فى الإيمان وقوة فى الاطمئنان ونشاطا فى الأعمال؛ إذ أن تظاهر الأدلة وتعاضد الحجج يوجب زيادة اليقين ، فإبراهيم صلوات الله وسلامه عليه كان مؤمنا بإحياء الله الموتى حين دعا ربه أن يريه كيف يحييها كما قال تعالى : « أَوَلَمْ تُؤْمِنْ ؟ قَالَ بَلَى وَلَكِنْ لِيَطْمَئِنَّ قَلْبِي » فمقام الطمأنينة فى الإيمان يزيد على ما دونه من الإيمان المطلق قوة وكمالا . ويروى أن عليا المرتضى قال : لو كشف عنى الحجاب ما ازددت يقينا ، والعلم التفصيلى فى الإيمان أقوى من العلم الإجمالى ، فمن آمن بأن لله علما محيطا بالمعلومات ، وحكمة قام بها نظام الأرض والسموات ، ورحمة وسعت جميع المخلوقات ، علما إجماليا ولو سألته أن يبين لك شواهده فى الخلق لعجز ـ لا يوزن إيمانه بإيمان صاحب العلم التفصيلى بسنن الله فى الكائنات فى كل نوع من أنواع المخلوقات ولاسيما فى العصور الحديثة التى اتسعت فيها معارف البشر بهذه السنن ، فعرفوا منها مالم يكن يخطر عشر معشاره لأحد من العلماء فى القرون الخوالى .

وفى معنى الآية قوله تعالى فى وصف الذين استجابوا لله والرسول من بعد ما أصابهم

القرح فى غزوة أحد : « الَّذِينَ قَالَ لَهُمُ النَّاسُ إِنَّ النَّاسَ قَدْ جَمَعُوا لَكُمْ فَاخْشَوْهُمْ فَزَادَهُمْ إِيمَانًا وَقَالُوا حَسْبُنَا اللهُ وَنِعْمَ الْوَكِيلُ » وقوله : « هُوَ الَّذِى أَنْزَلَ السَّكِينَةَ فِى قُلُوبِ الْمُؤْمِنِينَ لِيَزْدَادُوا إِيمَانًا مَعَ إِيمَانِهِمْ » .

(٣) (وعلى ربهم يتوكلون) أى إنهم يتوكلون على ربهم وحده ولا يفوضون أمرهم إلى سواه ، فمن كان موقنا بأن الله هو المدبر لأموره وأمور العالم كله لا يمكن أن يكل شيئا منها إلى غيره .

وإذا كان الشرع والعقل حاكمين بأن للانسان كسبا اختياريا كلفه الله العمل به وأنه يجازى على عمله إن خيرا فخير ، وإن شرا فشر ، وجب على الإنسان أن يسعى فى تدبير أمور نفسه على حسب ما وضعه الله فى نظام الأسباب وارتباطها بالمسببات وأن هذا الارتباط لم يكن إلا بتسخير الله تعالى وأن ما يناله باستعمالها فهو فضل من الله الذى سخرها وجعلها أسبابا وعلمه ذلك ، وأن ما لا يعرف له سبب يطلب به فالمؤمن يتوكل على الله وحده وإليه يتوجه فيما يطلبه منه .

أما ترك الأسباب وتنكب سنن الله فى الخلق فهو جهل بالله وجهل بدينه وجهل بسننه التى لا تتبدل ولا تتحول .

(٤) (الذين يقيمون الصلاة) أى يؤدونها مقومة كاملة فى صورتها وأركانها الظاهرة من قيام وركوع وسجود وقراءة وذكر وفى معناها وروحها الباطن من خشوع وخضوع فى مناجاة الرحمن ، واتعاظ وتدبر فى تلاوة القرآن ، وبهذا كله تحصل ثمرة الصلاة من الانتهاء عن الفحشاء والمنكر .

(٥) (ومما رزقناهم ينفقون) أى وينفقون بعض ما رزقناهم فى وجوه البر فى الزكاة المفروضة وبالنفقات الواجبة والمندوبة للأقربين والمعوزين وفى مصالح الأمة ومرافقها العامة التى بها يعلو شأنها بين الأمم ويكون عليها تقدمها وعمرانها .

(أولئك هم المؤمنون حقا) أى أولئك الذين اتصفوا بتلك الصفات هم دون

من سواهم هم المؤمنون حق الإيمان ، وهو نتيجة لتصديق إذعانى له أثر فى أعمال القلوب والجوارح وبذل المال فى سبيل الله .

روى الطبرانى عن الحارث بن مالك الأنصارى رضى الله عنه أنه مرّ برسول الله صلى الله عليه وسلم فقال له : « كيف أصبحت يا حارثة ؟ قال أصبحت مؤمنا حقا . قال : انظر ماذا تقول فإن لكل شىء حقيقة فما حقيقة إيمانك ؟ فقال : عزفت نفسى عن الدنيا فأسهرت ليلى وأظمأت نهارى وكأنى أنظر إلى عرش ربى بارزا وكأنى أنظر إلى أهل الجنة يتزاورون فيها وكأنى أنظر إلى أهل النار يتضاغَوْن فيها ، فقال : يا حارثة عرفت فالزم (ثلاثا) » وروى عن الحسن أن رجلا سأله أمؤمن أنت ؟ قال الإيمان إيمانان ، فإن كنت تسألنى عن الإيمان بالله وملائكته وكتبه ورسله واليوم الآخر والجنة والنار والبعث والحساب فأنا مؤمن ، وإن كنت تسألنى عن قوله تعالى : « إنما المؤمنون الذين إذا ذكر الله » الخ فوالله لا أدرى أنا منهم أم لا .

وبعد أن ذكر سبحانه أوصافهم ذكر جزاءهم عند ربهم فقال :

(لهم درجات عند ربهم ومغفرة ورزق كريم) أى لهم درجات من الكرامة والزلفى لا يقدر قدرها عند ربهم الذى خلقهم وسوّاهم وهو القادر على جزائهم على جميل أعمالهم فى دار الجزاء والثواب، والله تعالى فضل بعض الناس ورفعهم على بعض درجة أو درجات فى الدنيا وفى الآخرة وعند الله تعالى كما قال تعالى: « الَّذِينَ آمَنُوا وَهَاجَرُوا وَجَاهَدُوا فِي سَبِيلِ اللهِ بِأَمْوَالِهِمْ وَأَنْفُسِهِمْ أَعْظَمُ دَرَجَةً عِنْدَ اللهِ وَأُولَئِكَ هُمُ الْفَائِزُونَ » وقال تعالى فى الرسل : « تِلْكَ الرُّسُلُ فَضَّلْنَا بَعْضَهُمْ عَلَى بَعْضٍ مِنْهُمْ مَنْ كَلَّمَ اللهُ وَرَفَعَ بَعْضَهُمْ دَرَجَاتٍ » الآية . وقال فى درجات الدنيا وحدها : « وَهُوَ الَّذِي جَعَلَكُمْ خَلَائِفَ الْأَرْضِ وَرَفَعَ بَعْضَكُمْ فَوْقَ بَعْضٍ دَرَجَاتٍ لِيَبْلُوَكُمْ فِيمَا آتَاكُمْ إِنَّ رَبَّكَ سَرِيعُ الْعِقَابِ وَإِنَّهُ لَغَفُورٌ رَحِيمٌ » .

ولهم مغفرة من الله لذنوبهم التى سبقت وصولهم إلى درجة الكمال ، ولهم رزق

كريم وهو ما أعدّ لهم من نعيم الجنة ، والكريم تصف به العرب كل شيء حسن لا قبح فيه ولا شكوى .

كَمَا أَخْرَجَكَ رَبُّكَ مِنْ بَيْتِكَ بِالْحَقِّ وَإِنَّ فَرِيقًا مِنَ الْمُؤْمِنِينَ لَكَارِهُونَ (٥) يُجَادِلُونَكَ فِي الْحَقِّ بَعْدَ مَا تَبَيَّنَ كَأَنَّمَا يُسَاقُونَ إِلَى الْمَوْتِ وَهُمْ يَنْظُرُونَ (٦) وَإِذْ يَعِدُكُمُ اللَّهُ إِحْدَى الطَّائِفَتَيْنِ أَنَّهَا لَكُمْ وَتَوَدُّونَ أَنَّ غَيْرَ ذَاتِ الشَّوْكَةِ تَكُونُ لَكُمْ، وَيُرِيدُ اللَّهُ أَنْ يُحِقَّ الْحَقَّ بِكَلِمَاتِهِ وَيَقْطَعَ دَابِرَ الْكَافِرِينَ (٧) لِيُحِقَّ الْحَقَّ وَيُبْطِلَ الْبَاطِلَ وَلَوْ كَرِهَ الْمُجْرِمُونَ (٨) .

شرح المفردات

الشوكة : الحدة والقوة ، وأصلها واحدة الشوك ، شبهوا بها أسنة الرماح ، والطائفتان : طائفة العير الآتية من الشام ، وطائفة النفير التى جاءت من مكة للنجدة ، وغير ذات الشوكة : هى العير ، ودابر القوم : آخرهم الذى يأتى فى دبرهم ويكون من ورائهم ، ويحق الحق : أى يعز الإسلام لأنه الحق، ويبطل الباطل : أى يزيل الباطل وهو الشرك ويمحقه .

المعنى الجملى

بدئت القصة بغزوة بدر الكبرى التى كانت أول فوز للمؤمنين وخذلان للمشركين مع بيان أحكام الغنائم التى غنمها المسلمون منهم ـ ثم ذكر هنا أول القصة وهو خروج النبى صلى الله عليه وسلم من بيته وكراهة فريق من المؤمنين لذلك، وقد كان من مقتضى الإيمان الإذعان لطاعته والرضا بما يفعله بأمر ربه وما يحكم أو يأمر به.

الإيضاح

(كما أخرجك ربك من بيتك بالحق وإن فريقا من المؤمنين لكارهون) أى إن الأنفال لله يحكم فيها بالحق ، ولرسوله أن يقسمها بين من جعل الله لهم الحق فيها بالسوية وإن كره ذلك بعض المتنازعين فيها ممن كانوا يرون أنهم أحق بها ، كإخراج ربك إياك من بيتك بالحق للقاء إحدى الطائفتين من المشركين،وقد كان كثير من المؤمنين كارهين لذلك لعدم استعدادهم للقتال ولنحو هذا من الأسباب التى تعلم مما يلى.

وبيان ذلك — أن رسول الله لما سمع بأبى سفيان مقبلا من الشام ندب المسلمين إليهم وقال هذه عير قريش فيها أموالهم فاخرجوا إليها لعل الله أن ينفلكموها فانتدب الناس فخف بعضهم وثقل بعضهم،وذلك أنهم لم يكونوا يظنون أن رسول الله صلى الله عليه وسلم يلقى حربا - وكان أبو سفيان قد استنفر حين دنا من الحجاز من يتجسس الأخبار ويسأل من لقى من الركبان تخوفا على أمر الناس حتى أصاب خبرا من بعض الركبان أن محمدا قد استنفر أصحابه لك ولعيرك فاستأجر ضمضم بن عمرو الغفارى فبعثه إلى أهل مكة وأمره أن يأتى قريشا فيستنفرهم إلى أموالهم ويخبرهم أن محمدا قد عرض لها فى أصحابه فخرج ضمضم بن عمرو سريعا إلى مكة وخرج رسول الله صلى الله عليه وسلم فى أصحابه حتى بلغ واديا يقال له ذفران حتى إذا كان ببعضه نزل وأتاه الخبر عن قريش بمسيرهم ليمنعوا عيرهم فاستشار رسول الله صلى الله عليه وسلم الناس وأخبرهم عن قريش فقام أبو بكر رضى الله عنه فقال فأحسن ، ثم قام عمر فقال فأحسن ، ثم قام المقداد بن عمرو فقال يا رسول الله امض لما أمرك الله به فنحن معك ، والله لا نقول لك كما قالت بنو إسرائيل لموسى : « اذْهَبْ أَنْتَ وَرَبُّكَ فَقَاتِلاَ إِنَّا هَاهُنَا قَاعِدُونَ » ولكن اذهب أنت وربك إنا معكما مقاتلون ، فوالذى بعثك بالحق لو سرت بنا إلى بَرْك الغِماد (مدينة باليمن) لجالدنا معك من دونه حتى تبلغه ، فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم خيرا ودعا له بخير ثم قال رسول الله صلى

الله عليه وسلم : « أشيروا على أيها الناس » وإنما يريد الأنصار ، وذلك أنهم حين بايعوه بالعقبة قالوا : يارسول الله إنا برءاء من ذمامك حتى تصل إلى دارنا ،فإذاوصلت إلينا فأنت فى ذمامنا ، نمنعك مما نمنع منه آباءنا ونساءنا ، وكان رسول الله صل الله عليه وسلم يتخوف ألا تكون الأنصار ترى نصرته إلا ممن دهمه بالمدينة من عدوه وأن ليس عليهم أن يسير بهم إلى عدو من بلادهم ، فلما قال رسول الله صلى الله عليه وسلم ذلك ؛ قال له سعد بن معاذ : والله لكأنك تريدنا يا رسول الله ، قال أجل ، فقال قد آمنا بك وصدقناك وشهدنا أن ما جئت به هو الحق وأعطيناك على ذلك عهودنا ومواثيقنا على السمع والطاعة ، فامض يا رسول الله لما أمرك الله ، فوالذى بعثك بالحق لئن استعرضت بنا هذا البحر فخضته لخضناه معك ، ما يتخلف منا رجل واحد وما نكره أن تلقى بنا عدونا غدا إنا لَصُبُر عند الحرب صُدُق عند اللقاء ، ولعل الله يريك منا ما تقر به عينك ، فسر بنا على بركة الله،فسرّ رسول الله صلى الله عليه وسلم لقول سعد ونشطه ذلك ثم قال : « سيروا على بركة الله وأبشروا فإن الله وعدنى إحدى الطائفتين : العير القادمة من الشام وعلى رأسها أبو سفيان ، أو النفير الآتى من مكة لنجدتهم وعلى رأسهم أبو جهل والله لكأنى الآن أنظر إلى مصارع القوم» .

(يجادلونك فى الحق بعد ما تبين) أى يجادلك المؤمنون فى الحق وهو تلقى النفير لإيثارهم عليه تلقى العير كراهية للقاء المشركين وإنكارا لمسير قريش حين ذكروا لهم بعد أن تبين لهم الحق بإخبارك أنهم سينصرون أينما توجهوا ـ ويقولون ما كان خروجنا إلا للعير ، وهلا قلت لنا لنستعد ونتأهب وما كان هذا إلا لكراهتهم للقتال .

وبيان هذا أن المسلمين كانوا فى حال ضعف ، فكان من حكمة الله أن وعدهم أوّلا إحدى طائفتى قريش تكون لهم على طريق الإبهام لا على طريق التعيين ، فتعلقت آمالهم بطائفة العير القادمة من الشام لأنها كسب عظيم لامشقة فى إحرازه لضعف الحامية ، فلما ظهر لهم أنها فاتتهم ونجت إذ ذهبت من طريق سِيف البحر (طريق الشاطىء) وأن طائفة النفير خرجت من مكة بكل مالدى قريش من قوة ،

وأنها قد قربت منهم ووجب عليهم قتالها إذ تبين أنها هى الطائفة التى وعدهم الله تعالى بالنصر عليها ـ صعب على بعضهم لقاؤها على قلتهم وكثرتها وضعفهم وقوتها وعدم استعدادهم للقتال كاستعدادها ، وطفقوا يعتذرون إلى النبى صلى الله عليه وسلم بأنهم لم يخرجوا إلا للعير لأنه لم يذكر لهم قتالاً فيستعدوا له .

ولكن الحق تبين بحيث لم يبن للجدل فيه وجه ـ فلا ينبغى أن يقال إن طائفة العير هى مراد الله لأنها نجت،ولا بأن يقال إننا لم نعد للقتال عدته لأنه مهما تكن حالها فلا بد من الظفر بها لوعد الله بالظفر عليها ، فإذا لا وجه للجدل إلا الجبن والخوف من القتال .

(كأنما يساقون إلى الموت وهم ينظرون) أى كأنهم لشدة ماهم فيه من جزع ورهَب يساقون إلى موت محقق لامهرب منه لوجود أماراته وأسبابه حتى كأنهم ينظرون إليه بأعينهم ،إذ ما بين حالهم وحال عدوهم من التفاوت فى القوة والعدد والخيل والزاد قاض بذلك ولكن الله تعالى وعد رسوله والمؤمنين بالظفر والنصر عليهم (ووعده لايتخلف) أما هذه الأسباب العادية فكثيرا ماتتخلف، وكم من فئة قليلة غلبت فئة كثيرة بإذن الله الذى بيده كل شىء وهو القادر على كل شىء ، وهكذا أنجز الله وعده لرسوله والمؤمنين وكان لهم الظفر والفوز على عدوهم وكان هذا نصرا مؤزرا المسلمين على المشركين ، وبه علا ذكرهم فى البلاد العربية وهابهم قاصيها ودانيها .

(وإذ يعدكم الله إحدى الطائفتين أنها لكم) أى واذكروا حين وعد الله إياكم أن إحدى الطائفتين لكم تتسلطون عليها وتتصرفون فيها .

(وتودون أن غير ذات الشوكة تكون لكم) أى تتمنون أن الطائفة غير ذات الشوكة : (وهى العير) تكون لكم لأنه لم يكن فيها إلا أربعون فارسا ، وعبر عنها بذلك تعريضا لكراهتهم للقتال وطمعهم فى المال .

(ويريد الله أن يحق الحق بكلماته) أى ويريد الله بوعده غير ما أردتم ، يريد أن يثبت الحق الذى أراده بكلماته ، أى بآياته المنزلة على رسوله فى محاربة ذات

الشوكة ، و بما أمر الملائكة من نزولهم للنصرة و بما قضى من أسرهم وقتلهم وطرحهم فى قليب (بئر) بدر .

(ويقطع دابر الكافرين) أى يهلك المعاندين جملة و يستأصل شأفتهم و يمحق قوتهم، وقد كان الظفر ببدر فاتحة الظفر فيما بعدها إلى أن قطع الله دابر المشركين بفتح مكة .

قال صاحب الكشاف : يعنى أنكم تريدون الفائدة العاجلة وسفساف الأمور وألا تلقوا ما يرزؤكم فى أبدانكم وأموالكم،والله عز وجلّ يريد معالى الأمور وما يرجع إلى عمارة الدين ونصرة الحق وعلوّ الكلمة والفوز فى الدارين، وشتان بين المرادين ولذلك اختار لكم الطائفة ذات الشوكة وكسر قوتهم بضعفكم وغلب كثرتهم بقلتكم وأعزكم وأذلهم اه .

(ليحق الحق ويبطل الباطل ولو كره المجرمون) أى وعد الله بما وعد وأراد بإحدى الطائفتين ذات الشوكة ليحق الحق وهو الإسلام ويثبته و يبطل الباطل وهو الشرك و يزيله ، ولو كره المجرمون أولو الاعتداء والطغيان ، ولا يكون ذلك بالاستيلاء على العير بل بقتل أئمة الكفر من صناديد قريش الذين خرجوا إليكم من مكة ليستأصلوكم .

إِذْ تَسْتَغِيثُونَ رَبَّكُمْ فَاسْتَجَابَ لَكُمْ أَنِّى مُمِدُّكُمْ بِأَلْفٍ مِنَ الْمَلَائِكَةِ مُرْدِفِينَ (٩) وَمَا جَعَلَهُ اللهُ إِلَّا بُشْرَى وَلِتَطْمَئِنَّ بِهِ قُلُوبُكُمْ وَمَا النَّصْرُ إِلَّا مِنْ عِنْدِ اللهِ، إِنَّ اللهَ عَزِيزٌ حَكِيمٌ (١٠) إِذْ يُغَشِّيكُمُ النُّعَاسَ أَمَنَةً مِنْهُ وَيُنَزِّلُ عَلَيْكُمْ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً لِيُطَهِّرَكُمْ بِهِ وَيُذْهِبَ عَنْكُمْ رِجْزَ الشَّيْطَانِ وَلِيَرْبِطَ عَلَى قُلُوبِكُمْ وَيُثَبِّتَ بِهِ الْأَقْدَامَ (١١) إِذْ يُوحِى رَبُّكَ إِلَى الْمَلَائِكَةِ أَنِّى مَعَكُمْ فَثَبِّتُوا الَّذِينَ آمَنُوا سَأُلْقِى فِى قُلُوبِ الَّذِينَ

كَفَرُوا الرُّعْبَ فَاضْرِبُوا فَوْقَ الْأَعْنَاقِ وَاضْرِبُوا مِنْهُمْ كُلَّ بَنَانٍ (١٢) ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ شَاقُّوا اللَّهَ وَرَسُولَهُ وَمَنْ يُشَاقِقِ اللَّهَ وَرَسُولَهُ فَإِنَّ اللَّهَ شَدِيدُ الْعِقَابِ (١٣) ذَٰلِكُمْ فَذُوقُوهُ وَأَنَّ لِلْكَافِرِينَ عَذَابَ النَّارِ (١٤) .

شرح المفردات

الاستغاثة : طلب الغوث ، وهو التخليص من الشدة والنقمة ، وممدكم : ناصركم ومغيثكم ، ومردفين : من أردفه إذا أركبه وراءه ، وتطمئن تسكن بعد ذلك الزلزال والخوف الذى عرض لكم فى جملتكم ، وعزيز : أى غالب على أمره ، حكيم لايضع شيئا فى غير موضعه ، ويغشيكم : يجعله مغطيا لكم ومحيطا بكم ، والنعاس : فتور فى الحواس وأعصاب الرأس يعقبه النوم فهو يضعف الإدراك ولا يزيله كله فإذا أزاله كان نوما ، والرجز والرجس والركس: الشىء المستقذر حسا أو معنى ، ويراد به هنا وسوسة الشيطان ، والربط على القلوب تثبيتها وتوطينها على الصبر ، والرعب : الخوف الذى يملأ القلب ، فوق الأعناق : أى الرءوس ، والبنان : أطراف الأصابع من اليدين والرجلين، شاقوا : أى عادوا وخالفوا ، وسميت العداوة مشاقة لأن كلا من المتعاديين يكون فى شق غير الذى يكون فيه الآخر .

المعنى الجملى

روى ابن جرير وابن أبى حاتم عن عبد الله بن عباس رضى الله عنه قال : حدثنى عمر بن الخطاب رضى الله عنه قال : لما كان يوم بدر نظر النبى صلى الله عليه وسلم إلى أصحابه وهم ثلثمائة رجل و بضعة عشر رجلا ، ونظر إلى المشركين فإذا هم ألف أو يزيدون فاستقبل نبى الله القبلة ثم مد يده وجعل يهتف بربه : « اللهم أنجز لى ما وعدتنى، اللهم إن تهلك هذه العصابة لاتعبد فى الأرض » فما زال يهتف بربه مادّا يديه مستقبلا القبلة حتى سقط رداؤه فأتاه أبو بكر فأخذ رداءه فألقاه على منكبيه ثم التزمه من ورائه

وقال يانبى الله ، كفاك مناشدتك ربك فإنه سينجز لك ما وعدك . فأنزل الله تعالى : « إذ تستغيثون ربكم فاستجاب لكم أنى ممدكم بألف من الملائكة مردفين » فلما كان يومئذ والتقوا هزم الله المشركين فقتل منهم سبعون رجلا وأسر سبعون. وروى البخارى عن ابن عباس قال : قال النبى صلى الله عليه وسلم يوم بدر « اللهم إنى أنشدك عهدك ووعدك، اللهم إن شئت لم تعبد » فأخذ أبو بكر بيده فقال حسبك ، فخرج وهو يقول : « سَيُهْزَمُ الْجَمْعُ وَيُوَلُّونَ الدُّبُرَ » .

وقد كان الرسول صلى الله عليه وسلم يعلم بإعلام القرآن أن للنصر فى القتال أسبابا حسية ومعنوية،وأن لله سننا مطردة وهو مع ذلك يعلم أن لله توفيقا يمنحه من شاء من خلقه فينصر به الضعفاء على الأقوياء والفئة القليلة على الفئة الكثيرة بما لا ينقض به سننه ، وأن له فوق ذلك آيات يؤيد بها رسله ، فلما عرف من ضعف المؤمنين وقلتهم ما عرف استغاث الله تعالى ودعاه ليؤيدهم بالقوة المعنوية التى تكون أجدر بالنصر من القوة المادية،وكان كل من علم بدعائه يتأسى به فى هذا الدعاء ويستغيث ربه كما استغاث .

الإيضاح

(إذ تستغيثون ربكم) أى اذكروا وقت استغاثتكم ربكم قائلين ربنا انصرنا على عدوك ، يا غياث المستغيثين أغثنا ، والأمر بهذا الذكر لبيان نعمة الله عليهم حين التجائهم إليه إذ ضاقت عليهم الحيل وطلبوا مخلصا من تلك الشدة فاستجاب دعاءهم كما قال :

(فاستجاب لكم أنى ممدكم بألف من الملائكة مردفين) أى فأجاب دعاءكم بأنى ممدكم بألف من الملائكة يردف بعضهم بعضا ويتبعه ، وهذا الألف هى وجوههم وأعيانهم — وبهذا يطابق ما جاء فى سورة آل عمران: « بِثَلَاثَةِ آلَافٍ مِنَ الْمَلَائِكَةِ مُنْزَلِينَ . بِخَمْسَةِ آلَافٍ مِنَ الْمَلَائِكَةِ مُسَوِّمِينَ » .

(وما جعله الله إلا بشرى ولتطمئن به قلوبكم) أى وما جعل ذلك الإمداد إلا بشرى لكم بأنكم تنصرون ولتسكن به قلوبكم من الزلزال الذى عرض لكم فكان من مجادلتكم للرسول فى أمر القتال ما كان وبذا تلقون أعداءكم ثابتين موقنين بالنصر .

(وما النصر إلا من عند الله) أى ليس النصر إلا من عند الله دون غيره من الملائكة أو سواهم من الأسباب ، فهو سبحانه الفاعل للنصر والمسخر له كتسخيره للأسباب الحسية والمعنوية ، ولاسيما مالا كسب للبشر فيه كتسخير الملائكة تخالط المؤمنين فتفيد أرواحهم الثبات والاطمئنان .

(إن الله عزيز حكيم) أى إنه تعالى غالب على أمره ، حكيم لايضع شيئا فى غير موضعه .

وظاهر الآية يدل على أن لإنزال الملائكة وإمداد المسلمين بهم فائدة معنوية ، فهو يؤثر فى القلوب فيزيدها قوة وإن لم يكونوا محاربين ، وهناك روايات تدل على أنهم قاتلوا فعلا .

وفى يوم أحد وعدهم الله وعدا معلقا على الصبر والتقوى ولكن الشرط الأخير قد انتفى فانتفى ما علق عليه .

(إذ يغشيكم النعاس أمنة منه) أى إنه تعالى ألقى عليهم النعاس حتى غشيهم وغلب عليهم تأمينا لهم من الخوف الذى كان يساورهم من الفرق الشاسع بينهم وبين عدوهم فى العدد والعدة ونحو ذلك ، إذ من غلب عليه النعاس لايشعر بالخوف ، كما أن الخائف لاينام ولكن قد ينعس إذ تفتر منه الحواس والأعصاب .

روى البيهقى فى الدلائل عن على كرم الله وجهه قال : « ما كان فينا فارس يوم بدر غير المقداد ولقد رأيتنا وما فينا إلا نائم إلا رسول الله صلى الله عليه وسلم يصلى تحت شجرة حتى أصبح » ، والمتبادر من الآية أن النعاس كان فى أثناء القتال ، وهو يمنع الخوف لأنه ضرب من الذهول والغفلة عن الخطر .

(وينزل عليكم من السماء ماء ليطهركم به، ويذهب عنكم رجز الشيطان، وليربط على قلوبكم، ويثبت به الأقدام) روى ابن المنذر من طريق ابن جرير عن ابن عباس رضى الله عنه : أن المشركين غلبوا المسلمين فى أول أمرهم على الماء فظمئ المسلمون وصلوا مجنبين محدثين ، وكان بينهم رمال فألقى الشيطان فى قلوبهم الحزن وقال : أتزعمون أن فيكم نبيا وأنكم أولياء وتصلون مجنبين محدثين فأنزل الله من السماء ماء فسال عليهم الوادى ماء فشرب المسلمون وتطهروا وثبتت أقدامهم (أى على الرمل اللين لتلبده بالمطر) وذهبت وسوسته .

وقال ابن القيم : أنزل الله فى تلك الليلة مطرا واحدا فكان على المشركين وابلا شديدا منعهم من التقدم وكان على المسلمين طلا طهرهم به وأذهب عنهم رجس الشيطان ، ووطأ به الأرض ، وصلب الرمل ، وثبت الأقدام ومهد به المنزل ، وربط على قلوبهم ، فسبق رسول الله وأصحابه إلى الماء فنزلوا عليه شطر الليل وصنعوا الحياض ثم غوروا ما عداها من المياه ونزل رسول الله وأصحابه على الحياض وبنى لرسول الله صلى الله عليه وسلم عريش على تل مشرف على المعركة ، ومشى فى موضع المعركة وجعل يشير بيده (هذا مصرع فلان ، وهذا مصرع فلان إن شاء الله تعالى فما تعدى أحد منهم موضع إشارته) اه .

وقال ابن إسحاق : «إن الحُباب بن المنذر قال يا رسول الله : أرأيت هذا المنزل ؟ أمنزلا أنزلكه الله ليس لنا أن نتقدمه ولا أن نتأخر عنه أم هو الرأى والحرب والمكيدة ؟ قال : (بل هو الحرب والرأى والمكيدة) قال يا رسول الله فإن هذا ليس بمنزل فانهض بالناس حتى تأتى أدنى ماء من القوم فننزله ثم نغوّر ما وراءه من القُلُب (الآبار غير المبنية) ثم نبنى عليها حوضا فنملؤه ماء ثم نقاتل القوم فنشرب ولا يشربون . فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم لقد أشرت بالرأى ،وفعلوا ذلك » .

وقد فهم من الآية أنه كان لهذا المطر أربع فوائد :

(١) تطهيرهم حسيا بالنظافة التى تنشط الأعضاء وتدخل السرور على النفس وشرعيا بالغسل من الجنابة والوضوء من الحدث الأصغر .

(٢) إذهاب رجس الشيطان ووسوسته .

(٣) الربط على القلوب : أى توطين النفس على الصبر وتثبيتها كما قال : « وَأَصْبَحَ فُؤَادُ أُمِّ مُوسَى فَارِغًا إِنْ كَادَتْ لَتُبْدِى بِهِ لَوْلَا أَنْ رَبَطْنَا عَلَى قَلْبِهَا » وهذا لما للمطر من المنافع التى تكون أثناء القتال .

(٤) تثبيت الأقدام به ، ذاك أن هذا المطر لبد الرمل وصيره بحيث لاتغوص فيه أرجلهم فقدروا على المشى كيف أرادوا ، ولولاه لما قدروا على ذلك .

(إذ يوحى ربك إلى الملائكة أنى معكم فثبتوا الذين آمنوا) أى يثبت الله الأقدام بالمطر وقت الكفاح الذى يوحى فيه ربك إلى الملائكة آمرا لهم أن يثبتوا به قلوب المؤمنين ويقووا عزائمهم فيلهموها تذكر وعد الله لرسوله وأنه لايخلف الميعاد ، فالمراد بالمعية فى قوله (أنى معكم) معية الإعانة والنصر والتأييد فى مواطن الجد ومقاساة شدائد القتال .

وهذه منّة خفية أظهرها الله تعالى ليشكروه عليها وقد أخرج البيهقى فى الدلائل أن الملك كان يأتى الرجل فى صورة الرجل يعرفه فيقول : أبشروا فإنهم ليسوا بشىء والله معكم ، كرّوا عليهم .

وقال الزجاج : كان ذلك بأشياء يلقونها فى قلوبهم تصح بها عزائمهم ويتأكد جدهم ، وللملك قوة إلقاء الخير ويقال له إلهام، كما أن للشيطان قوة إلقاء الشر ويقال لها وسوسة .

(سألقى فى قلوب الذين كفروا الرعب) هذا تفسير لقوله إنى معكم كأنه قيل إنى معكم فى إعانتكم بإلقاء الرعب فى قلوبهم .

(فاضربوا فوق الأعناق واضربوا منهم كل بنان) أى فاضربوا الهام وافلقوا

الرءوس واحتزوا الرقاب وقطعوها وقطعوا الأيدى ذات البنان التى هى أداة التصرف فى الضرب وغيره .

وقد كان النبى صلى الله عليه وسلم يمر بين القتلى ببدر بعد انتهاء المعركة ويقول (نفلق هاما) فيتم البيت أبو بكر رضى الله عنه وهو :

نفلق هاما من رجال أعزة　　　علينا وهم كانوا أعق وأظلما

وفى ذلك دليل على ألمه صلوات الله عليه من الضرورة التى ألجأته إلى قتل صناديد قومه ، فالمشركون هم الذين ظلموه هو ومن آمن به حتى أخرجوهم من وطنهم بغيا وعدوانا ثم تبعوهم إلى دار هجرتهم يقاتلونهم فيها .

ثم بين سبب ذلك التأييد والنصر فقال :

(ذلك بأنهم شاقوا الله ورسوله) أى ذلك الذى ذكر من تأييد الله للمؤمنين وخذلانه المشركين بسبب أنهم شاقوا الله ورسوله : أى عادوهما فكان كل منهما فى شق غير الذى فيه الآخر ، فالله هو الحق والداعى إلى الحق ، ورسوله هو المبلغ عنه ، والمشركون على الباطل وما يستلزمه من الشرور والآثام والخرافات .

(ومن يشاقق الله ورسوله فإن الله شديد العقاب) أى ومن يخالف أمر الله ورسوله فهو الحقيق بعقابه فلا أجدر بالعقاب من المشاقين له الذين يؤثرون الشرك وعبادة الطاغوت على توحيده تعالى وعبادته ، و يعتدون على أوليائه بمحاولة ردّهم عن دينهم بالقوة والقهر و إخراجهم من ديارهم ثم إتباعهم إلى مهجرهم يقاتلونهم فيه .

(ذلكم فذوقوه وأن للكافرين عذاب النار) أى هذا العقاب الذى عجلت لكم أيها الكافرون المشاقون لله ورسوله فى الدنيا من انكسار وانهزام مع الخزى والذل أمام فئة قليلة العَدد والعُدد من المسلمين ، فذوقوه عاجلا ، واعلموا أن لكم فى الآخرة عذاب النار إن أصررتم على كفركم ، وهو شر العذابين وأبقاهما .

يأَيُّها الَّذِينَ آمَنُوا إِذَا لَقِيتُمُ الَّذِينَ كَفَرُوا زَحْفاً فَلاَ تُوَلُّوهُمُ الْأَدْبَارَ (١٥) وَمَنْ يُوَلِّهِمْ يَوْمَئِذٍ دُبُرَهُ إِلاَّ مُتَحَرِّفاً لِقِتَالٍ أَوْ مُتَحَيِّزاً إِلَى فِئَةٍ فَقَدْ بَاءَ بِغَضَبٍ مِنَ اللَّهِ وَمَأْوَاهُ جَهَنَّمُ وَ بِئْسَ الْمَصِيرُ (١٦) فَلَمْ تَقْتُلُوهُمْ وَلَكِنَّ اللَّهَ قَتَلَهُمْ، وَمَا رَمَيْتَ إِذْ رَمَيْتَ وَلَكِنَّ اللَّهَ رَمَى وَلِيُبْلِيَ الْمُؤْمِنِينَ مِنْهُ بَلاَءً حَسَناً ، إِنَّ اللَّهَ سَمِيعٌ عَلِيمٌ (١٧) ذَلِكُمْ وَأَنَّ اللَّهَ مُوهِنُ كَيْدِ الْكَافِرِينَ (١٨) إِنْ تَسْتَفْتِحُوا فَقَدْ جَاءَكُمُ الْفَتْحُ ، وَإِنْ تَنْتَهُوا فَهُوَ خَيْرٌ لَكُمْ ، وَإِنْ تَعُودُوا نَعُدْ وَلَنْ تُغْنِيَ عَنْكُمْ فِئَتُكُمْ شَيْئاً وَلَوْ كَثُرَتْ وَأَنَّ اللَّهَ مَعَ الْمُؤْمِنِينَ (١٩) .

شرح المفردات

الزحف : من زحف إذا مشى على بطنه كالحية أو دبّ على مقعده كالصبى أو على ركبتيه ، أو مشى بثقل فى الحركة واتصال وتقارب فى الخطو كزحف صغار الجراد والعسكر المتوجه إلى العدو لأنه لكثرته وتكاثفه يرى كأنه يزحف إذ الكل يرى كجسم واحد متصل فتحسّ حركته بطيئة وإن كانت فى الواقع سريعة ، والأدبار : واحدها دبر وهو الخلف ، ومقابله القبل ومن ثم يكنى بهما عن السوءتين، وتولية الدبر والأدبار : يراد بهما الهزيمة لأن المنهزم يجعل خصمه متوجها إلى دبره ومؤخره ، والمتحرف للقتال وغيره: هو المنحرف عن جانب إلى آخر، من الحرف وهو الطرف ، والفئة : الطائفة من الناس ، والمأوى : الملجأ الذى يأوى إليه الإنسان ، والموهن : المضعف، من أوهنه إذا أضعفه، والكيد: التدبير الذى يقصد به غير ظاهره فتسوء عاقبة من يقصد به ، والاستفتاح: طلب الفتح ، والفصل فى الأمر ؛ كالنصر فى الحرب .

المعنى الجملى

ذكر الله تعالى فى هذه الآيات حكما عامّا لما سيقع من الوقائع والحروب فى مستأنف الزمان، وجاء به فى أثناء قصة بدر عناية بشأنه وحثًّا للمؤمنين على المحافظة عليه .

الإيضاح

(يأيها الذين آمنوا إذا لقيتم الذين كفروا زحفا) أى يأيها الذين صدقوا الله ورسوله ، إذا لقيتم الذين كفروا حال كونهم زاحفين لقتالكم زحفا ، إذ الكفار هم الذين زحفوا من مكة إلى المدينة لقتال المؤمنين فقابلوهم ببدر .

(فلا تولوهم الأدبار) أى فلا تولوهم ظهوركم وأقفيتكم منهزمين منهم وإن كانوا أكثر منكم عددا وعُدة ، ولكن اثبتوا لهم فإن الله معكم عليهم .

(ومن يولهم يومئذ دبره إلا متحرّفا لقتال أو متحيزا إلى فئة فقد باء بغضب من الله ومأواه جهنم وبئس المصير) أى ومن يولهم حين تلقونهم ظهره إلا متحرفا لمكان رآه أحوج إلى القتال فيه ، أو لضرب من ضروبه رآه أنكى بالعدو كأن يوهم خصمه أنه منهزم منه ليغريه باتباعه حتى إذا انفرد عن أنصاره كرّ عليه فقتله ـ أو منتقلا إلى فئة من المؤمنين فى جهة غير التى كان فيها ليشد أزرهم وينصرهم على عدو تكاثر جمعه عليهم فصاروا أحوج إليه ممن كان معهم ـ من فعل ذلك فقد رجع متلبسا بغضب عظيم من الله ، ومأواه الذى يلجأ إليه فى الآخرة جهنم دار العقاب وبئس المصير هى :

ذاك أن المنهزم أراد أن يأوى إلى مكان يأمن فيه الهلاك فعوقب بجعل عاقبته دار الهلاك والعذاب الدائم وجوزى بضد غرضه .

وفى الآية دلالة على أن الفرار من الزحف من كبائر المعاصى ، وجاء التصريح بذلك فى صحيح الأحاديث فقد روى الشيخان عن أبى هريرة مرفوعا « اجتنبوا

السبع الموبقات (المهلكات) قالوا يارسول الله وما هن؟ . قال: الشرك بالله والسحر وقتل النفس التى حرم الله إلا بالحق وأكل الربا وأكل مال اليتيم والتولى يوم الزحف وقذف المحصنات الغافلات المؤمنات » .

وقد خصص بعض العلماء هذا بما إذا كان الكفار لايزيدون على ضعف المؤمنين . قال الشافعى: إذا غزا المسلمون فلقوا ضعفهم من العدو حرم عليهم أن يولوا إلا متحرفين لقتال أو متحيزين إلى فئة ، وإن كان المشركون أكثر من ضعفهم لم أحب لهم أن يولوا ، ولا يستوجبون السخط عندى من الله لو ولوا عنهم على غير التحرف للقتال أو التحيز إلى فئة . وروى عن ابن عباس قال: من فرّ من ثلاثة فلم يفر، ومن فرّ من اثنين فقد فرّ .

(فلم تقتلوهم ولكن الله قتلهم) أى يأيها الذين آمنوا لاتولوا الكفار ظهوركم أبدًا فأنتم أولى منهم بالثبات والصبر ثم بنصر الله تعالى ، انظروا إلى ما أوتيتم من نصر عليهم على قلة عَددكم وعُدتكم وكثرتهم واستعدادهم ، ولم يكن ذلك إلا بتأييد من الله تعالى لكم وربطه على قلوبكم وتثبيت أقدامكم ، فلم تقتلوهم ذلك القتل الذى أفنى كثيرا منهم بقوتكم وعُدتكم، ولكن قتلهم بأيديكم، بما كان من تثبيت قلوبكم بمخالطة الملائكة وملابستها لأرواحكم ، وبإلقائه الرعب فى قلوبهم ، وهذا بعينه هو ماجاء فى قوله تعالى : « قَاتِلُوهُمْ يُعَذِّبْهُمُ اللهُ بِأَيْدِيكُمْ وَيُخْزِهِمْ وَيَنْصُرْكُمْ عَلَيْهِمْ وَيَشْفِ صُدُورَ قَوْمٍ مُؤْمِنِينَ » .

والمؤمن أحرى بالصبر الذى هو من أجلّ عوامل النصر من الكافر ، إذ هو أقلّ حرصا على متاع الدنيا وأعظم رجاء لله والدار الآخرة ، يؤيد هذا قوله تعالى: « وَلاَ تَهِنُوا فِي ابْتِغَاءِ الْقَوْمِ إِنْ تَكُونُوا تَأْلَمُونَ فَإِنَّهُمْ يَأْلَمُونَ كَمَا تَأْلَمُونَ وَتَرْجُونَ مِنَ اللهِ مَا لاَ يَرْجُونَ » .

ثم انتقل من خطاب المؤمنين الذين قتلوا أولئك الصناديد بسيوفهم إلى خطاب الرسول صلى الله عليه وسلم ، وهو قائدهم الأعظم فقال :

(وما رميت إذ رميت ولـكن الله رمى) أى وما رميت أيها الرسول أحدا من المشركين فى الوقت الذى رميت فيه القبضة من التراب بإلقائها فى الهواء فأصابت وجوههم فإن مافعلته لايكون له من التأثير مثل ماحدث ، ولـكن الله رمى وجوههم كلهم بذلك التراب الذى ألقيته فى الهواء على قلته أو بعد تكثيره بمحض قدرته .

فقد روى « أن النبى صلى الله عليه وسلم رمى المشركين يومئذ بقبضة من التراب وقال : شاهت الوجوه ثلاثا ، فأعقبت رميته هزيمتهم » .

وروى على بن أبى طلحة عن ابن عباس أن النبى صلى الله عليه وسلم لما قال فى استغاثته يوم بدر «يارب إن تهلك هذه العصابة فلن تعبد فى الأرض أبدا » قال له جبريل : خذ قبضة من التراب فارم بها وجوههم ، ففعل فما من أحد من المشركين إلا أصاب عينيه ومنخريه وفمه تراب من تلك القبضة فولوا مدبرين .

والفرق بين قتل المسلمين للـكفار وبين رمى النبى صلى الله عليه وسلم إياهم بالتراب: أن الأول فعل من أفعالهم المقدورة لهم على حسب سنن الله فى الأسباب الدنيوية، وأن الثانى لم يكن سببا عاديا لإصابتهم وهزيمتهم ، لامشاهدا كضرب أصحابه لأعناق المشركين ، ولا غير مشاهد إذ هو لايكون سببا لشكاية أعينهم وشوهة وجوههم لقلته وبعده عن راميه وكونهم غير مستقبلين له كلهم، ومن ثم كانت الحاجة ماسة إلى بيان نقص الأول وعدم استقلاله بالسببية وبيان أنه لولا تأييد الله ونصره لما وصل كسبهم المحض إلى هذا القتل ؛ لأنك قد علمت ما كان من خوفهم وكراهتهم للقتال ومجادلة النبى صلى الله عليه وسلم ، فهم لو ظلوا على هذه الحال مع قلتهم وضعفهم لـكان مقتضى الأسباب العادية أن يمحقهم المشركون محقا .

فالفرق بين فعله تعالى فى القتل وفعله فى الرمى ــ أن الأول عبارة عن تسخيره تعالى لهم أسباب القتل كما هو الحال فى جميع كسب البشر وأعمالهم الاختيارية من كونها لاتستقل فى حصول غاياتها إلا بفعل الله وتسخيره لهم ، وللأسباب التى لايصل إليها كسبهم عادة كما بين ذلك سبحانه بقوله «أَفَرَأَيْتُمْ مَا تَحْرُثُونَ . ءَأَنْتُمْ تَزْرَعُونَهُ

أَمْ نَحْنُ الزَّارِعُونَ » فالإنسان يحرث الأرض ويلقى فيها البذر ولكنه لا يملك إنزال المطر ولا إنبات الحب وتغذيته بمختلف عناصر التربة ولا دفع الجوائح عنه .

وأن الثانى من فعله تعالى وحده بدون كسب عادى للنبى صلى الله عليه وسلم فى تأثيره ، فالرمى منه كان صوريا لتظهر الآية على يده صلى الله عليه وسلم فما مثله فى ذلك إلا مثل أخيه موسى صلى الله عليه وسلم فى إلقائه العصا « فَإِذَا هِىَ حَيَّةٌ تَسْعَى » .

(وليبلى المؤمنين منه بلاء حسنا) أى فعل الله ماذكر لإقامته حجته وتأييد رسوله ، وليبلى المؤمنين منه بلاء حسنا بالنصر والغنيمة وحسن السمعة .

(إن الله سميع عليم) أى إنه تعالى سميع لما كان من استغاثة الرسول والمؤمنين ربهم ودعائهم إياه وحده ولكل نداء وكلام ، عليم بنيّاتهم الباعثة عليه والعواقب التى تترتب عليه .

(ذلكم وأن الله موهن كيد الكافرين) أى ذلكم البلاء الحسن هو الذى سمعتم ــ إلى أنه تعالى مضعف كيد الكافرين ومكرهم بالنبى صلى الله عليه وسلم والمؤمنين ومحاولتهم القضاء على دعوة التوحيد والإصلاح قبل أن يقوى أمرها وتشتد .

وبعد أن ذكر خذلانهم وإضعاف كيدهم ــ انتقل منه إلى توبيخهم على استنصارهم إياه على رسوله صلى الله عليه وسلم، وقد روى محمد بن إسحاق عن الزهرى أن أباجهل قال يوم بدر : اللهم أينا كان أقطع للرحم وأتى بما لا يعرف فأحنه الغداة ، فكان ذلك منه استفتاحا . وقال السدى : كان المشركون حين خرجوا من مكة إلى بدر أخذوا بأستار الكعبة فاستنصروا الله وقالوا : اللهم انصر أعلى الجندين وأكرم الفئتين ، وخير القبيلتين فأجابهم الله بقوله :

(إن تستفتحوا فقد جاءكم الفتح) أى إن تستنصروا لأعلى الجندين وأهداهما فقد جاءكم الفتح ونصر أعلاهما وأهداهما .

وهذا من قبيل التهكم بهم؛ لأنه قد جاءهم الهلاك والذلة .

(وإن تنتهوا فهو خير لكم) أى وإن تنتهوا عن عداوة النبى صلى الله عليه وسلم وقتاله فالانتهاء خير لكم ؛ لأنكم قد ذقتم من الحرب ما ذقتم من قتل وأسر بسبب ذلك العدوان .

(وإن تعودوا نعد) أى وإن تعودوا إلى حربه وقتاله نعد إلى مثل ما رأيتم من الفتح له عليكم حتى يجىء الفتح الأعظم الذى به تدول الدولة للمؤمنين عليكم وبه يذل شرككم وتذهب ريحكم .

(ولن تغنى عنكم فئتكم شيئا ولو كثرت) أى ولن يدفع عنكم رهطكم شيئا من بأس الله وشديد نقمته ولو كثرت عددا ، إذ لا تكون الكثرة وسيلة من وسائل النصر أمام القلة إلا إذا تساوت مع القلة فى أمور كثيرة كالصبر والثبات والثقة بالله تعالى ، فهو الذى بيده النصر والقوة .

(وأن الله مع المؤمنين) بمعونته وتوفيقه فلا تضرهم قلتهم ولا كثرة عددكم فهو يؤتى النصر من يشاء من عباده ، والعاقبة للمتقين .

يَـٰأَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا أَطِيعُوا اللَّهَ وَرَسُولَهُ وَلَا تَوَلَّوْا عَنْهُ وَأَنْتُمْ تَسْمَعُونَ (٢٠) وَلَا تَكُونُوا كَالَّذِينَ قَالُوا سَمِعْنَا وَهُمْ لَا يَسْمَعُونَ (٢١) إِنَّ شَرَّ الدَّوَابِّ عِنْدَ اللَّهِ الصُّمُّ الْبُكْمُ الَّذِينَ لَا يَعْقِلُونَ (٢٢) وَلَوْ عَلِمَ اللَّهُ فِيهِمْ خَيْرًا لَأَسْمَعَهُمْ ، وَلَوْ أَسْمَعَهُمْ لَتَوَلَّوْا وَهُمْ مُعْرِضُونَ (٢٣) .

المعنى الجملى

بعد أن هدد الله المشركين بقوله : وإن تنتهوا فهو خير لكم وإن تعودوا نعد ولن تغنى عنكم فئتكم شيئا – قفى على ذلك بتأديب المؤمنين بالأمر بطاعة الرسول وإجابة دعوته إذا دعا للقتال فى سبيل حياطة الدين وصد من يمنع نشره ويقف فى طريق تبليغ دعوته فقال :

الإيضاح

(يأيها الذين آمنوا أطيعوا الله ورسوله ولا تولوا عنه وأنتم تسمعون) أى أطيعوا الله ورسوله فى الإجابة إلى الجهاد وفى الإجابة إلى ترك المال إذا أمر الله بتركه ولا تُعرضوا عن طاعته وعن قبول قوله وعن معونته فى الجهاد وأنتم تسمعون كلام الله الداعى إلى وجوب طاعته وموالاته ونصره ، ولاشك أن المراد بالسماع هنا سماع الفهم والتصديق بما يسمع كما هو شأن المؤمنين الذين من دأبهم أن يقولوا « سَمِعْنَا وَأَطَعْنَا غُفْرَانَكَ رَبَّنَا وَإِلَيْكَ الْمَصِيرُ » .

(ولا تكونوا كالذين قالوا سمعنا وهم لايسمعون) وهؤلاء القائلون فريقان : فريق الكفار المعاندين ، وفريق المنافقين الذين قال فى بعض منهم « وَمِنْهُمْ مَنْ يَسْتَمِعُ إِلَيْكَ حَتَّى إِذَا خَرَجُوا مِنْ عِنْدِكَ قَالُوا لِلَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ مَاذَا قَالَ آنِفاً ؟ » .

(إن شرالدواب عندالله الصمّ البكم الذين لايعقلون) الدواب، واحدها دابة : وهى كل مادب على الأرض كما قال « وَاللهُ خَلَقَ كُلَّ دَابَّةٍ مِنْ مَاءٍ » وقلّ أن يستعمل فى الإنسان بل الغالب أن يستعمل فى الحشرات ودواب الركوب ، فإذا استعمل فيه كان ذلك فى موضع الاحتقار ، أى إن شر مادب على الأرض فى حكم الله وقضائه هم الصم الذين لا يصغون بأسماعهم ليعرفوا الحق ويعتبروا بالموعظة الحسنة فهم بفقدهم لمنفعة السمع كانوا كأنهم فقدوا حاسته ، البكم الذين لايقولون الحق ، ومن ثم كانوا كأنهم فقدوا المنطق ، الذين لايعقلون الفرق بين الحق والباطل والخير والشر؛ إذ هم لوعقلوا لطلبوه واهتدوا إلى مافيه المنفعة والفائدة لهم كما قال « إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَذِكْرَى لِمَنْ كَانَ لَهُ قَلْبٌ أَوْ أَلْقَى السَّمْعَ وَهُوَ شَهِيدٌ » .

والخلاصة — إنهم حين فقدوا منفعة السمع والنطق والعقل كانوا كأنهم فقدوا هذه المشاعر والقوى بأن خلقوا خداجا ناقصى هذه المشاعر أو طرأت عليهم آفات

أذهبت هذه القوى بل هم شر منهم ، لأن هذه المشاعر خلقت لهم فأفسدوها على أنفسهم إذ لم يستعملوها فيما خلقت لأجله حين التكليف .

(ولو علم الله فيهم خيرا لأسمعهم) أى ولو علم الله فيهم استعدادا للإيمان والهداية بنور النبوة ولم يفسد قبس الفطرة سوء القدوة وفساد التربية، لأسمعهم بتوفيقه الكتاب والحكمة سماع تدبر وتفهم ، ولكنه قد علم أنه لاخير فيهم فهم ممن ختم الله على قلوبهم وأحاطت بهم خطاياهم .

(ولو أسمعهم لتولوا وهم معرضون) أى ولو أسمعهم ـ وقد علم أنه لاخير فيهم ـ لتولوا عن القبول والإذعان وهم معرضون من قبل ذلك بقلوبهم عن قبوله والعمل به كراهة وعنادا للداعى إليه ولأهله ففقدوا الاستعداد لقبول الحق والخير فقداً تاما، لافقدا عارضا موقوتا .

والخلاصة ـ إن للسماع درجات باعتبار ما يطالب الله به من الاهتداء بكتابه :

(١) أن يتعمد من يتلى عليه ألا يسمعه مبارزة له بالعدوان بادئ ذى بدء خوفا من سلطانه على القلوب أن يغلبهم .

(٢) أن يستمع وهو لا ينوى أن يفهم ويتدبر كالمنافقين الذين قال الله فيهم : « وَمِنْهُمْ مَنْ يَسْتَمِعُ إِلَيْكَ حَتَّى إِذَا خَرَجُوا مِنْ عِنْدِكَ قَالُوا لِلَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ مَاذَا قَالَ آنِفاً » .

(٣) أن يستمع لأجل التماس شبهة للطعن والاعتراض ، كما كان يفعل المعاندون من المشركين وأهل الكتاب وقت التنزيل وفى كل حين إذا استمعوا إلى القرآن أو نظروا فيه .

(٤) أن يسمع ليفهم ويتدبر ثم يحكم له أو عليه ، وهذا هو المنصف ، وكم من السامعين أو القارئين آمن بعد أن نظر وتأمل ؛ فقد نظر طبيب فرنسى فى ترجمة القرآن فرأى أن كل النظريات الطبية التى فيه كالطهارة والاعتدال فى المآكل والمشارب وعدم الإسراف فيهما ونحو ذلك من المسائل التى فيها محافظة على الصحة

ـ توافق أحدث النظريات التى استقر عليها رأى الأطباء فى هذا العصر فرغب فى هذا كله وأسلم ؛ ورأى ربان بارجة انكليزية ترجمة القرآن واستقصى كل مافيها من الكلام عن البحار والرياح فظن أن النبى صلى الله عليه وسلم كان من كبار الملاحين فى البحار ، و بعد أن سأل عن ذلك وعرف أنه لم يركب البحر قط ، وهو مع ذلك أمّىّ لم يقرأ كتابا ولا تلقى عن أحد درساً قال : الآن علمت أنه كان يوحى من الله لأن فيه حقائق لا يعلمها إلا من اختبر البحار بنفسه ، أو تلقاها عن غيره من المختبرين ، ثم أسلم وتعلم العربية .

وكثير من المسلمين يستمعون القراء و يتلون القرآن فلا يشعرون بأنهم فى حاجة إلى فهمه وتدبر معناه ، بل يستمعون للتلذذ بتجويده وتوقيع التلاوة على قواعد النغم ، أو يقصدون بسماعه التبرك فقط ، ومنهم من يحضر الحفاظ عنده فى ليالى رمضان ، و يجلسهم فى حجرة البوّابين أو غيرهم من الخدم تشبها بالأكابر والوجهاء .

يَـٰأَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اسْتَجِيبُوا لِلَّهِ وَلِلرَّسُولِ إِذَا دَعَاكُمْ لِمَا يُحْيِيكُمْ وَاعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ يَحُولُ بَيْنَ الْمَرْءِ وَقَلْبِهِ وَأَنَّهُ إِلَيْهِ تُحْشَرُونَ (٢٤) وَاتَّقُوا فِتْنَةً لَا تُصِيبَنَّ الَّذِينَ ظَلَمُوا مِنْكُمْ خَاصَّةً ، وَاعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ شَدِيدُ الْعِقَابِ (٢٥) وَاذْكُرُوا إِذْ أَنْتُمْ قَلِيلٌ مُسْتَضْعَفُونَ فِي الْأَرْضِ تَخَافُونَ أَنْ يَتَخَطَّفَكُمُ النَّاسُ فَآوَاكُمْ وَأَيَّدَكُمْ بِنَصْرِهِ وَرَزَقَكُمْ مِنَ الطَّيِّبَاتِ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ .

المعنى الجملى

بعد أن ذكر وجوب طاعة الرسول صلى الله عليه وسلم ، وعدم التولى حين الجهاد ، أردفه بالأمر بالاستجابة له إذا دعاهم لهدى الدين وأحكامه عامة لما فى ذلك من

تكميل الفطرة الإنسانيَّة وسعادتها فى الدنيا والآخرة ، وكرر النداء بلفظ المؤمنين تنشيطا لهم إلى الإصغاء لما يرد بعده من الأوامر والنواهى ، وإيماء إلى أنهم قد حصلوا ما يوجب عليهم الاستجابة وهو الإيمان .

الإيضاح

(يأيها الذين آمنوا استجيبوا لله وللرسول إذا دعاكم لما يحييكم) أى إن الرسول قد دعاكم بأمر ربكم لما فيه حياتكم الروحية: من علم بسنن الله فى خلقه وحكمة وفضيلة ترفع نفس الإنسان وترقى به إلى مراتب الكمال حتى يحظى بالقرب من ربه وينال رضوانه فى الدار الآخرة — فأجيبوا دعوته بقوة وعزم . كما قال فى آية أخرى « خُذُوا مَا آتَيْنَاكُمْ بِقُوَّةٍ » وطاعته صلى الله عليه وسلم واجبة فى حياته ، وبعد مماته فيما علم أنه دعا إليه دعوة عامة من أمور الدين الذى بعثه الله به كبيانه لصفة الصلاة وعددها قولاً أو فعلا، فقد صلى بأصحابه وقال: « صلوا كما رأيتمونى أصلى » وقال « خذوا عنى مناسككم » وبيانه لمقادير الزكاة وغيرها من السنن العملية المتواترة وأقواله كذلك ، فكل من ثبت لديه شيء منها ببحثه أو بحث العلماء الذين يثق بهم وجب عليه الاهتداء به .

أما الإرشادات النبوية فى أمور العادات كاللباس والطعام والشراب والنوم ، فلم يعدها أحد من الأئمة دينا يجب الاقتداء به فيه .

(واعلموا أن الله يحول بين المرء وقلبه وأنه إليه تحشرون) نبهنا الله فى هذه الآية لأمرين لهما خطرهما فى سعادة الإنسان الأخروية ، وهما :

(١) أنه قد جرت سنة الله فى البشر أن يحول بين المرء وقلبه ، وهو مركز الإحساس والوجدان والإدراك الذى له السلطان على الإرادة والعمل، أى إنه تعالى يميت القلب فتفوت الفرصة التى هو واجدها من التمكن من معالجة أدوائه وعلله ، ورده سليما كما يريده الله ، وهذا أخوف ما يخافه المتقى على نفسه إذا غفل عنها وفرط

فى جنب الله ، وكذلك هو أرجى شىء يرجوه المسرف إذا لم ييأس من روح الله ، فإنا لنشاهد أن كثيراً من الناس يسيرون على الهدى و يتقون الطرق التى تصل بهم إلى مهاوى الهلاك والردى فإذا بقلوبهم قد تقلبت بعواصف تميل بهم عن الصراط المستقيم كشبهة تزعزع الاعتقاد أو شهوة يغلب بها الغىّ الرشاد فيطيعون أهواءهم ويسيرون وراء وساوس الشيطان ، وفى ذلك إيماء إلى أن الطائع الجدّ لا يأمن مكر الله فيغترّ بطاعته ويعجب بنفسه، والعاصى المنصرف عن الطاعة لاييأس من روح الله فيسترسل فى اتباع هواه حتى تحيط به خطاياه ، ومن لم يأمن عقاب الله ولا ييأس من روح الله كان جديراً بأن يراقب قلبه ، ويحاسب نفسه على خواطره ويعاقب نفسه على هفواته ، لتظل على الصراط المستقيم .

والخلاصة — إن من سننه تعالى فى البشر أن من يتبع هواه فى أعماله تضعف إرادته فى مقاومته فلا تؤثر فيه المواعظ القولية ولا العبر المبصرة ولا المعقولة ، روى البخارى وأصحاب السنن قال : كانت يمين النبى صلى الله عليه وسلم « لا ومقلب القلوب » .

(٢) أن نتذكر حشرنا إليه ومحاسبته إيانا على أعمالنا القلبية والبدنية ، ومجازاته إيانا بالعذاب أوالنعيم ، فلا نألو جهداً فى انتهاز الفرصة لنعمل صالح الأعمال.

و بعد أن أمرنا الله بتلك الأوامر ونهانا عن تلك النواهى التى تخص أعمال الإنسان الاختيارية ، أمرنا أن نتقى الفتن الاجتماعية التى لاتخص الظالمين، بل تتعداهم إلى غيرهم ، وتصل إلى الصالح والطالح فقال :

(واتقوا فتنة لاتصيبنّ الذين ظلموا منكم خاصة) الفتنة : البلاء والاختبار، أى اتقوا وقوع الفتن التى لا تختص إصابتها بمن يباشرها وحده ، بل تعمه وغيره كالفتن القومية التى تقع بين الأمم فى التنازع على المصالح العامة من الملك والسيادة أو التفرق فى الدين والشريعة والانقسام إلى الأحزاب الدينية والأحزاب السياسية ، ونحو ذلك

من ظهور البدع والتكاسل فى الجهاد وإقرار المنكر الذى يقع بين أظهرهم والمداهنة فى الأمر بالمعروف ونحو ذلك من الذنوب التى جرت سنة الله بأن تعاقب عليها الأمم فى الدنيا قبل الآخرة .

أخرج ابن جرير من طريق الحسن قال : لقد خُوفنا بهذه الآية ، ونحن مع رسول الله صلى الله عليه وسلم وما ظننا أننا خصصنا بها ، وأخرج ابن جرير وابن المنذر فى الآية قال : نزلت فى على وعثمان وطلحة والزبير، وأخرج أبو الشيخ عن قتادة قال : علم والله ذوو الألباب من أصحاب محمد حين نزلت هذه الآية أن سيكون فتن . وروى عن ابن عباس قال : أمر الله المؤمنين ألا يقروا المنكر بين أظهرهم فيعمهم الله بالعذاب . وقال عدى بن عميرة : سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول : « إن الله لا يعذب العامة بعمل الخاصة حتى يروا المنكر بين ظهرانيهم ، وهم قادرون على أن ينكروه فإذا فعلوا ذلك عذب الله الخاصة والعامة » وروى أحمد والبزار وابن مردويه عن مُطَرِّف قال : قلنا للزبير يا أبا عبد الله ضيعتم الخليفة (عثمان) حتى قتل ثم جئتم تطلبون بدمه فقال : إنا قرأنا على عهد رسول الله صلى الله عليه وسلم وأبى بكر وعمر وعثمان « وَاتَّقُوا فِتْنَةً لَا تُصِيبَنَّ الَّذِينَ ظَلَمُوا مِنْكُمْ خَاصَّةً » ولم نكن نحسب أنا أهلها حتى وقعت فينا حيث وقعت .

وعلى الجملة ففتنة عثمان كانت أول الفتن التى اختلفت فيها الآراء فاختلفت أعمال أهل الحل والعقد، وخلا الجوّ للمفسدين من زنادقة اليهود والمجوس وغيرهم ، ثم أعقبتها فتنة الجمل بصفين ثم فتنة ابن الزبير مع بنى أمية ، ثم قتل الحسين بكربلاء ، إلى نحو ذلك من الفتن التى كان لها آثارها فى الإسلام ، ولو تداركوها كما تدارك أبو بكر رضى الله عنه أهل الردة لما كانت فتنة تبعتها فتن كثيرة أكبرها فتن الخلافة والملك وفتن الآراء والمذاهب الدينية والسياسية .

(واعلموا أن الله شديد العقاب) أى إنه تعالى شديد عقابه للأمم والأفراد

خالفت سنته التى لا تبديل لها ولا تحويل أو خالفت هدى دينه المزكى للأنفس المطهر للقلوب .

وهذا العقاب منه ما هو فى الدنيا وهو مطرد فى الأمم ، وقد أصيبت به الأمة الإسلامية فى القرن الأول الذى كان أهله خير القرون بعده ، إذ قصروا فى درء الفتنة الأولى فعاقبهم الله عقابا شديدا على ذلك ثم تسلسل العقاب فى كل جيل وقع فيه ذلك ثم امتزجت الفتن المذهبية بالفتن السياسية على الملك والسلطان حتى دالت الخلافة التى تنازعوا وتنافسوا فيها وتقاتلوا لأجلها .

وقد يقع هذا العقاب للأفراد لكنهم ربما لا يشعرون به لأنه يقع تدريجيا فلا يكاد يحس به ، وأما العقاب الأخروى فأمره إلى الله العالم بالسر والنجوى والذى جعل العقاب آثارا طبيعية للذنوب التى تجترحها الأفراد والأمم .

(واذكروا إذ أنتم قليل مستضعفون فى الأرض) هذا خطاب للمهاجرين يذكرهم فيه سبحانه بما كان من ضعفهم وقلتهم ، وقد يكون الخطاب للمؤمنين عامة فى عصر التنزيل يذكرهم فيه بما كان من ضعف أمتهم العربية فى الجزيرة بين الدول القوية من فارس والروم .

(تخافون أن يتخطفكم الناس) أى تخافون من مبدإ الإسلام إلى حين الهجرة أن يتخطفكم مشركو العرب من قريش وغيرها ، والمراد أن ينتزعوكم بسرعة فيفتكوا بكم كما كان يتخطف بعضهم بعضا فى خارج الحرم وتتخطفهم الأمم من أطراف جزيرتهم كما قال تعالى : « أَوَلَمْ يَرَوْا أَنَّا جَعَلْنَا حَرَمًا آمِناً وَيُتَخَطَّفُ النَّاسُ مِنْ حَوْلِهِمْ » .

(فآواكم وأيدكم بنصره ورزقكم من الطيبات لعلكم تشكرون) أى فآواكم أيها المهاجرون إلى الأنصار وأيدكم وإياهم بنصره فى غزواتكم ، وسيؤيدكم على من سواكم من فارس والروم وغيرهما كما وعدكم بذلك فى كتابه الكريم ، ورزقكم من الطيبات

رجاء أن تشكروا هـــذه النعم وغيرها مما يؤتيكم من فضله كما وعد فى كتابه : « لَئِنْ شَكَرْتُمْ لَأَزِيدَنَّكُمْ » .

وقد أخرج ابن جرير عن قتادة فى قوله (واذكروا إذ أنتم قليل) الآية . قال كان هذا الحى أذل الناس ذلا وأشقاه عيشا ، وأجوعه بطونا ، وأعراه جلودا ، وأبينه ضلالة ، معكوفين على رأس حجر بين فارس والروم ، لا والله مافى بلادهم ما يحسدون عليه ، من عاش منهم عاش شقيا ، ومن مات منهم ردى فى النار ، يؤكلون ولا يأكلون ، لا والله مانعلم قبيلا من حاضر الأرض يومئذ كان أشر منهم منزلا ، حتى جاء الله بالإسلام فمكن به فى البلاد ووسع به فى الرزق ، وجعلكم به ملوكا على رقاب الناس ، وبالإسلام أعطى الله ما رأيتم ، فاشكروا لله نعمه فإن ربكم منعم يحب الشكر ، وأهل الشكر فى مزيد من نعم الله عز وجل .

وفى الآية من العبرة التى يجب على المؤمنين أن يتذكروها أنه أورث من اهتدى بهديه سعادة الدنيا و بسطة السلطان ومكن لأهله فى الأرض وأنالهم مالم يكونوا يرجونه لولا هدى الدين وأورثهم فى الآخرة فوزا ورضوانا من ربهم وروحا وريحانا وجنة نعيم هذا حين كانوا يعملون بهديه ، فلما أعرضوا عنه ونأوا بجانبهم عاقبهم الله بما جرت به سننه فى الأرض فأضاعوا ملكهم وسلط عليهم أعداءهم ، فليعتبر المسلمون بما حل بهم وليرجعوا إلى تاريخ أسلافهم وليستضيئوا بنورهم ويثوبوا إلى رشدهم ، لعله يعيد إليهم تراثهم الغابر وعزهم الماضى : « إِنَّ الْأَرْضَ لِلَّهِ يُورِثُهَا مَنْ يَشَاءُ مِنْ عِبَادِهِ وَالْعَاقِبَةُ لِلْمُتَّقِينَ » .

يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَخُونُوا اللَّهَ وَالرَّسُولَ وَتَخُونُوا أَمَانَاتِكُمْ وَأَنْتُمْ تَعْلَمُونَ (٢٧) وَاعْلَمُوا أَنَّمَا أَمْوَالُكُمْ وَأَوْلَادُكُمْ فِتْنَةٌ وَأَنَّ اللَّهَ عِنْدَهُ أَجْرٌ عَظِيمٌ (٢٨) .

شرح المفردات

الخيانة : لغة تدل على الإخلاف والخيبة بنقص ما كان يرجى ويؤمل من الخائن ، فقد قالوا خانه سيفه إذا نبا عن الضريبة ، وخانته رجلاه إذا لم يقدر على المشى ، ومنه قوله : « عَلِمَ اللهُ أَنَّكُمْ كُنْتُمْ تَخْتَانُونَ أَنْفُسَكُمْ » أى تنقصونها بعض ما أحل لها من اللذات ، ثم استعمل فى ضد الأمانة والوفاء لأن الرجل إذا خان الرجل فقد أدخل عليه النقصان . والأمانة : كل حق مادى أو معنوى يجب عليك أداؤه إلى أهله قال تعالى : « فَإِنْ أَمِنَ بَعْضُكُمْ بَعْضًا فَلْيُؤَدِّ الَّذِى اؤْتُمِنَ أَمَانَتَهُ وَلْيَتَّقِ اللهَ رَبَّهُ وَلاَ يَبْخَسْ مِنْهُ شَيْئًا » والفتنة : الاختبار والامتحان بما يشق على النفس فعله أو تركه أو قبوله أو إنكاره ، فهى تكون فى الاعتقاد والأقوال والأفعال والأشياء ، فيمتحن الله المؤمنين والكافرين والصادقين والمنافقين ، ويجازيهم بما يترتب على فتنتهم من اتباع الحق أو الباطل وعمل الخير أو الشر .

المعنى الجملى

روى أن أبا سفيان خرج من مكة : (وكان لايخرج إلا فى عداوة الرسول صلى الله عليه وسلم والمؤمنين) فأعلم الله رسوله بمكانه ، فكتب رجل من المنافقين إلى أبى سفيان : إن محمدا يريدكم فخذوا حذركم فأنزل الله (لا تخونوا الله والرسول) الآية .

وروى أنها نزلت فى أبى لبابة فإنه كان حليفا لبنى قريظة من اليهود ، فلما خرج إليهم النبى صلى الله عليه وسلم بعد إجلاء إخوانهم من بنى النضير ، أرادوا بعد طول الحصار أن ينزلوا من حصنهم على حكم سعد بن معاذ وكان من حلفائهم من قبل غدرهم ونقضهم لعهد النبى صلى الله عليه وسلم ، فأشار إليهم أبو لبابة ألا تفعلوا وأشار إلى حلقه (يريد أن سعدا سيحكم بذبحهم) فنزلت الآية .

قال أبو لبابة : ما زالت قدماى عن مكانهما حتى علمت أنى خنت الله ورسوله ،

وروى أن رسول الله صلى الله عليه وسلم سأل امرأته : « أيصوم ويصلى ويغتسل من الجنابة ؟ ، فقالت إنه ليصوم ويصلى ويغتسل من الجنابة ويحب الله ورسوله » .

وقد روى أن أبا لبابة شد نفسه على سارية من المسجد وقال : والله لا أذوق طعاما ولا شرابا حتى أموت أو يتوب الله علىّ ، ثم مكث سبعة أيام لايذوق طعاما ولاشرابا حتى خر مغشيا عليه ، ثم تاب الله عليه ، فقيل له : قد تيب عليك ، فقال : والله لا أحل نفسى حتى يكون رسول الله صلى الله عليه وسلم هو الذى يحلنى ، فجاء فحله بيده .

الإيضاح

(يأيها الذين آمنوا لا تخونوا الله والرسول) أى لا تخونوا الله فتعطلوا فرائضه أو تتعدوا حدوده وتنتهكوا محارمه التى بينها لكم فى كتابه ، ولا تخونوا الرسول فترغبوا عن بيانه لكتابه إلى بيانه بأهوائكم أو آراء مشايخكم أو آبائكم أو أوامر أمرائكم ، أو ترك سنته إلى سنة آبائكم وزعمائكم زعما منكم أنهم أعلم بمراد الله ورسوله منكم .

(وتخونوا أماناتكم) أى ولا تخونوا أماناتكم فيما بين بعضكم و بعض من المعاملات المالية وغيرها حتى الشئون الأدبية والاجتماعية ، فإفشاء السر خيانة محرمة ويكفى فى العلم بكونه سرا قرينة قولية كقول محدثك : هل يسمعنا أحد ؟ أو فعلية كالالتفات لرؤية من عساه يجىء ، وآكد أمانات السر وأحقها بالحفظ ما يكون بين الزوجين .

كذلك لا تخونوا أماناتكم فيما بينكم و بين أولى الأمر من شئون سياسية أو حربية فتطلعوا عليها عدوكم وينتفع بها فى الكيد لكم .

والخيانة من صفات المنافقين ، والأمانة من صفات المؤمنين ، قال أنس بن مالك : قلما خطب رسول الله صلى الله عليه وسلم إلا قال : « لا إيمان لمن لاأمانة له ، ولا دين لمن لاعهد له » رواه الإمام أحمد .

وروى الشيخان عن أبي هريرة أن النبي صلى الله عليه وسلم قال : « آية المنافق ثلاث : إذا حدث كذب ، وإذا وعد أخلف ، وإذا ائتمن خان ، وإن صام وصلى وزعم أنه مسلم » .

(وأنتم تعلمون) أي وأنتم تعلمون مفاسد الخيانة وتحريم الله إياها وسوء عاقبتها في الدنيا والآخرة ، وقد يكون المعنى ـ وأنتم تعلمون أن ما فعلتموه خيانة لظهوره ، فإن خفي عليكم حكمه فالجهل له عذر إذا لم يكن مما علم من الدين ضرورة أو مما يعلم ببداهة العقل أو باستفتاء القلب كفعلة أبي لبابة التي كان سببها الحرص على المال والولد ، ومن ثم فطن لها قبل أن يبرح موقفه .

(واعلموا أنما أموالكم وأولادكم فتنة) أي إن فتنة الأموال والأولاد عظيمة لاتخفى على ذوي الألباب ، إذ أموال الإنسان عليها مدار معيشته وتحصيل رغائبه وشهواته ودفع كثير من المكاره عنه ، من أجل ذلك يتكلف في كسبها المشاق ويركب الصعاب ، ويكلفه الشرع فيها التزام الحلال واجتناب الحرام ويرغبه في القصد والاعتدال ، ويتكلف العناء في حفظها وتتنازعه الأهواء في إنفاقها ، ويفرض عليه الشارع فيها حقوقا معينة وغير معينة : كالزكاة ونفقات الأولاد والأزواج وغيرهم .

وأما الأولاد فحبهم مما أودع في الفطرة فهم ثمرات الأفئدة وأفلاذ الأكباد لدى الآباء والأمهات ، ومن ثم يحملهما ذلك على بذل كل مايستطاع بذله في سبيلهم من مال وصحة وراحة ، وقد روى عن أبي سعيد الخدري مرفوعا إلى النبي صلى الله عليه وسلم « الولد ثمرة القلب وإنه مَجْبَنَةٌ مَبْخَلَةٌ مَحْزَنَةٌ » .

فحب الولد قد يحمل الوالدين على اقتراف الذنوب والآثام في سبيل تربيتهم والإنفاق عليهم وتأثيل الثروة لهم ، وكل ذلك قد يؤدي إلى الجبن عند الحاجة إلى الدفاع عن الحق أو الأمة أو الدين ، وإلى البخل بالزكاة والنفقات المفروضة والحقوق الثابتة ؛ كما يحملهم ذلك على الحزن على من يموت منهم بالسخط على المولى والاعتراض

عليه إلى نحو ذلك من المعاصى كنوح الأمهات وتمزيق ثيابهن ولطم وجوههن ؛ وعلى الجملة ففتنة الأولاد أكثر من فتنة الأموال ، فالرجل يكسب المال الحرام ويأكل أموال الناس بالباطل لأجل الأولاد .

فيجب على المؤمن أن يتقى الفتنتين ، فيتقى الأولى بكسب المال من الحلال وإنفاقه فى سبيل البر والإحسان ، ويتقى خطر الثانية من ناحية ما يتعلق منها بالمال ونحوه بما يشير إليه الحديث . ومن ناحية ما أوجبه الدين من حسن تربية الأولاد وتعويدهم الدين والفضائل وتجنيبهم المعاصى والرذائل .

(وأن الله عنده أجر عظيم) فعليكم أن تؤثروا ما عند ربكم من الأجر العظيم بمراعاة أحكام دينه فى الأموال والأولاد على ما عساه قد يفوتكم فى الدنيا من التمتع بهما .

يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِنْ تَتَّقُوا اللَّهَ يَجْعَلْ لَكُمْ فُرْقَانًا وَيُكَفِّرْ عَنْكُمْ سَيِّئَاتِكُمْ وَيَغْفِرْ لَكُمْ وَاللَّهُ ذُو الْفَضْلِ الْعَظِيمِ (٢٩) .

شرح المفردات

التقوى : ترك الذنوب والآثام وفعل ما يستطاع من الطاعات والواجبات الدينية، وبعبارة أخرى : هى اتقاء ما يضر الإنسان فى نفسه وفى جنسه ، وما يحول بينه وبين المقاصد الشريفة والغايات الحسنة ، والفرقان: أصله الفرق والفصل بين الشيئين أو الأشياء، ويراد به هنا نور البصيرة الذى به يُفرق بين الحق والباطل والضار والنافع ، وبعبارة ثانية : هو العلم الصحيح والحكم الرجيح ، وقد أطلق هذا اللفظ على التوراة والإنجيل والقرآن وغلب على الأخير قال تعالى : « تَبَارَكَ الَّذِى نَزَّلَ الْفُرْقَانَ عَلَى عَبْدِهِ لِيَكُونَ لِلْعَالَمِينَ نَذِيرًا » من قِبَل أن كلامه تعالى يفرق فى العلم والاعتقاد بين الإيمان والكفر والحق والباطل والعدل والجور والخير والشر .

المعنى الجملى

لما حذر الله تعالى من الفتنة بالأموال والأولاد ، قفى على ذلك بطلب التقوى التى ثمرتها ترك الميل والهوى فى محبة الأموال والأولاد .

الإيضاح

(يأيها الذين آمنوا إن تتقوا الله يجعل لكم فرقانا) أى إن تتقوا الله فتتبعوا أوامر دينه وتسيروا بمقتضى سننه فى نظام خلقه يجعل لكم فى نفوسكم ملكة من العلم تفرقون بها بين الحق والباطل وتفصلون بين الضار والنافع ، وهذا النور فى العلم الذى لا يصل إليه طالبه إلا بالتقوى هو الحكمة التى قال الله تعالى فيها « وَمَنْ يُؤْتَ الْحِكْمَةَ فَقَدْ أُوتِيَ خَيْرًا كَثِيرًا ، وَمَا يَذَّكَّرُ إِلاَّ أُولُو الْأَلْبَابِ » .

واتقاء الله يتحقق بمعرفة سننه فى الإنسان وحده، أو فيه وهو فى المجتمع الإنسانى كما ترشد إلى ذلك آيات الكتاب الحكيم فى مواضع متفرقة منه ، ومن ثم كانت ثمرة التقوى حصول ملكة الفرقان التى بها يفرق صاحبها بين الأشياء التى تعرض له من علم وحكمة وعمل فيفصل فيها بين ما ينبغى فعله وما يجب تركه .

وعلى الجملة فالمتقى لله يؤتيه الله فرقانا يميز به بين الرشد والغى ، ومن ثم كان الخلفاء والحكام من الصحابة والتابعين من أعدل حكام الأمم فى الأرض ، حتى لقد قال بعض المؤرخين من الإفرنج : ما عرف التاريخ فاتحا أعدل ولا أرحم من العرب .

(ويكفر عنكم سيئاتكم ويغفر لكم والله ذو الفضل العظيم) أى ويمح بسبب ذلك الفرقان وتأثيره ما كان من دنس الآثام فى النفوس فتزول منها داعية العودة إليها ، ويغطيها فيسترها عليكم فلا يؤاخذكم بها ، والله الذى يفعل ذلك بكم له الفضل العظيم عليكم وعلى غيركم من خلقه .

وفى قوله (والله ذو الفضل العظيم) إيماء وتنبيه إلى أن ما وعد به المتقين من المثوبة فضل منه وإحسان تفضل به علينا بدون واسطة وبدون التماس عوض .

وَإِذْ يَمْكُرُ بِكَ الَّذِينَ كَفَرُوا لِيُثْبِتُوكَ أَوْ يَقْتُلُوكَ أَوْ يُخْرِجُوكَ وَيَمْكُرُونَ وَيَمْكُرُ اللهُ، وَاللهُ خَيْرُ الْمَاكِرِينَ (٣٠) وَإِذَا تُتْلَى عَلَيْهِمْ آيَاتُنَا قَالُوا قَدْ سَمِعْنَا لَوْ نَشَاءُ لَقُلْنَا مِثْلَ هٰذَا ، إِنْ هٰذَا إِلَّا أَسَاطِيرُ الْأَوَّلِينَ (٣١) .

شرح المفردات

ليثبتوك : أى ليشدوك بالوثاق ويرهقوك بالقيد والحبس حتى لاتقدر على الحركة ، والمكر : هو التدبير الخفى لإيصال المكروه إلى الممكور به من حيث لايحتسب ، والغالب أن يكون فيما يسوء ويذم من الكذب والحيل ، وإذا نسب إلى الله كان من المشاكلة فى الكلام بتسمية خيبة المسعى فى مكرهم أو مجازاتهم عليه باسمه ، والأساطير : واحدها أسطورة كأرجوحة وأراجيح وأحدوثة وأحاديث وهى الأقاصيص التى سطرت فى الكتب بدون تمحيص ولاتثبت من صحتها ، وفى القاموس : الأساطير الأحاديث لا نظام لها واحدها إسطار وإسطير وأسطور وبالهاء فى الكل ، وأصل السطر الصف من الشىء كالكتاب والشجر اهـ .

المعنى الجملى

لما ذكّر المؤمنين عامة بنعمه عليهم بقوله (واذكروا إذ أنتم قليل مستضعفون فى الأرض) ذكر هنا نعمه على رسوله خاصة بدفع كيد المشركين ومكر الماكرين بنصره عليهم وخيبة مسعاهم فى إيقاع الأذى به بعد أن تآمروا عليه وقطعوا برأى معين فيه .

الإيضاح

(وإذ يمكر بك الذين كفروا) أي واذكر أيها الرسول نعمته تعالى عليك في ذلك الزمن القريب الذي يمكر بك فيه قومك الذين كفروا بما يدبرون في السر من وسائل الإيقاع بك ، فإن في ذلك القصص على المؤمنين والكافرين في عهدك ومن بعدك لأكبر الحجج على صدق دعوتك ووعد ربك بنصرتك .

(ليثبتوك أو يقتلوك أو يخرجوك) أي إن كلمتهم قد اتفقت على إيقاع الأذى بك بإحدى خلال ثلاث : إما الحبس الذي يمنعك من لقاء الناس ودعوتهم إلى الإسلام ، وإما القتل بطريق لا يكون ضررها عظيما عليهم كما سيأتي ، وإما الإخراج والنفي من الوطن .

وقد روى أن أبا طالب قال للنبي صلى الله عليه وسلم : ما يأتمر بك قومك ؟ قال : يريدون أن يسجنوني أو يقتلوني أو يخرجوني ، قال من حدثك بهذا ؟ قال ربي ، قال نعم الرب ربك فاستوص به خيرا . قال أنا أستوصي ؟ بل هو يستوصي بي فنزلت (وإذ يمكر بك الذين كفروا) الآية .

وقد تحدثوا بهذا الحديث فسمعه أبو طالب فبلغه للنبي صلى الله عليه وسلم ، ولكن إجماع الرأي عليه والشروع في تنفيذه قد وقع بعد موت أبي طالب .

(ويمكرون ويمكر الله ، والله خير الماكرين) أي إن دأبهم معك ومع من اتبعك من المؤمنين تدبير الأذى لكم والله يحبط لهم ما دبروا فقد أخرجك من بينهم إلى دار الهجرة ووطن السلطان والقوة ، والله خير الماكرين لأن مكره نصر للحق وإعزاز لأهله وخذلان للباطل وحزبه .

وفي الآية إيماء إلى أن هذه حالهم الدائمة في معاملته صلى الله عليه وسلم ومن تبعه من المؤمنين .

وحديث ذلك المكر الذى ترتبت عليه الهجرة إلى المدينة ، وبها ظهر الإسلام وخذل الشرك روى من طرق عدة أقربها رواية ابن إسحق فى سيرته قال :

إن نفرا من قريش ومن أشراف كل قبيلة اجتمعوا ليدخلوا دار الندوة واعترضهم إبليس فى صورة شيخ جليل ، فلما رأوه قالوا من أنت ؟ قال شيخ من أهل نجد سمعت بما اجتمعتم له فأردت أن أحضركم ولن يعدمكم منى رأى ونصح ، قالوا أجل فادخل فدخل معهم ، فقال : انظروا فى شأن هذا الرجل فوالله ليوشكن أن يؤاتيكم فى أمركم بأمره ، فقال قائل : احبسوه فى وثاق ثم تربصوا به المنون حتى يهلك كما هلك من كان قبله من الشعراء : زهير والنابغة فإنما هو كأحدهم ، فقال عدو الله الشيخ النجدى لا والله ما هذا لكم برأى ، والله ليخرجن رائد من محبسه لأصحابه فليوشكن أن يثبوا عليه حتى يأخذوه من أيديكم ثم يمنعوه منكم ، فما آمن عليكم أن يخرجوكم من بلادكم فانظروا فى غير هذا الرأى ، فقال قائل : فأخرجوه من بين أظهركم فاستريحوا منه ، فإنه إذا خرج لم يضركم ما صنع وأين وقع ، وإذا غاب عنكم أذاه استرحتم منه ، فإنه إذا خرج لم يضركم ما صنع وكان أمره فى غيركم ، فقال الشيخ النجدى : لا والله ماهذا لكم برأى ، ألم تروا حلاوة قوله وطلاقة لسانه وأخذه للقلوب بما تسمع من حديثه ، والله لئن فعلتم ثم استعرض العرب لتجتمعن إليه ليسيرُن إليكم حتى يخرجكم من بلادكم ويقتل أشرافكم ، قالوا صدق والله ، فانظروا رأيا غير هذا ، فقال أبو جهل والله لأشيرن عليكم برأى لا أرى غيره قالوا وما هذا ؟ قال نأخذ من كل قبيلة غلاما وسطا شابا نهدا ثم يعطى كل غلام منهم سيفا صارما ثم يضربونه به ضربة رجل واحد ، فإذا قتلتموه تفرق دمه فى القبائل كلها ، فلا أظن هذا الحى من بنى هاشم يقدرون على حرب قريش كلهم ، وإنهم إذا رأوا ذلك قبلوا العقل (الدية) واسترحنا وقطعنا عنا أذاه ، فقال الشيخ النجدى : هذا والله هو الرأى ، القول ما قال الفتى لا أرى غيره وتفرقوا على ذلك وهم مجتمعون له ، فأتى جبريل عليه السلام رسول الله صلى الله عليه وسلم فأمره ألا يبيت فى مضجعه الذى كان يبيت فيه وأخبره بمكر القوم

فلم يبت رسول الله صلى الله عليـــه وسلم فى بيته تلك الليلة وأذن الله له عند ذلك فى الخروج وأمرهم بالهجرة . وافترض عليهم القتال فأنزل الله: «أُذِنَ لِلَّذِينَ يُقَاتَلُونَ» الآيتين فكان أول ما أنزل فى الحرب وأنزل بعد قدومه المدينة يذكره نعمته عليه .

(وإذ يمكر بك الذين كفروا) الآيتين .

ولما قص الله مكرهم فى ذات محمد قص علينا مكرهم فى دين محمد فقال :

(وإذا تتلى عليهم آياتنا قالوا قد سمعنا لو نشاء لقلنا مثل هذا) أى وإذا تتلى على هؤلاء الذين كفروا آيات كتاب الله الواضحة لمن شرح الله صدره لفهمه قالوا جهلا منهم وعنادا للحق وهم يعلمون أنهم كاذبون : لو نشاء لقلنا مثل هذا الذى تلى علينا ، وقد نسب هذا القول إلى النضر بن الحرث من بنى عبد الدار وكان يختلف إلى أرض فارس فيسمع أخبارهم عن رستم واسفنديار وكبار العجم ، ويمر باليهود والنصارى فيسمع منهم التوراة والإنجيل .

ثم عللوا هذه الدعوة الكاذبة بما هو أصرح منها فى الكذب فقالوا :

(إن هذا إلا أساطير الأولين) أى إن أخبار القرآن عن الرسل وأقوامهم تشبه قصص أولئك الأمم فهم يستطيعون أن يأتوا بمثلها فما هى من خبر الغيب الدال على أنه وحى من الله .

وقد يكون النضر أول من قال هذه الكلمة فقلده فيها غيره ، ولكنهم لم يكونوا يعتقدون أنها أساطير مختلقة وأن محمدا هو الذى افتراها إذ لم يكونوا يتهمونه بالكذب كما قال تعالى : « فَإِنَّهُمْ لَا يُكَذِّبُونَكَ وَلَٰكِنَّ الظَّالِمِينَ بِآيَاتِ اللهِ يَجْحَدُونَ » ونحو الآية قوله : « وَقَالُوا أَسَاطِيرُ الْأَوَّلِينَ اكْتَتَبَهَا فَهِيَ تُمْلَى عَلَيْهِ بُكْرَةً وَأَصِيلًا » وهم ما كانوا يعتقدون صدق هذه المقالة لأنهم يعلمون أنه أمى لا يتعلم شيئا ، بل قالوا ذلك ليصدوا العرب عن القرآن وقد كذبهم الله فيه فما استطاعوا له إثباتا .

وقد روى أن النضر هو الذى أنزل فيه : « وَمِنَ النَّاسِ مَنْ يَشْتَرِي لَهْوَ الْحَدِيثِ لِيُضِلَّ عَنْ سَبِيلِ اللهِ بِغَيْرِ عِلْمٍ وَيَتَّخِذَهَا هُزُوًا » فقد اشترى قينة جميلة تغنى الناس بأخبار الأمم لصرفهم عن سماع القرآن ، وهذا منتهى الجحود والعناد .

وقد كان زعماء قريش كالنضر بن الحرث وأبى جهل والوليد بن المغيرة يتواصون بالإعراض عن سماع القرآن ويمنعون الناس عنه ، ثم يختلفون أفرادا إلى بيت النبى صلى الله عليه وسلم ليلا يستمعون إليه ويعجبون منه ومن تأثيره وسلطانه على القلوب حتى قال الوليد بن المغيرة كلمته المشهورة : إنه يعلو ولا يعلى عليه ، وإنه يحطم ماتحته ، فخافوا أن تسمعها العرب وما زالوا يلحون عليه ليقول كلمة منفرة فقال : « إِنْ هَٰذَا إِلَّا سِحْرٌ يُؤْثَرُ » .

وَإِذْ قَالُوا اللَّهُمَّ إِنْ كَانَ هَٰذَا هُوَ الْحَقَّ مِنْ عِنْدِكَ فَأَمْطِرْ عَلَيْنَا حِجَارَةً مِنَ السَّمَاءِ أَوِ ائْتِنَا بِعَذَابٍ أَلِيمٍ (٣٢) وَمَا كَانَ اللهُ لِيُعَذِّبَهُمْ وَأَنْتَ فِيهِمْ وَمَا كَانَ اللهُ مُعَذِّبَهُمْ وَهُمْ يَسْتَغْفِرُونَ (٣٣) وَمَا لَهُمْ أَلَّا يُعَذِّبَهُمُ اللهُ وَهُمْ يَصُدُّونَ عَنِ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ ، وَمَا كَانُوا أَوْلِيَاءَهُ إِنْ أَوْلِيَاؤُهُ إِلَّا الْمُتَّقُونَ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لَا يَعْلَمُونَ (٣٤) وَمَا كَانَ صَلَاتُهُمْ عِنْدَ الْبَيْتِ إِلَّا مُكَاءً وَتَصْدِيَةً فَذُوقُوا الْعَذَابَ بِمَا كُنْتُمْ تَكْفُرُونَ (٣٥) .

المعنى الجملى

روى أنه لما قال النضر : إن هذا إلا أساطير الأولين، قال له النبى صلى الله عليه وسلم: ويلك إنه كلام رب العالمين فقال : اللهم إن كان هذا هو الحق من عندك الآية.

الإيضاح

(وإذ قالوا اللهم إن كان هذا هو الحق من عندك فأمطر علينا حجارة من السماء أو ائتنا بعذاب أليم) أى اللهم إن كان هذا القرآن وما يدعو إليه هو الحق منزلا من عندك ليدين به عبادك كما يدعى محمد صلى الله عليه وسلم فافعل بنا كذا وكذا .

وفى هذا إيماء إلى أنهم لايتبعونه وإن كان هو الحق المنزل من عند الله ، بل يفضلون الهلاك بحجارة يرجمون بها من السماء أو بعذاب أليم سوى ذلك ، كما أن فيه تهكما وإظهارا للجزم واليقين بأنه ليس من عند الله ــ وحاشاه ــ ومنه يعلم أيضا أن دعاءهم كفر وعناد ، لا لأن مايدعوهم إليه قبيح وضار .

روى أن معاوية قال لرجل من سبأ : ماأجهل قومك حين ملكوا عليهم امرأة ! فقال : أجهل من قومى قومك حين قالوا : (اللهم إن كان هذا هو الحق من عندك فأمطر علينا حجارة من السماء) ولم يقولوا : فاهدنا له .

ثم قال تعالى بيانا للموجب لإمهالهم والتوقف فى إجابة دعائهم .

(وما كان الله ليعذبهم وأنت فيهم) أى وما كان من سنة الله ولا من مقتضى رحمته ولاحكمته أن يعذبهم وأنت الرسول فيهم، لأنه إنما أرسلك رحمة ونعمة لاعذابا ونقمة ــ إلى أنه قد جرت سنته أيضا ألا يعذب أمثالهم من مكذبى الرسل وهم بين أظهرهم ، بل كان يخرج الرسل أولا كما حدث لهود وصالح ولوط .

(وما كان الله معذبهم وهم يستغفرون) أى وما كان الله ليعذبهم هذا العذاب الذى عذب بمثله الأمم قبلهم فاستأصلهم ، وهم يستغفرون : أى وفيهم من يستغفر، وهم المسلمون الذين بين أظهرهم ممن تخلف عن رسول الله صلى الله عليه وسلم من المستضعفين .

روى ابن جرير قال : كان رسول الله صلى الله عليه وسلم بمكة فأنزل الله : (وما كان الله ليعذبهم وأنت فيهم) ثم خرج إلى المدينة فأنزل الله : (وما كان الله

معذبهم وهم يستغفرون) وكان من بقى فى مكة من المؤمنين يستغفرون فلما خرجوا أنزل الله : (وما لهم ألا يعذبهم الله وهم يصدون عن المسجد الحرام) الآية فأذن الله فى فتح مكة فهو العذاب الذى وعدهم به .

(وما لهم ألا يعذبهم الله وهم يصدون عن المسجد الحرام) أى وأى شىء يمنع تعذيبهم بما دون عذاب الاستئصال عند زوال المانع منه ، وكيف لا يعذبون وهم يمنعون المسلمين من دخول المسجد الحرام ولو لأداء النسك ؟ فما كان مسلم يقدر أن يدخل المسجد الحرام ، فإن دخل مكة عذبوه إذا لم يكن فيها من يجيره ، والمراد بالعذاب هنا عذاب بدر إذ قتل صناديدهم ورءوس الكفر كأبى جهل وأسر سراتهم .

(وما كانوا أولياءه) أى وما كانوا مستحقين للولاية عليه لشركهم وعمل المفاسد فيه كطوافهم فيه عراة رجالا ونساء ، وهذا ردّ لقولهم : نحن ولاة البيت والحرم نصد من نشاء وندخل من نشاء .

(إن أولياؤه إلا المتقون) أى إنه لا يلى أمره إلا من كان برّا تقيا ، لا من كان كافرا عابدا للصنم .

(ولكن أكثرهم لا يعلمون) أنهم ليسوا أولياء الله ، ولا أن أولياءه ليسوا إلا المتقين ؛ فهم الآمنون من عذابه بمقتضى عدله فى خلقه والجديرون بولاية بيته .

وقد نسب هذا الجهل إلى الأكثر إذ كان فيهم من لا يجهل حالهم فى جاهليتهم وضلالهم فى شركهم وكون الله لا يرضى عنهم ، كما كان فيهم من يكتم إيمانه خوفا من الفتنة ، ومنهم المستعدون له بسلامة الفطرة ، وقد جرت سنة القرآن أن يدقق فى الحكم ، ولا يقول إلا الحق ولا يقول كما يقول الناس : إن القليل لا حكم له .

هذا ، وإن جماهير المسلمين الآن صاروا يجهلون ولاية الله لأوليائه ، فصارت هذه الولاية عندهم تشمل المجانين والمجاذيب الذين يسيل اللعاب من أشداقهم وترتع الحشرات فى ثيابهم وأجسادهم ، وتشمل أصحاب الدجْل والخرافات والدعاوى الباطلة للكرامات وصاروا يؤيدون دعاويهم من رؤى الأنبياء والأقطاب فى المنام .

ثم بين الله سوء حالهم فى أفضل مابنى البيت لأجله ، وهى الصلاة ، فقد كانوا يطوفون عراة فقال :

(وما كان صلاتهم عند البيت إلا مكاء وتصدية) المكاء : الصفير ، والتصدية : التصفيق ، وكان أحدهم يضع يده على الأخرى ويصفر ، قال ابن عباس : كانت قريش تطوف بالبيت عراة تصفر وتصفق ، وروى عنه أن الرجال والنساء منهم كانوا يطوفون عراة مشبكين بين أصابعهم يصفرون فيها ويصفقون ، وروى عن سعيد بن جبير قال : كانت قريش يعارضون النبي صلى الله عليه وسلم فى الطواف يستهزئون ويصفرون فنزلت (وما كان صلاتهم عند البيت إلا مكاء وتصدية) .

وعلى الجملة فقد كانت صلاتهم وطوافهم من قبيل اللهو واللعب سواء عارضوا الرسول صلى الله عليه وسلم فى طوافه وخشوع صلاته وحسن تلاوته أم لا .

(فذوقوا العذاب بما كنتم تكفرون) أى فذوقوا عذاب القتل لبعض كبرائكم والأسر للآخرين منهم وانهزام الباقين مدحورين مكسورين يوم بدر .

والخلاصة — فذوقوا العذاب الذى طلبتموه ، وما كان لكم أن تستعجلوه إذ قلتم (أو ائتنا بعذاب أليم) .

إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا يُنْفِقُونَ أَمْوَالَهُمْ لِيَصُدُّوا عَنْ سَبِيلِ اللهِ فَسَيُنْفِقُونَهَا ثُمَّ تَكُونُ عَلَيْهِمْ حَسْرَةً ثُمَّ يُغْلَبُونَ ، وَالَّذِينَ كَفَرُوا إِلَى جَهَنَّمَ يُحْشَرُونَ (٣٦) لِيَمِيزَ اللهُ الْخَبِيثَ مِنَ الطَّيِّبِ وَيَجْعَلَ الْخَبِيثَ بَعْضَهُ عَلَى بَعْضٍ فَيَرْكُمَهُ جَمِيعاً فَيَجْعَلَهُ فِي جَهَنَّمَ أُولَئِكَ هُمُ الْخَاسِرُونَ (٣٧) .

المعنى الجملى

لما بين سبحانه أحوال هؤلاء المشركين فى الطاعات البدنية بقوله : وما كان صلاتهم عند البيت إلا مكاء وتصدية ــ قفى ذلك بذكر أحوالهم فى الطاعات المالية .

روى عن ابن عباس ومجاهد أن الآية نزلت فى أبى سفيان وما كان من إنفاقه على المشركين فى بدر ومن إعانته على ذلك فى أُحد ـ ذاك أنه لما نجا بالعير بطريق البحر إلى مكة مشى ومعه نفر من المشركين يستنفرون الناس للقتال فجاءوا كل من كان لهم تجارة فقالوا : يا معشر قريش إن محمدا قد وتركم وقتل رجالكم فأعينونا بهذا المال على حربه فلعلنا ندرك منه ثأرا ـ ففعلوا .

وقال سعيد بن جبير: إنه استأجر يوم أحد ألفين من الأحابيش (واحدها حباشة: الجماعة ليسوا من قبيلة واحدة) يقاتل بهم رسول الله صلى الله عليه وسلم سوى من استجاش من العرب وأنفق عليهم أربعين أوقية (والأوقية اثنان وأربعون مثقالا من الذهب) .

الإيضاح

(إن الذين كفروا ينفقون أموالهم ليصدوا عن سبيل الله) سبيل الله دينه واتباع رسوله : أى إن مقصدهم بالإنفاق الصد عن اتباع محمد وهو سبيل الله وإن لم يكن عندهم كذلك .

(فسينفقونها ثم تكون عليهم حسرة ثم يغلبون) أى إنه سيقع هذا الإنفاق وتكون عاقبته الحسرة لأنه سيذهب المال ولا يصلون إلى المقصود ، بل يُغلبون كما قال تعالى : « كَتَبَ اللهُ لَأَغْلِبَنَّ أَنَا وَرُسُلِي » وسينكسرون المرة بعد المرة .

(والذين كفروا إلى جهنم يحشرون) أى والذين كفروا يساقون يوم القيامة إلى جهنم إذا هم أصروا على كفرهم حتى ماتوا فيكون لهم شقاء الدارين وعذابهما .

وقد كان للمسلمين العبرة فى هذه الآية فينفقون أموالهم فى سبيل الله لأن لهم بها سعادة الدارين ، وهكذا كانوا أيام قاموا بحقوق الإسلام والإيمان .

والكفار فى هذا العصر ينفقون الكثير من الأموال للصد عن الإسلام وفتنة الضعفاء من العامة بالدعوة إلى دينهم وتعليم أولاد المسلمين فى مدارسهم ومعالجة

رجالهم ونسائهم فى مستشفياتهم إلى نحو ذلك من الوسائل الناجعة فى نشر دينهم وفتنة المسلمين عن دينهم وهم لايبالون ماذا يفعلون ـ ألا ساء ما كانوا يعملون .

(ليميز الله الخبيث من الطيب) أى إن الله كتب النصر والغلب لعباده المتقين والخذلان والحسرة لمن يعاديهم ويقاتلهم من الكفار للصد عن سبيل الله ، ليميز الكفر من الإيمان والحق والعدل من الجور والطغيان .

وهذا التمييز بين الأمرين فى سنن الاجتماع هو بقاء أمثل الأمرين وأصلحهما : فَأَمَّا الزَّبَدُ فَيَذْهَبُ جُفَاءً ، وَأَمَّا مَا يَنفَعُ النَّاسَ فَيَمْكُثُ فِي الْأَرْضِ » وسنن الله فى الدنيا والآخرة واحدة ، فالخبيث فى الدنيا خبيث فى الآخرة ومن ثم قال :

(ويجعل الخبيث بعضه على بعض فيركمه جميعا فيجعله فى جهنم أولئك هم الخاسرون) أى ويجعل الله الخبيث بعضه منضما متراكبا على بعض على حسب سنته تعالى فى اجتماع المتشاكلات واختلاف المتناكرات كما جاء فى الحديث « الأرواح جنود مجندة ، فما تعارف منها ائتلف ، وما تناكر منها اختلف » ثم يجعل أصحابه فى جهنم إلى يوم القيامة ، وبئس المصير لمن خسر نفسه وماله .

قُلْ لِلَّذِينَ كَفَرُوا إِنْ يَنْتَهُوا يُغْفَرْ لَهُمْ مَا قَدْ سَلَفَ ، وَإِنْ يَعُودُوا فَقَدْ مَضَتْ سُنَّةُ الْأَوَّلِينَ (٣٨) وَقَاتِلُوهُمْ حَتَّى لَا تَكُونَ فِتْنَةٌ وَيَكُونَ الدِّينُ كُلُّهُ لِلَّهِ فَإِنِ انْتَهَوْا فَإِنَّ اللَّهَ بِمَا يَعْمَلُونَ بَصِيرٌ (٣٩) وَإِنْ تَوَلَّوْا فَاعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ مَوْلَاكُمْ ، نِعْمَ الْمَوْلَى وَنِعْمَ النَّصِيرُ (٤٠) .

المعنى الجملى

بعد أن أبان سبحانه حال من يصر على الكفر والصد عن سبيل الله وقتال رسوله والمؤمنين وعاقبة أعمالهم فى الدنيا والآخرة — قفى على ذلك ببيان من يرجعون عنه ويدخلون فى الإسلام لأن الأنفس فى حاجة إلى هذا البيان فقال :

الإيضاح

(قل للذين كفروا إن ينتهوا يغفر لهم ما قد سلف) أى قل أيها الرسول لهؤلاء الكفار: إن ينتهوا عما هم عليه من عداوتك وعنادك بالصد عن سبيل الله، يغفر لهم الله ماقد سلف منهم من ذلك ومن سواه من الذنوب، فلايعاقبهم على شىء من ذلك فى الآخرة، ويغفر لهم الرسول والمؤمنون فلا يطالبون قاتلا منهم بدم ولا سالبا أوغانما بسلب ولا غنم.

روى مسلم من حديث عمرو بن العاص قال: «فلما جعل الله الإيمان فى قلبى أتيت النبى صلى الله عليه وسلم فقلت ابسط يدك أبايعك، فبسط يده فقبضت يدى، قال مالك، قلت أردت أن أشترط. قال ماذا تشترط؟ قلت أن يغفر لى، قال أما علمت يا عمرو أن الإسلام يهدم ما كان قبله، وأن الهجرة تهدم ما كان قبلها، وأن الحج يهدم ما كان قبله؟».

(وإن يعودوا فقد مضت سنة الأولين) أى وإن يعودوا إلى العداء والصد والقتال تجر عليهم سننه المطردة فى أمثالهم من الأولين الذين عادوا الرسل وقاتلوهم، من نصر المؤمنين وخذلانهم وهلاكهم كما حدث لهم يوم بدر كما قال: «إِنَّا لَنَنْصُرُ رُسُلَنَا وَالَّذِينَ آمَنُوا فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَيَوْمَ يَقُومُ الْأَشْهَادُ».

ثم بين ماسلف من قوله: فقد مضت سنة الأولين، ورغب المؤمنين فى قتالهم فقال:

(وقاتلوهم حتى لا تكون فتنة ويكون الدين كله لله) أى وقاتلهم أيها الرسول أنت ومن معك من المؤمنين حتى تزول الفتنة فى الدين بالتعذيب وضروب الإيذاء لأجل تركه كما فعلوا ذلك حين كانت لهم القوة والبطش فى مكة إذ أخرجوكم منها لأجل دينكم ثم أتوا لقتالكم فى دار الهجرة، وحتى يكون الدين كله لله فلا يستطيع أحد أن يفتن أحدا عن دينه ويكرهه على تركه إلى دين المكره تقيّة وخوفا.

وخلاصة ذلك — قاتلوهم حتى يكون الناس أحرارا فى عقائدهم لايكره أحد

أحدا على ترك عقيدته إكراها ولا يؤذى ويعذب لأجلها كما قال تعالى : « لَا إِكْرَاهَ فِي الدِّينِ قَدْ تَبَيَّنَ الرُّشْدُ مِنَ الْغَيِّ» والمسلمون إنما يقاتلون لحرية دينهم ولا يكرهون عليه أحدا من دونهم .

وروى عن ابن عباس تفسير الفتنة بالشرك ـ والمعنى عليه ـ قاتلوهم حتى لا يبقى شرك وتزول الأديان الباطلة فلا يبقى إلا الإسلام .

ويؤيد الرأى الأول أنه جاء رجلان فى فتنة ابن الزبير إلى عبد الله بن عمر فقالا إن الناس قد صنعوا ما ترى وأنت ابن عمر بن الخطاب وأنت صاحب رسول الله صلى الله عليه وسلم فما يمنعك أن تخرج ؟ قال يمنعنى أن الله حرم علىّ دم أخى المسلم . قالا ولم يقل الله (وقاتلوهم حتى لا تكون فتنة ويكون الدين كله لله) قال قد قاتلنا حتى لم تكن فتنة وكان الدين لله وأنتم تريدون أن تقاتلوا حتى تكون فتنة ويكون الدين لغير الله .

(فإن انتهوا فإن الله بما يعملون بصير) أى فإن انتهو عن الكفر وعن قتالكم فإن الله يجازيهم على ما فعلوا على حسب علمه .

(وإن تولوا فاعلموا أن الله مولاكم ، نعم المولى ونعم النصير) أى وإن أعرضوا عن سماع تبليغكم ولم ينتهوا عن كفرهم وفتنتهم وقتالهم لكم فأيقنوا بنصر الله ومعونته لكم وهو متولى أموركم فلا تبالوا بهم ولا تخشوا بطشهم ، وهو نعم المولى ونعم النصير فلا يضيع من تولاه ولا يغلب من نصره .

وما غلب المسلمون فى العصور الأخيرة وذهب أكثر ملكهم إلا لأنهم تركوا الاهتداء بهدى دينهم وتركوا الاستعداد المادى والحربى الذى طلبه الله بقوله : « وَأَعِدُّوا لَهُمْ مَا اسْتَطَعْتُمْ مِنْ قُوَّةٍ » واتكلوا على خوارق العادات وقراءة الأحاديث والدعوات ، وذلك مالم يشرعه الله ولم يعمل به رسوله ـ إلى أنهم تركوا العدل والفضائل وسنن الله فى الاجتماع التى انتصر بها السلف الصالح ، وأنفقوا أموال الأمة والدولة فيما حرم الله عليهم من الإسراف فى شهواتهم .

وعلى العكس من ذلك اتبع الإفرنج تعاليم الإسلام فاستعدوا للحرب واتبعوا سنن الله فى العمران فرجحت كفتهم ، ولله الأمر .

وما مكن الله لسلف المسلمين من فتح بلاد كسرى وقيصر وغيرهما من البلاد إلا لما أصاب أهلها من الشرك وفساد العقائد فى الآداب ومساوى الأخلاق والعادات والانغماس فى الشهوات واتباع سلطان البدع والخرافات ــ فجاء الإسلام وأزال كل هذا واستبدل التوحيد والفضائل بها ، ومن ثم نصر الله أهله على الأمم كلها .

ولما أضاع جمهرة المسلمين هذه الفضائل واتبعوا سنن من قبلهم فى اتباع البدع والرذائل وقد حذرهم الإسلام من ذلك ، ثم قصروا فى الاستعداد المادى والحربى للنصر فى الحرب عاد الغلب عليهم لغيرهم ومكن لسواهم فى الأرض: « وَلَقَدْ كَتَبْنَا فِي الزَّبُورِ مِنْ بَعْدِ الذِّكْرِ أَنَّ الْأَرْضَ يَرِثُهَا عِبَادِيَ الصَّالِحُونَ » أى الصالحون لاستعمارها والانتفاع بما أودع فيها من كنوز وخيرات .

وفق الله المسلمين إلى الهدى والرشاد وجعلهم يعيدون سيرتهم الأولى ويهتدون بهدى دينهم ويستمسكون بآدابه ويتبعون سيرة السلف الصالح فيكتب لهم العز فى الدنيا والسعادة فى الآخرة ، والحمد لله أولا وآخرا .

وكان الفراغ من مسوّدة هذا الجزء فى ليلة العشرين من شهر رمضان سنة اثنتين وستين وثلثمائة وألف بمدينة حلوان من أرباض القاهرة ، وصلى الله وسلم على سيدنا محمد وعلى آله وصحبه .

فهرست

أهم المباحث لعامة التي فى هذا الجزء